العلم في مرآة الحضارة

إضاءات حول (دارون في قفص الاتهام)

في دراسات القاضي فيليب إي. جونسون

الدكتور محمد وائل دعبول

ماجستير في علم الأحياء- مجاز في الباثولوجيا السريرية

بورد في التشخيص المخبري

Mohammed Wael Daboul,

DDS, MSc, Biology MT(ASCP)

Laboratory medicine specialist

بسم الله الرحمن الرحيم

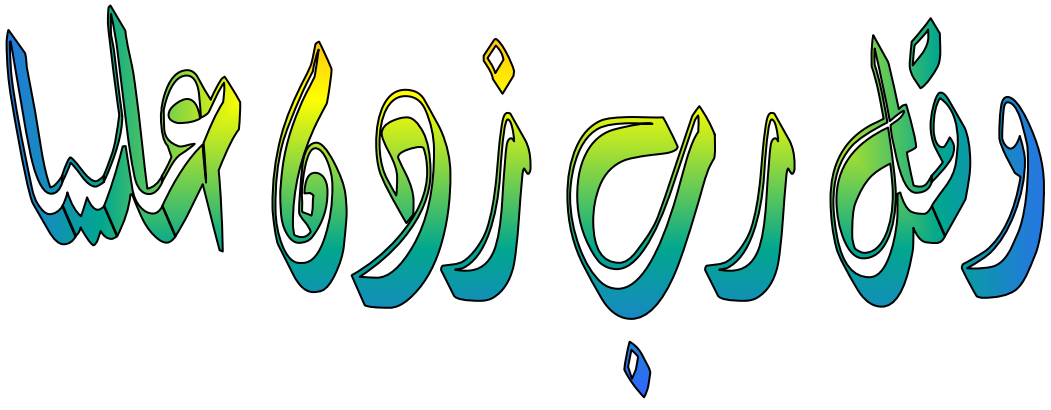
وقل رب زدني علما

الفهرس

المقدمة	4
الاعتراضات على الداروينية في أمريكا	9
هل أنصفت المحكمة في قراراتها وكانت دقيقة في أحكامها	14
التطور	41
تساؤلات حول التطور	47
الاصطفاء الطبيعي كفرضية علمية	52
حجج أنصار التطور التي يستندون إليها	71
القفزات	72
المستحاثات	97
من الرئيسيات إلى الإنسان	99
البيولوجيا الجزيئية والتطور	102
نشأة الحياة	105
المذهب الطبيعي	121
قصور التفسير المادي للكون وللمخلوقات	126
القاضي جونسون وتيلهارد	131
الدلائل المستحاثية وثني الحقائق	133
التطور والشواهد العلمية التجريبية	150
الحياة وبرمجتها	170
مراجع الكتاب	189

مقدمة:

ظهر التطور إلى الوجود منذ عام 1859 وهو العام الذي نشر فيه دارون كتابه الشهير (نشوء الأنواع) . ومنذ ذلك الحين أخذت الجهات العلمية ذات النفوذ تدفع به إلى الواجهة الإعلامية والتعليمية. وقد تم إجراء العديد من المناظرات في تلك الآونة بين من يطلق عليهم أنصار التطور من أمثال دارون وهيكسلي وهيغل وغيرهم، وهم الذين اعتنقوا فلسفة التطور كمذهب متكامل، وبين من أطلق عليهم لاحقا اسم أنصار الخلق. وهم الأغلبية من البشر الذين يؤمنون بأن خالقا قد خلق الكون وهو يديره بتدبير واقتدار. وفيما يبدو، فقد كان التفوق الدعائي والنفوذ في المناصب ومراكز القرار في حينه، حليف أنصار التطور. مما حدا منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى نهاية القرن العشرين بأن يتم فرض التطور فرضا في المنهاج التعليمي على اعتبار أنه الحقيقة العلمية الخالصة لجميع الهيئات التعليمية العامة في معظم الأنحاء. ومنذ ذلك الحين، و لا يزال يتم تدريس التطور في المدارس العامة ويتم تقديمه في الإعلام على أنه حقيقة وليس محض نظرية بمسمى (حقائق التطور).

فمن خلال منطلق علمي، ما هو تعريف ذلك المصطلح الذي يسمى بالتطور مقارنة بالمفهوم الآخر الذي هو مفهوم الخلق و يتبع ذلك ما هو مدلول التصميم الذكي؟

الدارونية هي أول من طرح مصطلح التطور في معناه الحالي، حيث تعتبر الدارونية أن كل الأشياء الحية قد تطورت بواسطة قوى طبيعية غير موجهة أو هادفة من خلال آليات طبيعية مادية تدريجية بدءا من الأشياء غير الحية انتقالا إلى العضويات الحية البسيطة فالأكثر تعقيدا، مما قاد في النهاية إلى ظهور الإنسان دون أن يكون لأي قوى ذكية ماوراء الطبيعة أي دور فاعل في هذه العملية.

عندما يتكلم البيولوجيون عن " التطور" فما يعنونه بالتحديد ، ليس فقط مجرد تغيير وإنما هو تغيير غير موجه ولا مقرر ، بدون هدف لا تأثير عليه من قبل أي ذكاء علوي. هذا التعريف يوضح أن التطور يستبعد تدخل أي عقل خارق في عمليات الخلق. ووفقا للداروينيين ، نحن مجرد "حوادث" ولسنا "تصاميم". فالتطور (من خلال الفهم العلمي المعاصر) لا يتنكر لعلوم الخلق فقط، وإنما للخلق في معناه العام. و التطوريون يعنون (بالتطور)، التطور الطبيعاني المادي الكامل، والذي يتضمن آليات الصدفة التي يجري

تشذيبها بواسطة الاصطفاء الطبيعي. وهذا يعني أن التطور يعرف، وبما لا لبس فيه ظاهرا أو في المضمون، بأنه تطور طبيعي بالكامل- بمعنى أنه لا يتم توجيهه من قبل أية جهة تتصف بالذكاء أو التوجيه الهادف.

أما فيما يتعلق بالمؤمنين بالخلق فهم يرون أن علوم الخلق تسعى من الوجهة العلمية للتحقق من صحة التفسير الحرفي للخلق كما هو وارد في الكتب المقدسة: هؤلاء العلماء يصرون على أن تصميما ذكيا هو السبب في وجود الكائنات الحية من خلال غاية هادفة. وهم يؤكدون أن الحياة قد وجدت من قبل قوى فاعلة ذكية وموجهة، بل يصر البعض من أنصار الخلق استنادا إلى الكتب السماوية أن خلق الكون قد تم خلال ستة أيام قبل مالا يزيد عن عشرة آلاف عام ، وأن التطور منذ ذلك الحين إن كان حصل، فقد شمل تعديلات بسيطة محدودة لا قيمة لها، وليس تغييرات أساسية. إن الشخص الذي يؤمن " بالخلق" هو شخص غالبا مؤيد " لحداثة الأرض" وهو يعزو نشأة المستحاثات للطوفان الذي حدث في عهد نوح عليه السلام. مثل هؤلاء العلماء الذين يؤمنون بتلك المفاهيم قد أطلق عليهم مصطلح (أنصار الخلق أو الخلقيون) وهم قد خالفوا مفهوم التطور و ينكرون أن يكون التطور بمثابة حقيقة.

أثناء المرافعة القانونية التي أجريت في عام 1982 في قضية أركنساس ، وجدت محكمة المقاطعة أن تدريس "علم الخلق"على النحو المحدد أعلاه كان غير دستوري لأنه في الواقع، يمثل إعادة عرض لمفهوم التكوين في موضوع النشوء كما ورد في الكتب المقدسة، والذي يعني أن تدريس هذه المواد في أمريكا لها أثر في تعزيز وجهة نظر دينية خاصة وذلك بخلاف القوانين هناك التي لا تقر ذلك.

إن التصميم الذكي بالمقابل هو نظرية علمية ترى أن أسبابا ذكية ربما تكون قد لعبت دورا حاسما في أصل الكون والحياة وتنوعها. ويذهب المعتقدون به إلى أن التصميم في طبيعته قابل للاستقصاء تجريبيا ، وخاصة في الأنظمة الحية. فالتصميم الذكي كمفهوم هو حركة واعية تتضمن برنامجا للبحث العلمي للاستقصاء عن الأسباب الذكية التي من شأنها أن تتحدى التفسيرات الطبيعية بآليات عفوية غير موجهة وهي التي تقود حاليا النظام التعليمي لمختلف العلوم و الإجراءات البحثية حول مسألتي النشوء والارتقاء. لقد وصفت نظرية التصميم الذكي التي كتبها الأستاذ المنظر وليام ديمبسكي Dembski من جامعة بايلور على النحو التالي: التصميم الذكي ينطلق من ملاحظة أن الأسباب الذكية يمكن لها القيام بالأشياء التي لا يمكن للأسباب الطبيعية غير

الموجهة و العفوية أن تنجزها . فعلى سبيل المثال: يمكن للمسببات الطبيعية العفوية نشر قطع غير منتظمة على لوحة ما، ولكن لا يمكن ترتيب تلك القطع بأشكال ذات معنى مثل بناء الكلمات والجمل. فللحصول على جملة ما ذات ترتيب ذو مغزى يتطلب ذلك أسبابا ذكية.

هذه الآلية، بأن هناك فرقا أساسيا بين الأسباب الطبيعية العفوية من جهة والأسباب الذكية من جهة أخرى، هي التي كانت تبنتها حجج التصميم خلال العقود الماضية.

وبالنسبة للعين غير المتحيزة فإن فرضية التصميم تقدم قفزات نوعية حقيقية في دراسة الطبيعة. وهي تمثل تفاعلا عقليا فطريا مع البيانات المرصودة. حتى أن أكثر علماء علم الأحياء التطوري المتحمسين يعترفون أن المنظومات الحية تبدو مصممة وفقا لغاية.

يعكف علماء التصميم الذكي حاليا على تطوير سبل تجريبية وموضوعية لاختبار وتأكيد فرضية أن الحياة وبعض جوانب تنوعها قد تكون نتاج سبب ذكي. إنهم يفعلون ذلك ليس فقط من خلال إظهار الدلائل الإيجابية على التصميم الذي "يثبت" الفرضية (على سبيل المثال، وجود نظم رسائل محمولة مشفرة)، ولكن أيضا من خلال السعي إلى إيجاد الدليل الذي "يستبعد" الفرضيات الطبيعانية المنافسة مثل التطور الكيميائي، نظرية التطور الداروينية، والعديد من النظريات الجديدة التي تتكلم عن آليات "التنظيم الذاتي".

فالتصميم الذكي إذن وفقا لتعريفه ليس مطابقا لعلم الخلق. إن التصميم الذكي هو مجرد فرضية تستقصي السبب المباشر لأحداث معينة حدثت في الماضي على أساس الملاحظة وتحليل البيانات. التصميم الذكي لا ينشأ من أي نص ديني، ولا يسعى للتحقق من صحة أي نهج ديني حول النشوء. يعترف مؤيدو التصميم الذكي أن نظرية التصميم الذكي من الممكن دحضها لدى وجود أدلة جديدة دامغة ضده. إنه بمثابة خيمة كبيرة والتي بموجبها تجد العديد من الفرضيات الدينية وغير الدينية منزلا لها. لا يقترح التصميم الذكي مطلقا شيئا أكثر من أن الحياة وتنوعها كانتا نتاجا للذكاء مع القدرة على التحكم بالمادة والطاقة. هذا لا يتعارض حرفيا مع "نظرية الخلق في الكتاب المقدس ،" ولا مع العقيدة الإسلامية، ولا أمريكا الهندية، أو أي تراث ديني يستحضر وجود الخالق. التصميم الذكي ببساطة لا يناقش تفاصيل الخلق -لماذا وكيف-، وذلك ليس لأن التصميم الذكي لديه خطة ما خفية يخفيها ولكن لأن البيانات التي لديه ليست مجبرة على تقديم إجابات حاسمة لهذه الأسئلة. يتناول التصميم الذكي

سؤالا واحدا فقط وهو: هل الحياة نتاج عملية موجهة أو غير موجهة؟ هل نشأت الحياة كنتاج لعقل مفكر أو من خلال تموجات للجزيئات في حركة عشوائية؟

خلال القرنين الماضيين، وعلى الرغم من الهيمنة الإعلامية من قبل أنصار التطور، استمر النقاش الجاد والمناظرات العلمية بين كلا الطرفين على جميع الأصعدة من خلال الساحات العلمية والقضائية. وغالبا ما كانت الولايات المتحدة هي الرائدة في تلك المناظرات والمدافعات . في حين أن أوربا كانت تساهم في ذلك بشكل خجول ومحدود، حيث تبنت بشكل واضح منذ البداية وبصفة رسمية، التطور كنهج علمي وحيد في المؤسسات والهيئات العلمية الرسمية في جميع دولها. أما في العالم الإسلامي، وعلى الرغم من صراحة التعارض مع تلك الأفكار الطبيعانية ، فقد بقي الاعتراض على الداروينية والتطور مجرد اعتراض فردي شخصي . لقد تبنت الهيئات العلمية في غالب البلاد العربية على حد سواء من خلال التقليد والمحاكاة تلك الآراء كما هي، دون تمحيص أو نقد واضحين، حيث تبنت معظم العلوم التي جاءت من الغرب وقامت بترجمتها إلى اللغة العربية. وبالرغم من أنه كان الأجدر بعلماء الأمة أن يقوموا بإجراء دراسة معمقة لما يحتمل أن يكون خطأ ، علمي كما يحصل الآن في الغرب، خصوصا وأن مثل تلك الطروحات تمس الحيادية العلمية، لم نلاحظ أية ردود فعل خلال القرنين المنصرمين باستثناء بعض التعليقات الخجولة هنا وهناك . من المفيد أن نقدم ولو فقرات صغيرة تبين فلسفة التطور و وجهة النظر التطورية الطبيعانية الرسمية حول التطور والعلم من قبل بعض من أعمدة التطور وأساطينه كي يتبين مدى المخالفة والتناقض بين تلك الطروحات وبين المنهج العلمي الصائب، عل ذلك يشرح أهمية و ضرورة الالتفات لما سبقنا إليه العالم الغربي من التعرف إلى النهج المتحيز لتلك الاعتقادات. يكتب الفيلسوف وعالم المستحاثات البشرية تيلهارد دي. شاردين " هل التطور نظرية، نظام ، أم أنه فرضية؟ إنه أكثر من ذلك كله_ إنه مسلمة يتحتم على كل الفرضيات والنظريات والأنظمة أن تخضع له، ويجب أن ترضيه كي تكون مقبولة فكريا وصحيحة. التطور هو نور يضيء كل الحقائق، هو مسار يتحتم على كل خطوط التفكير أن تسلكه. هذا هو التطور. التطور ، باختصار، هو الرب الذي علينا أن نعبده. إنه هو الذي سيدخلنا الجنة".

لقد تم التعهد بالالتزام بالنظرة الطبيعانية بوضوح من قبل المؤسسة العلمية في أمريكا حيث يتكلم ممثل المؤسسة البروفيسور في علم الوراثة في جامعة هارفرد ريتشارد ليونتن: "نحن نتحيز لجانب العلم على الرغم من السخف الواضح في بعض أساسياته ، وعلى الرغم من إخفاقه في تحقيق العديد من الوعود الباهظة في مجالات الصحة والحياة، وعلى الرغم من التسامح لدى المجتمع العلمي تجاه تلك القصص التي بلا أدلة، لأن لدينا تعهد مسبق، والتزام تجاه الطبيعانية. لا يتعلق الأمر بأن أساليب ومؤسسات العلم تجبرنا بطريقة أو بأخرى لقبول الشرح المادي في ظاهرة ما من العالم، بل على العكس من ذلك، إننا مدفوعون لذلك لأن لدينا التزاما مسبقا تجاه الطبيعانية لخلق جهاز استقصائي ومجموعة من المفاهيم التي تنتج تفسيرات مادية، مهما كانت مخالفة للحدس، و بغض النظر عن مدى كونها مربكة لمن هم أكثر رشدا . علاوة على ذلك، فالمادية هي قضية مطلقة، لأننا لا يمكن أن نسمح للقدم الإلهية في عبور الباب."

وقد أدلت مدرسة الأحياء في جامعة ولاية كانساس سكوت تود بالرأي التالي "حتى لو أن كل البيانات تشير إلى وجود مصمم ذكي، فإنه ينبغي استبعاد مثل هذه الفرضية من العلم لأنها ليست طبيعانية".

وضح كاتب العلوم المشهور، روبرت رايت، أن الطبيعانية "هي واحدة من (القواعد غير المكتوبة للسلوك العلمي الذي يتطلب التزاما) و بدقة يتجنب معه حتى أضعف الإيحاءات الغائية [التصميم]. والقاعدة هنا تستوجب القبول لأن أولئك الذين يقومون بكسرها سيخضعون للإهانة والسخرية، فقدان العمل، رفض بحوثهم من المجلات العلمية ، والطرد من المؤسسة العلمية" .

لقد حدا عدم تولية الموضوع الاهتمام المناسب ببعض كتاب العربية أن يعلنوا وفي مجلة من أهم وأوسع المجلات انتشارا في عالمنا العربي ويقرروا أن التطور هو حقيقة خالصة لاشك فيها. حيث كتب أحدهم ممن استهوتهم فلسفات التطور: " والمهم أن معظم الجدل يدور الآن ليس حول إذا ما كان التطور حدث بالفعل في الماضي وسيحدث بشكل ما في المستقبل، أو حول مجالات ذلك التطور، ولكن يدور حول كيف حدث هذا التطور في الماضي؟ و كيف يحدث الآن؟ وسيحدث في المستقبل". فهو يبشرنا أن التطور هو أمر لا ريب فيه بل هو الحقيقة العلمية المطلقة التي يسير الكون من خلالها. ويكتب أيضا " وإذا كان التطور البيولوجي قد أدى بمقتضى الدارونية التقليدية إلى تقدم كل أنواع الكائنات الحية، بما فيها المخلوقات العاقلة

بجميع خصائصها ومقوماتها الإدراكية فان التنمية التطورية تهتم إلى جانب ذلك بالنمو الثقافي والتكنولوجي كعامل مساعد على تقدم وارتقاء الجنس البشري بطريقة عقلانية واعية ومرسومة وبسرعة اكبر مما كان يحدث في الماضي بمقتضى الانتخاب الطبيعي ، كما تحقق تقدما هائلا في طول فترة الحياة من ناحية وتقدم إنتاجية العمل والمعرفة العلمية والتنظيمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، من الناحية الأخرى" . هنا يجب أن نسأل : ما الفرق بين كلام هذا الكاتب وما تكلم به تيلهارد دي. شاردين آنفا. هل يجب أن نقبل بمثل هذا الكلام دون أي دليل؟ أم أن علينا ألا نكتفي بالصمت وأن يتم تبيان خلل تلك المزاعم كما يحصل الآن في بقية البلدان من العالم.

الاعتراضات على الداروينية في أمريكا:

وفقا لمؤسسة غالوب فإن استقصاءات الآراء التي أنجزت على مدى العقدين الماضيين (الجدول 1) تشير إلى أن أكثر من ثمانين في المائة من الأمريكيين يعتقدون إيمانيا في بعض أشكال الإجراءات التكوينية الموجهة من قبل الله، على الرغم من أنهم قد لا يعرفون ذلك من خلال تعبير التصميم الذكي. و ما يقرب من نصف هؤلاء يعتقدون بأن "الأرض شابة، كما جاء حرفيا في سفر التكوين" ، والنصف الآخر يعتقدون بما يطلق عليه مسمى "الإيمان" أو " التطور الموجه من قبل الله ".

إذا ما تم تعريف التطور بأنه "تغيير مع مرور الوقت"، فمن الممكن بشكل واضح للمرء أن يؤمن بالله ويعتقد عندئذ بالتطور لأن الله هو من وجه هذا التغيير. ولكن هنا بالتحديد يكون التعريف حرجا للغاية، لأنه إذا قام أحدهم بتعريف التطور كما فعل علماء التطور المذكورين أعلاه (أي من خلال آليات غير موجهة وحوادث غير مخطط لها)، فمن المنطقي أنه من الصعب الاعتقاد عندئذ في إله بخلاف شخص قام ببساطة بإلقاء النرد دون أن يعتزم أي نتيجة معينة . وبالتالي إذا ما نسب للإله استخدامه عملية تطورية عشوائية، فبحكم التعريف سينتج عن ذلك فقط كون بلا هدف معين وآليات غير مقصودة. ومن التناقض الاعتقاد في وجود عملية "موجهة، وغير موجهة" في ذات الوقت. يناقش الأستاذ كينيث ميلر هذه المعضلة:

وكما يبين [كورت] الحكيم بكل وضوح ، فهو يعتقد أن الخطر الحقيقي في علم الأحياء التطورية على المسيحية ليس تماما ما قد يشك به معظم العلماء. إذ ليس الإدراك المتعلق بتطور التاريخ الطبيعي بما يرتبط بقصص

الخلق المنفصل والطوفان هو ما يهدد مركزية الكتاب المقدس بالإطاحة. وإنما هو بدلا من ذلك، الاحتمال المخيف أن فرضية التطور قد تنجح في إقناع الإنسانية بعدم وجود أي هدف من الحياة، وغياب أي غرض لهذا الكون، لا وجود لأي معنى، ليس هنالك أي من المطلقات، وليس هناك من سبب لوجودنا. أولئك الذين يعتقدون في إله " يرمي النرد ثم يختفي " هم أقرب إلى الربوبيين منهم إلى المؤمنين . فالربوبي هو شخص يسعد بوجود إله ربما خلق المادة وقوانين الطبيعة، ولكن بعد ذلك أخذ نزهة ولم يشاهد منذ ذلك الحين. مثل هذا الإله الذي دوره هو "أن تسقط الرقائق حيث ينبغي لها" لا يتدخل في العالم الطبيعي؛ لقد بدأ بتحريك الكرة ثم اختفى، تاركا التطور ليقوم بدور " الخلق" الحقيقي. لكن هذه ليست وجهة النظر الاعتقادية في الله والمتبناة من قبل الأديان التوحيدية الأكثر انتشارا (المسيحية، اليهودية، الإسلام) .

Year	Creation Science[b]	Theistic Evolution[c]	God-Guided Process[d]	Atheistic (or Diestic) Evolution[e]	No Opinion
1982	44%	38%	82%	9%	9%
1991	47%	40%	87%	9%	4%
1993	47%	35%	82%	11%	7%
1997	44%	39%	83%	10%	7%
1999	47%	40%	87%	9%	4%
2001	45%	37%	82%	12%	6%

الجدول 1

بعض المحاولات للتوفيق بين العلم والدين من خلال تعريف كل منها "على شكل حزمة غير متداخلة" أو "أنهما وسيلتين اثنتين مختلفتين للمعرفة" منفصلتين تماما ومتميزتين. وفقا لهذا المفهوم فإن وظيفة العلم هي توفير المعرفة الحقيقة "الهادفة" في حين أن معطيات الدين تتعامل فقط مع الانطباعات الروحية والتي تخضع للاعتبارات الشخصية. إن محاولة التوفيق هذه إنما تفاقم المشكلة بدلا من محاولة حلها ذلك لأن الحزمتين تتداخلان فعلا عندما تسعيان كلاهما لتقدما جوابا على نفس السؤال: من أين جئنا؟ فالإيمان بالله يقتضي أن البشرية مصممة وفق غاية ، في حين أن العلم يدعي أن التصميم والأغراض التي تخدمه هي مجرد وهم. ومن الأمثلة الحديثة على عمق الإشكالية، القرار الذي اعتمد من قبل الكنيسة المشيخية في الولايات المتحدة الأمريكية والذي جاء فيه أن "التطور" هو عقد متسق مع "الله الخالق.". المشكلة هنا تكمن في أنه لم يتم التطرق إلى

تقـــــــديم إي تعريـــــــف للتطـــــــور فـــــــي حيثيـــــــات هـــــــذا القـــــــرار.

إذا كان التطور يعني للكنيسة المشيخية "التغيير الموجه مع مرور الوقت" فإن البيان ربما يكون دقيقا، ولكن إذا ما عنى التطور وسائل " عمياء، غير موجهة، وتغييرا غير مقصود" فالبيان من ثم لا ينسجم منطقيا مع الدين. التطوري الربوبي ينكر وجود دليل على التصميم في الطبيعة، فالاعتقاد في الله عنده مع غياب التصميم لا يمكن أن يقوم على أساس "الاستدلال الطبيعي" أي، من خلال الشواهد الطبيعية الدالة على الخالق. وفقا للكتب المقدسة المسيحية، فدلائل التصميم واضحة في الطبيعة. نتيجة لذلك، يبقى التطوري الربوبي مستندا و خاضعا فقط لتجربته الروحية الشخصية كأساس لمعتقده الإيماني. منطقيا فإنه سيكون من العسير والحالة هذه تقريبا تمييز التطوري الربوبي عن الداروينيي المتزمت. أما نصير التصميم الإيماني، بالمقابل الذي يعتقد أن الحياة كانت مقـــررة بطريقـــة مـــا أو بـــأخرى فســـوف يجـــد الـــدعم فـــي نظريـــة التصـــميم الـــذكي. يقول ريتشارد دوكينز معلقا: "إن محاولة الخلط بين الطبيعانية والإيمان بالله هي مجرد محاولة متطورة لجذب اللوبي اللاهوتي وحملهم إلى موقعنا، ومن ثم وضع الخلقيين في الحيز المقابل. إنها سياسة جيدة لكنها فكريا مخزية ".

في الولايات المتحدة ظهرت باكورة الاعتراضات على التطور ممثلة بإحدى المؤسسات الرسمية و من قبل سلطة تشريعية، في إحدى الولايات الأمريكية، وهي ولاية تينسي منذ بداية القرن الماضي. ففي عام 1920 قامت ولاية تينيسي من خلال أداء رمزي بتشريع قانون يحرم تدريس التطور، حيث قام الحاكم بالولاية بتوقيع القانون مشترطا أن يكون هناك إدراك مؤكد من قبل الجهات التنفيذية بأن لا يتم تنفيذ ذلك القانون بالإكراه. تكلم في حينه، في هذا الموضوع باسم التطور، مدير المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي هنري فيرفيلد أوبسورن. استند أوبسورن إلى مستحاثة الرجل بيلتداون سيئة السمعة، حين عثر محام بريطاني كما زعم، على جزء من جمجمة، وبعد بضع سنوات، عثر على جزء آخر في نفس المكان ، ثم لاحقا عثر على الفك. قامت الماكينة الدارونية ممثلة بعلماء المستحاثات في بريطانيا بدراسات مثيرة حول تلك الجمجمة وقاسوا العمر التقريبي لها. وبعد أخذ ورد وجذب شديد بين العلماء، تبين لهم أن المستحاثة تعود لواحد من أسلاف البشر. أما المفارقة المضحكة، فهي أن تلك العظام والمعروفة اليوم بأنها عبارة عن تزييف، كشف

لاحقا أنها تعود لقرد من نوع أورنج أوتان، قام المحامي بأخذ جمجمة ذلك القرد وإحداث تعديلات مزيفة عليها ومن ثم تقديمها للجهات العلمية التي تعرضت للخداع وانطلى عليها الأمر لسنين عديدة. لقد كان أوبسورن في مرافعاته فخورا أيضا، بما يفترض أن يكون شكلا مستحاثيا لسن يخص أسلاف البشر، حيث أكد على أهمية هذا الاكتشاف، الذي عثر عليه عالم المستحاثات البشرية هارولد كووك في منزل السيد بريان في ولاية نيبراسكا. وقد اكتشف لاحقا، أن السن يعود لنوع من الأنواع في سلالات الخنازير.

وفي تلك الفترة المبكرة اتضح للأمريكان أن الداروانية والتطور تمثلان بعدا فلسفيا ذو طبيعة عقائدية يتنافى والأديان السماوية. وبالرغم من السطوة والسلطان التي كانت تملكها المؤسسات العلمية والثقافية ذات التوجه التطوري في حينه، فقد استطاع أنصار الخلق منذ ذلك الحين أن يسجلوا موقفا يشهد لهم به، في حين وقفت المؤسسات الثقافية في بقية العالم في حينه صامتة غير عابئة وربما أنها لم تكن تدري بما كان يحدث.

لكن بعد ذلك، وبتأثير الهيمنة التطورية على مفاصل العلوم والمؤسسات العلمية في العالم، ومن خلال الرؤية التطورية المتشددة لأنصار التطور ، فقد كان من الصعب أن يحدث أي اختراق من قبل أنصار الخلق. ومع هذا فقد قدم العديد من العلماء في أمريكا وخصوصا في منتصف القرن العشرين آراء نقدية مست جوهر التطور بشكل بين. لقد كان العالم غولدشميدت من بين من انتقد بشكل لاذع نظرية التطور عند الداروانيين الجدد و خصوصا فيما يتعلق بآليات اعتمدوها تتحدث عن التطور وفقا للقفزات أو الطفرات الكبيرة. لكن على الصعيد التطبيقي، بقيت الهيمنة الكاملة لأنصار التطور على المؤسسات العلمية والتنفيذية دون أن يطرأ أي تغيير يذكر. وفي ستينيات القرن الماضي، أخذت تظهر في أمريكا بوادر تنظيمية لمؤسسات علمية تعنى بإعادة النظر ودراسة التطور، وذلك من وجهة نظر ترى أن الدين وما جاء في الكتب السماوية المقدسة هي حقائق لا تتنافى مع العلم. دعي أصحاب هذا الاتجاه العلمي باسم " أنصار الخلق" وأيضا " الخلقيون" . ثم لاحقا وكاعتراض على التطور انبثقت مؤسسة منفصلة دعيت " التصميم الذكي".

لقد كان لأنصار الخلق ولا يزال دور بارز في إعادة إحياء التوجه العلمي الصائب، وتنقيح العلم من شوائب وأخطاء مورست في كثير من الأحيان عن غير قصد من قبل علماء كبار ممن تبنوا المعتقد التطوري،

معتقدين بصحة تلك الفرضية. وقد نشط أنصار التصميم الذكي تاليا في القيام بدراسات علمية متميزة. و قاموا بنشرها في مدورات و على شكل أبحاث على مستوى الولايات المتحدة والعالم. كما بدءوا ينشطون في نهاية القرن الماضي في المطالبة بأن يكون لهم حق المعاملة بالمثل مقارنة مع أنصار التطور. سيما وهم يرون بأنهم يملكون شواهد علمية تثبت صحة ما توصلوا إليه.

وعلى يد أنصار الخلق وبفضل مساعيهم الحثيثة، قامت السلطات التشريعية في ولاية لويزيانا في ثمانينات القرن الماضي بإصدار مرسوم تطالب فيه بالتالي: بما أن " علم التطور" يدرس في المدارس العامة، فإن على المدارس أن تقدم معاملة بالمثل لما يسمى " بعلم الخلق". لم يكن هدفهم في ذلك إخماد تعاليم التطور مطلقا، وإنما الحصول على فرصة استماع عادلة لوجهة نظرهم.

وبالطبع، فقد اعترض على هذا المرسوم أنصار التطور ممثلين بالأكاديمية الوطنية للعلوم في أمريكا والتي تمثل العلماء ذوي المناصب الأعلى، و الذين يملكون تأثيرا كبيرا. قدمت الأكاديمية نفسها للمحكمة باسم (أصدقاء المحكمة). و قالت في دفوعها المقدمة ، أن علوم الخلق لا تمثل علما لأنها تخفق في عرض الصفة الأساسية الأولى للعلم: ألا وهي الاستناد إلى الشروح الطبيعية. و بما أن علماء الخلق لا يمكنهم أن يقدموا بحوثا علمية تبرهن على الخلق بواسطة القدرة الخارقة للطبيعة – لأن ذلك بالتحديد غير ممكن_ فإن الأكاديمية قد وصفت جهودهم بأنها تهدف بشكل رئيسي لتقويض النظرية التطورية.

اعترض القاضي ويليام برينان، ممثل رأي الأغلبية في المحكمة، على تشريع لويزيانا بأنه لم يكن دستوريا. و علل ذلك بأنه كان يهدف " بوضوح لتقديم وجهة نظر دينية، تفيد بأن قدرة خارقة للطبيعة هي التي خلقت الجنس البشري." و الدستور الأمريكي يحرم الوصاية الدينية في قاعات الدراسة، داخل المدارس العامة.

أما القاضية " أنتونين سكاليا" المدافعة عن التشريع، فقد عبرت بأن الناس في لويزيانا بمن فيهم المتدينين المسيحيين، من حقهم تماما وكمسألة علمانية، بأن يتعرفوا إلى أي دليل علمي مهما كان، ضد التطور الذي يتم تعليمه في المدارس.

وهكذا فقد تم الإجهاز على تشريع لويزيانا بالرغم من وجود اعتراضات ذات صفة علمية محضة على التطور. و لم تتح الولاية فرصة مواتية لتوضيح ما تمت الإشارة إليه بالمعاملة المتكافئة بشكل عملي. إضافة

إلى أن العلماء من أنصار الخلق قد قدموا وجهة نظر تفيد بأن تدريس التطور في حد ذاته كان له هدف ديني، وتحديدا إنكار التصديق بالفكرة القائلة بأن قدرة خارقة للطبيعة هي التي خلقت الجنس البشري. وبالرغم من ذلك لم تؤخذ وجهة نظرهم تلك بعين الاعتبار.

هل أنصفت المحكمة في قراراتها وكانت دقيقة في أحكامها:

في تلك المرافعات تم استخدام تعابير مثل " العلم" و " الدين " ربما في غير محلها. فالتعريف للعلم المقدم من قبل الأكاديمية الوطنية للعلوم والذي تم الأخذ به، وفيه: " إن علوم الخلق لا تمثل علما لأنها تخفق في عرض الصفة الأساسية الأولى للعلم: ألا وهي الاستناد إلى الشروح الطبيعية.". هذا التعريف هو تعريف غير كامل ومتحيز أيضا. فالأكاديمية ترى أنه من أجل أن يكون العلم علما حقيقيا، فإنه عليه أن يستمد صدقيته وذلك من خلال الاستناد حصريا إلى شروح طبيعية. وبمعنى أكثر وضوحا، فإن ما تقصده الأكاديمية هو أن الطبيعة و مكنوناتها تمثل وحدة متكاملة، يجب لكي يكون العلم علما، أن يستند إلى وسائل حسية تجريبية تقع في إطار حدود الطبيعة. وما خالف ذلك فإن الأكاديمية قد صنفته خارج حدود العلم. بمعنى آخر، فالتعريف الذي قدمته الأكاديمية للعلم هو تعريف مادي حصري ينكر كافة الافتراضات النقلية أو الغيبية. وهنا يظهر افتراق واضح بين الفهم الديني للعلم الممثل بما جاءت به الديانات السماوية، والفهم المادي الممثل بتعريف الأكاديمية. إن الفهم الديني للعلم لا يستثني بل ويؤكد إضافة إلى ما عرفته الأكاديمية من علم مادي تجريبي، على الإيمان بالعلوم النقلية التي جاءت من الله تعالى أو من الأنبياء والرسل الذين بعث الله بهم. لكنه اشترط لقبول المنقول أمرين اثنين وهما قطعية الثبوت وقطعية الدلالة. بمعنى أن أي كلام مصدره الله تعالى أو رسله ينبغي للأخذ به أن يكون أولا قطعي الثبوت. وقطعية الثبوت تعني التأكيد على مصداقية من قام بالنقل عن المصدر حتى نصل إلى المصدر الرئيسي وهو الله تعالى أو رسله. هنالك في الإسلام على سبيل المثال علم كامل يتعلق برواة الأحاديث النبوية وتقييم صدقهم ودقتهم في رواية الحديث. أما قطعية الدلالة فهي تتعلق بوضوح المعنى ودقته بحيث لا يختلف اثنان في دلالة المعنى. فإذا كان الأمر كذلك فإن الإسلام، و أحسب أن الأديان السماوية الأخرى جميعها تقر بأن ما جاء بتلك الطريقة هو علم، بل هو أدق العلم على الإطلاق. في الإسلام، يؤمن كل المسلمون بأن أصدق الكتب هو كتاب الله تعالى وهو

القرآن الكريم، و أن ما جاء بين دفتيه من حقائق، صادق بلا ريب. والله تعالى يدعو كل جملة منفصلة فيه بمسمى " آية". والآية في اللغة العربية تعني الدليل والبرهان. إذن فآيات القرآن الكريم هي دلائل وبراهين. لكن على ماذا؟ إنها تبرهن في جملة ما تبرهن على التالي:

أولا- أن الله حي وهو خالق الكون والمتحكم بكل شيء فيه. حيث كل شيء في هذا الكون هو طوع إرادة هذا الخالق الكريم.

ثانيا – أن الكون بكل تفاصيله قد خلقه الله وفق خطة محددة ولغاية معينة ولم يخلقه عبثا. قال تعالى " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون" (المؤمنون).

ثالثا – أن الكائنات الحية مخلوقة وفق تصميم منفصل وبخلق كامل منفصل ليس فيه أي تطور أو تدرج طبيعي عشوائي وفقا للمزاعم الداروانية التطورية.

رابعا _ أن الله تبارك وتعالى يعلم علما دقيقا وتفصيليا كل تفاصيل هذا الكون بما في ذلك، ما كان وما سيكون لاحقا. لقد دلل الله تعالى على كل ذلك وقدم في تلك الآيات إشارات مادية ودلائل علمية وذلك بالاستناد في أحيان كثيرة إلى الشروح الطبيعية الكونية على عكس الانتقادات التي جاء بها أنصار التطور. تمثل تلك الآيات بحوثا علمية تبرهن على أن الخلق قد حصل بواسطة القدرة الخارقة للطبيعة بعكس ما زعمه أنصار التطور حين ادعوا أن ذلك بالتحديد غير ممكن. تلك الإشارات المادية تم تأكيدها بالاكتشافات الجيولوجية والجغرافية وذلك من خلال الإشارة إلى أحداث سابقة وردت في نص القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى مثل قصة الطوفان، الذي حدثت وقائعه في أيام نبي الله نوح، والتي تؤكد الدراسات التاريخية الحيادية غير المتحيزة، على وقوعه. كما تدل بقايا آثار الطوافة التي ركبها نبي الله نوح ومن معه، أعلى جبل آرات في تركيا كدليل مادي طبيعي على صحة ودقة الحدث. ومن ذلك أيضا قصة قوم نبي الله لوط الذين عصوا الخالق الكريم، فأرسل عليهم عقوبة من السماء أنواعا خاصة من الحجارة. فالآثار التي تشير إلى أن مدائن القوم لا تزال ماثلة توجه إليها روايات الناس والحقائق الجغرافية والأثرية عند البحر الميت. كما وتبين الصور المأخوذة بالأقمار الصناعية مواقع تلك المدن التي جاء ذكرها

في القرآن الكريم تماما على النحو الذي ورد في القرآن الكريم وما جاءت به الكتب السماوية. أما الدراسات الجيولوجية، فإنها تشير إلى أن الأرض في ذلك الموقع، وهو قريب من البحر الميت مقلوبة في طبقاتها وهنالك تتواجد أشكال من حجارة كبريتية لم تنشأ في أصلها من الموقع وهذا يتطابق مع ما جاء في الكتب السماوية.

خامسا_ إن الله تعالى هو الذي أوجد القوانين الكونية بكافة أشكالها وهو الذي نظم الكون ليخضع لهذه القوانين.

ففيما يتعلق بعلمه بالكون وقوانينه، فالآيات أيضا تشير إلى علمه بذلك وتحكمه وصنعه لتلك القوانين. إن إحدى الآيات الكريمة التي تشير إلى هذا العلم جاءت في سورة (يس) حيث يقول الله تبارك وتعالى " هو الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ". فالله تعالى يبين لنا هنا أنه هو وليست الطبيعة، أو التطور، من جعل من الشجر نارا. لكن هنالك إشكالية، وهي أن الله تعالى قد حدد في الآية الكريمة السابقة أن النار قد جعلها من الشجر الأخضر، ومعلوم أن الحطب (وهو الخشب المتموت الذي ليس فيه ماء أو حياة) وليس الشجر الأخضر (الذي فيه الحياة والماء) هو الذي يستعمل لإشعال النار كوقود. أضف أن القرآن الكريم قد نزل على قوم يعيشون في الصحراء قبل ما ينيف عن ألف وأربعمائة عام، وهم يعرفون أن الحطب وليس العشب الأخضر هو وسيلة إيقاد النار. فكيف إذن يستقيم المعنى؟ هذا البيان بالتأكيد يدل بإشارة واضحة إلى أن المقصود من (الشجر الأخضر) في الآية الكريمة هو تحديدا (النباتات الخضراء) وليس الحطب أو الخشب. فالله تعالى يريد أن يدلل لنا أنه جعل وبشكل محدد، النار من الشجر الأخضر ثم قدم بعد ذلك توضيحا للمقصد (فإذا أنتم منه توقدون). أصبح بالتالي، معنى الآية الكريمة هو أن الله تبارك وتعالى جعل من مكونات النبات الأخضر نارا لتستخدموه وقودا لكم. إن المعنى السابق لا يمكن أن يستقيم إلا إذا فهم على الشكل التالي: إن الله تعالى قد جعل الشجر الأخضر خزانا للوقود الذي منه تستعر النار. فكيف يكون الشجر الأخضر خزانا للوقود؟ الإجابة واضحة: وهي أن الله يدلنا في الآية الكريمة أنه في الشجر، قد قام بتخزين الطاقة

الشمسية بواسطة المادة الخضراء (اليخضور) وبناء المادة العضوية. من خلال ما سبق يتضح لنا معنى الآية الكريمة: الله تعالى قد جعل من الشجر الأخضر وبواسطة عملية التركيب الضوئي مخزونا و وقودا للناس كي يستفيدوا منه كمصدر للطاقة. يكفي التذكير بأن الآية الكريمة قد نزلت قبل ألف وأربعمائة عام لتوجيه الناس كي يستدل اللاحقون في هذا الزمان وبعد أن اتضح حاليا أن النباتات الخضراء هي المخزون الأول للطاقة الحيوية وهي الطريقة الطبيعية الوحيدة المعروفة في هذا الكون التي من خلالها تتحول العناصر إلى مواد عضوية. هذا يؤكد علم الله المطلق وأنه هو صانع القوانين الكونية والمتحكم والمتصرف بها ، لأنه كما جاء في الآية الكريمة، هو الذي جعل وليس الطبيعة أو أي مخلوق من دونه. بهذا يستدل على أن آيات القرآن الكريم هي دلائل مادية تستند إلى الشروح الطبيعية وتمثل بحوثا علمية تبرهن على الخلق بواسطة القدرة الخارقة للطبيعة، و تشير إلى قدرة الله تعالى وفعله في الكون، وتؤكد على الاستمرارية الدائمة لعمله في هذا الكون. لايوجد آلية عفوية طبيعانية في هذا الكون يمكن أن تشرح كيف جاءت خاصية التركيب الضوئي والكلوروفيل بحيث اكتسبتها النباتات الخضراء. إن عملية التركيب الضوئي تمثل في بنية عناصرها داخل الخلية النباتية معقدا جزيئيا متعذر الاختزال. بمعنى أن على عناصره جميعا أن تكون متواجدة في آن واحد معا لأداء مهمة اختزان المادة العضوية وتوليد الطاقة، حيث أن أي جزيء من المعقد إذا ما نقص سوف يودي بعملية التركيب الضوئي للفشل. هذا يعني ضرورة وجود المعقد دفعة واحدة أو إلغاء العملية برمتها. وهذا يتنافى مع التطور حيث المعقدات يجب أن يتدرج نشوءها، على حين أنها قد جاءت للوجود هنا دفعة واحدة. وبناء المعقدات يعني المعجزات كما بين دارون نفسه. والله تعالى يشير إلى نفسه في بناء هذه المعقدات. فإذا كان من المستحيل بناء هذه المعقدات وفق الطفرات والاصطفاء الطبيعي لتنافي ذلك مع الإمكانيات المتاحة لتلك الآليات. وإذا كان الله تعالى قد بين قدرته تلك وشرحها بآلية علمية قبل 1400 عام من معرفتنا بتلك الآليات المتعلقة بعملية التركيب الضوئي

، أليس هذا بدليل كاف على قدرة الله على التصميم الذكي المتطابق مع وجود الخالق؟ القرآن الكريم يذخر بالأمثلة الدالة التي تشبه هذا المثال.

فكون الأكاديمية الوطنية للعلوم في أمريكا قد حددت أن الصفة الأساسية الأولى للعلم هي في الاستناد إلى الشروح الطبيعانية المغلقة، فهي تلقائيا وبشكل متعمد قد أنكرت الخلق والخالق والتعاليم التي جاءت في الكتب السماوية. أو في أحسن أحوالها اعتبرتها كلها خارج نطاق العلم .

إذا كانت الصفة الأساسية الأولى للعلم هي في الاستناد إلى الشروح الطبيعانية، فهذا يعني ومن خلال منطق علمي سليم أن الطرق التجريبية المادية هي الوسائل الطبيعية التي اعتمدوها في تقديم شروحهم حول هذا الوجود والموجودات. لكن بالعودة إلى تفاصيل التطور فإننا نجد أن قواعد التطور المعتمدة على الطفرات المتكررة والاصطفاء الطبيعي وبالاستناد إلى الشروح الطبيعية المتبناة، قد أخفقا إخفاقا ذريعا في تقديم أي شكل من أشكال البرهان على تطور أنواع الكائنات الحية عن بعضها. فدارون في وقته، ونظرا لغياب وجود أي دليل مادي لديه على التطور في الطبيعة قد استند وبشكل حصري إلى التهجين الاصطناعي معتبرا إياه دليلا يطابق بالقياس ما يحدث في الطبيعة من آليات التطور. لا يخفى على الباحث المطلع أن الاصطفاء الاصطناعي بتهجين الحيوانات هو اصطفاء موجه وذكي يحدث وفق آليات تصميمية تحتاج إلى ذكاء. هذا يعني أن دارون قد اختار المثال الخاطئ، وارتكب حين شبه عمل الطبيعة بهذا الاصطفاء التهجيني الاصطناعي قياسا خاطئا أيضا. بالرغم من كل ذلك وفي جميع الأحوال فحتى عمليات التهجين والاصطفاء الاصطناعي في حد ذاتها، لم تبرهن على أي شكل من أشكال الانتقال أو التحول بين أنواع الكائنات الحية. فجميع الكائنات التي جرت عليها عمليات التهجين الاصطفائي بقيت في نفس زمرها دون أي تطور أو تعديل على النوع. هذا يعني بدقة أن الاصطفاء الاصطناعي الذي ضرب به دارون المثال قد أثبت أن التصميم الذكي بذكاء إنساني هو الإجراء الذي تمت من خلاله عملية التعديل على الكائنات ضمن النوع. وفي المرحلة المعاصرة استمر أنصار التطور في محاولاتهم الجاهدة لتقديم دليل على عمل التطور في الطبيعة يثبت هذا التطور. لسوء حظهم فإن أفضل إنجازاتهم لإثبات عمل التطور في الطبيعة هما مثالين وحسب واهيين تذخر بهما كتب البيولوجيا جميعها:

المثال الأول هو فراشات العث في بريطانيا التي تناوبت ألوانها بين الفاتحة والظليلة تبعا لتغير عوامل التلوث الجوي. اعتبر التناوب اللوني من قبل أنصار التطور دليلا على أثر العوامل الطبيعية في إحداث تعديل على مستوى النوع، ثم قدموا قياسا خاطئا بأن هذا التعديل لابد أن يفضي من خلال ضغط العوامل الطبيعية وبمرور عامل الوقت إلى تغيرات على النوع تؤدي لاحقا إلى تخلق نوع من الكائنات جديد. لايخفى على طالب مبتدئ في دراسة البيولوجيا ملاحظة أن الفراشات بقيت فراشات كما هي وكانت منذ البداية تحمل الصفتين اللونيتين آنفتي الذكر. فلاشيء تغير أو تطور على الإطلاق باستثناء تعديل لوني لا أثر له في إحداث أي تطور كما يأمل المتحمسون. هذا ما حدا بجمهور الناس إلى تقديم تساؤل إلى رئيس الأكاديمية الوطنية للعلوم في أمريكا عن سبب بقاء هذه الرواية المزيفة حول الفراشات منشورة في كتب البيولوجيا على الرغم من زيف دلالاتها!

والمثال الثاني هو مناقير حساسين جزيرة غالالباغوس، حيث اعتبر تطاول مناقير الحساسين في مرحلة ما دليلا على التطور. أي تطور هذا ؟ فالحساسين بقيت حساسين والجمهرة الوراثية هي التي كانت السبب في ظهور المناقير الكبيرة. فالأمر كله مجرد انزياح في المورثات من داخل الجمهرة الوراثية لا يفيد أي تطور. إذن لم تثبت الشواهد الملاحظة أي شكل من أشكال التطور في تولد أنواع جديدة من المخلوقات البتة. كما أن المستحاثات وهي السجل التاريخي الجامع قد أكدت غياب هذا التطور المزعوم حيث الكائنات الحية جميعها كما بينت المستحاثات قد جاءت فجأة على الشاكلة التي هي عليها الآن دون أي تغير يذكر قد طرأ عليها عبر السنين كما تبين في حقبة الكامبري.

إذا كان أنصار التطور قد قدموا تعريفا متحيزا للعلم يجزم بضرورة استخدام الطرق الطبيعية في الاستقصاء حصريا ويحيد بهذا المنطق القدرات الإلهية، فإن تلك الطرق الاستقصائية الطبيعية نفسها قد بينت إخفاق التطور والداروينية في إستحداث أي شكل من التنوع أو التغير في النوع من خلال الطفرات والاصطفاء الطبيعي. وعلى هذا فإن تعريف العلم والطرق العلمية التجريبية كما وضعه أنصار التطور والأكاديمية قد أثبتا أن افتراضات كالطفرات والاصطفاء الطبيعي لايمكن أن يعول عليهما في برهان تشكل أي من الكائنات الحية أو استحداث التنوع اللاحق. فإذا كان على العلم أن يستمد صدقيته من خلال الاستناد حصريا

إلى شروح طبيعية كما عرفته الأكاديمية ذات الصفة الرسمية، فإن تلك الشروح الطبيعية في حد ذاتها، قد بينت زيف فرضية الطفرات والاصطفاء الطبيعي في تقديم أي برهان على التطور، وهكذا تبقى تلك الفرضية مجرد آراء فلسفية.

الأمر يعني أن المقاربة التي أخذتها الجهات العلمية الرسمية كالأكاديمية الوطنية للعلوم في تعريف العلم كانت مقاربة خاطئة حين حيدت الشروح الدينية وجعلتها ليست علما، ثم قدمت النظرية التطورية على أنها علم بلا أي سند أو دليل علمي قدمته، وذلك من خلال تبنيها الشروح الطبيعية ذاتها التي وضعتها كقاعدة.

الشروح الطبيعية كما تم تعريفها تقتصر قدرتها على تفسير الظواهر المادية الطبيعية لكن لا تستطيع أن تتعداها إلى تفسير الظواهر الغيبية. هذا لايعني أن الظواهر الغيبية أو الماورائية هي ظواهر معدومة نظرا لعجز الطرائق الطبيعية عن استقصائها كما استنبط أنصار المعتقد الطبيعاني المادي. وإنما هي ظواهر مجهولة خافية لاتستطيع الشروح الطبيعية استقصاءها نظرا لقصور تفسيراتها على الماديات. لكن هنالك أيضا مؤشرات ذات صفة طبيعية تشير وتوجه إلى تلك القدرات الغيبية. يمكن للاستقصاءات العلمية بواسطة الشروح الطبيعية أن تستقصيها و تتحراها، كما هو الحال في آليات تثبيت الطاقة في النباتات الخضراء التي أتينا على ذكرها والتي جاء ذكرها في القرآن الكريم كإعجاز علمي. فالظاهرة تلك هي ظاهرة طبيعية وتفسر من خلال الشروح الطبيعية وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم قبل 1400 عام مدللا في ذلك على معرفة دقيقة للخالق القدير بتلك الظاهرة العلمية وبسبق زماني يزيد عن الألف عام عن معرفة أصحاب المذهب الطبيعاني بتلك التفسيرات المكتشفة حديثا. هذا يدل على أن الشروح الطبيعية العلمية وخلافا لما جاء ذكره في تعريف الأكاديمية يمكنها أن تقدم شروحا وإن كانت ذات صفة طبيعية لكنها تعطي مؤشرات و تفسيرات تثبت القدرات الغيبية وتبرهن على وجودها من خلال آلائها لا من خلال ذاتها. من جهة ثانية فقد بينا أن الفرضيات الدارونية القديمة والمستحدثة قد أخفقت إخفاقا ذريعا في تقديم التفسير الصائب بالاستناد إلى عمل الاصطفاء الطبيعي على الطفرات حين تم اختبار تلك الفرضية من خلال الآليات الطبيعية.

إن المقاربة الصحيحة والحالة هذه هي أن يعاد تقديم تعريف شامل دقيق للعلم بكونه البحث عن الحقيقة أينما كانت وبدون أفكار مسبقة مغلقة متحيزة. فعلى العلم أن يستند إلى الشروح الطبيعية حين يستدعي الأمر ذلك،

لكن عليه ألا يستثني أو يقصي العلوم النقلية الصحيحة التي جاءت بها الكتب السماوية والتي جاءت قطعية الثبوت والدلالة كما بينا آنفا.

إن المقاربة الصحيحة ومن أجل الدلالة على صحة العلوم الدينية واختبارها هي إخضاع تلك المعطيات الدينية التي تقبل الاستقصاء من خلال الشروح الطبيعية للاستقصاء، وملاحظة مدى موافقتها للعلم التجريبي أو مخالفتها له كما أتينا في مثالنا على الآيات السابقة في سورة (يس) . إن موافقتها للعلوم التجريبية ستعني صحة تلك المعطيات وبالتالي فهي ستقدم دليلا على مصداقية ماجاء في الكتب المقدسة التي أنزلت قبل آلاف السنين من معرفة الإنسان بهذه العلوم والتقنيات المعاصرة. هذا سيقدم دليلا على الإعجاز العلمي لهذه الكتب الكريمة والذي سيؤكد أنها جاءت من لدن حكيم خبير. هذا هو دور العلم التجريبي في الاستقصاء والذي سيتحرى في النهاية مصداقية ماجاء في تلك الكتب المقدسة، وبالتالي فإنه سيستقصي الحقيقة دون تحيز أو إقصاء.

أما ستيفن جي. غولد العالم ذو التوجه التطوري في هارفرد فقد أنكر أن علم التطور هو علم يتعارض مع التدين. وهنا فإن تساؤلا مهما يجب أن يطرح: لماذا يقحم اختصاصيو البيولوجيا أنفسهم دائما في علوم الدين الخارجة عن اختصاصهم؟ وأي نوع من التدين هو الذي لم يعارضه التطور إذا كانت الكتب السماوية التي يتعبد المؤمنون بها كلها تنطق صراحة بدلالات قطعية و تتفق على ما يلي:

1- أن الله تعالى هو الخالق الذي أوجد الكون.

2- أن الكائنات الحية جميعها قد تم خلقها كأنواع خلقا منفصلا من قبل الخالق تبارك وتعالى دون أي شكل من أشكال التطور العشوائي أو العفوي ودون أية صدفة أو آليات عفوية أو عبثية مهما كانت.

3- أن الروح التي هي سر الحياة هي من أمر الله لم يعرّف بها أحدا من خلقه و هي لا تتفق البتة مع مدلولات الاصطفاء الطبيعي ومع الطفرات والعبثيات التطورية.

إذا كان المؤمنون مأمورين بالإيمان بتلك الأسس ، ولا يكون التعبد إلا من خلال هذا اليقين، فكيف بالإمكان والحالة هذه ألا يتعارض التدين مع التطور المستند لآليات طبيعية غير موجهة كما يزعم غولد؟

كيف يمكن للمؤمن أن يقر بأن الله قد خلق المخلوقات وفي نفس الوقت يعتقد بأن التطور الطبيعي بآلياته العشوائية والطرائق غير العاقلة وغير الموجهة هي السبب في وجود تلك المخلوقات؟

كيف يمكن للمؤمن أن يوقن أن الله قد خلق المخلوقات الحية كلها خلقا منفصلا وفي نفس الوقت يعتقد أن المخلوقات قد جاءت إلى الكون تدريجيا وفق آلية عشوائية غير موجهة وبواسطة الاصطفاء الطبيعي الذي أنكر دارون كليا أن يرافقه أي شكل من أشكال الإعجاز؟

كيف يمكن للمؤمن أن يؤمن كما بين الله تعالى في القرآن الكريم أن الروح هي سر حياة الإنسان، ويعتقد في الوقت نفسه أن مصطلحات مثل البقاء للأمثل والاصطفاء الطبيعي هي سر الحياة؟

كيف يمكن للمؤمن أن يؤمن أن الله قد خلق الإنسان لغاية معينة وهو مسؤول عن أعماله وسوف يحاسبه الله على ما ارتكب من أخطاء خلال حياته، في يوم الحساب وفي ذات الوقت يعتقد بأن الطبيعة والتطور تعمل بشكل فوضوي ودون أية غاية؟ وأن الإنسان هو مجرد حدث وحين يموت فتلك هي النهاية بالنسبة له بلا حساب أو عقاب.

كيف يمكن الجمع بين تلك المتناقضات؟

من المؤكد أن غولد لم يكن جادا حين أنكر أن علم التطور هو علم يعارض التدين . ولقد صدق القاضي فيليب جونسون في توضيح الفهم التطوري حين قرر: " فإذا ما قلنا أن التطور الطبيعي هو علم، وأن الخلق الخارق للطبيعة هو دين، فإن النتيجة لن تكون مختلفة عن القول بأن المفهوم الأول يمثل الحقيقة والثاني يمثل صورة خيالية." وبناء على ذلك كتب " عندما يتم تدريس التعاليم العلمية (التطور) كحقائق، فإن ما تستثنيه تلك التعاليم وهو (الخلق) يصبح تلقائيا مجافيا للحقيقة".

لكن هل أصابت الأكاديمية الوطنية للعلوم في أمريكا حين قررت أن علوم الخلق لا تمثل علما، لأنها تخفق في عرض الصفة الأساسية الأولى للعلم: ألا وهي الاستناد إلى الشروح الطبيعية؟ في الواقع وكما تفضل القاضي فيليب جونسون: " إن الأكاديمية بتلك الطريقة، قد قدمت تعريفا "للعلم " وفق آلية تجعل من المتحمسين للخلق بواسطة القدرة الخارقة، عاجزين عن الرد عليها في دفوعهم التي تدعم وجهة نظرهم، وغير قادرين أيضا على الرد على ادعاءات المؤسسة العلمية الأكاديمية. إن تلك الطريقة التي اتبعتها

الأكاديمية، من الممكن أن تكون إحدى الطرق لكسب الدعوى ، لكنها سوف لن ترضي أي شخص يعتقد مخلصا بأن الله له دور ما في خلق النوع البشري، أو يرى أن بعض الادعاءات التي يقدمها العلماء تحت عنوان " التطور" من الممكن أن تكون خاطئة".

هل الاستناد إلى الشروح الطبيعانية كصفة أساسية أولى للعلم يمثل عين الحقيقة والصواب ويتنافى مع الخطأ؟

الطرائقية الطبيعانية هي عقيدة تعتبر أن قوانين العلة والمعلول (كما هو الحال في الكيمياء والفيزياء) تعتبر كافية لتفسير كل الظواهر، وأن التصميم أو الغائية في الطبيعة هي مفاهيم باطلة. العبارة الأخيرة تعني أن فرضية التصميم هي خيار غير صالح بداهة، كمسألة مبدأ، وليس الأمر مسألة خصام في الأدلة. إنها تتطلب الاعتقاد بأننا "نتشكل"، كمجرد ظواهر طبيعية، وأننا لسنا مصممين أو مخلوقين لأي غرض من الأغراض. ومن خلال القضاء على التصميم، فإن الفلسفة الطبيعية وعلى نحو فعال تلغي التفسيرات الإعجازية عن أي حدث يحدث في الطبيعة. من الواضح، إذن، أن الطبيعانية وفقا للتعريف، وليس من خلال البيانات، ليست استنتاجا من الملاحظات التجريبية ولكنها فلسفة تحددها وجهة نظر خاصة. وهي تفترض مسبقا فقط وجود بعض الأسباب وتلغي جميع الأسباب الموجبة الأخرى. على الرغم من أن المذهب الطبيعي في الممارسة له تأثير عقيدة أو فلسفة، فكثيرون في العلوم يزعمون أنه لا يعدو أن يكون جزءا من "أسلوب" العلم، وأنه ليس في الحقيقة مذهبا فلسفيا. وفي هذا الصدد فهو يسمى بالمنهجية الطبيعانية بدلا عن المذهب الطبيعي الفلسفي. هذا هو ما اختاره العلم، كما يزعم أنصار التطور في نهجهم "كطريقة" لاستقصاء الطبيعة، مع استبعادهم أي قوة غير مادية كوسيلة ممكنة لتفسير أي ظاهرة ملاحظة . وهذا ما اعترف مؤخرا به من قبل المحرر في مجلة ساينتفيك أمريكان، جون ريني: " المبدأ المركزي لمنهجية العلم الحديث هو المذهب الطبيعاني " . و سواء كان ذلك يسمى المذهب الطبيعي الفلسفي أو المنهجية الطبيعانية فإن ذلك ليس مهما: فأثر هذا المذهب ينبغي أن يقود ليس فقط العلماء ولكن أيضا الجمهور على الاعتقاد من خلال المبدأ المركزي، في أن الحياة ليست مصممة من قبل مصمم. لكن هنالك شواهد كثيرة تشير إلى العكس من ذلك تماما. فعلى سبيل المثال، يستند أنصار التطور في

تطورهم وكقانون أساسي في الطبيعة إلى العشواء. فالعشواء كما يرى أنصار التطور، هي طريقة الطبيعة التي تقرر من خلالها وتفرض تطور الكائنات الحية. لكن أحدا من أنصار التطور لم يكلمنا كيف جاءت تلك العشواء إلى الوجود. ولم يحدد للعشواء أي تعريف يمكن أن يكون مقبولا علميا. إن قانون الجاذبية هو أحد قوانين الطبيعة، لكن هذا القانون قد أثبتته التجارب العلمية المتكررة بشكل لا لبس فيه. فهل يمكن إجراء تجربة علمية تثبت صحة العشوائية كما هو الحال في الجاذبية؟ ماذا لو لم يكن هنالك مصطلح اسمه العشواء في هذا الكون؟ إن الشروح الطبيعية إذا لم تؤكدها الملاحظات الدقيقة والتجارب الصحيحة لا يمكن أن تكون أكثر من مجرد مزاعم لا قيمة لها. إن التطور كله من أوله إلى آخره، لا يستند إلا إلى مجرد افتراضات. ولا يوجد حتى الآن أي دليل البتة، يثبت هذا التطور المزعوم.

زعمت الأكاديمية أن الصفة الأساسية الأولى للعلم هي الاستناد إلى الشروح الطبيعية. فهل قامت باختبار التطور الداروينى إن كان يمثل علما أم لا، استنادا إلى تلك الشروح الطبيعية؟

إذا لم يكن الافتراض الطبيعاني عقيدة، وقد استخدم حقا منهجيا كفرضية غير مبرهن عليها، فإنه كان ينبغي أن يتم الإفصاح عن ذلك بشكل سليم، وان يكون القبول به اختياريا وغير ملزم. هذا الإفصاح ينبغي أن يكون ملائما، من شأنه شرح التأثير الموجه لهذا الافتراض الطبيعاني على مصداقية التفسيرات التاريخية المقدمة والطريقة التي يؤثر الافتراض من خلالها على اختيار وتحليل البيانات. إن عدم الإفصاح عن التحيز الطبيعاني في مقابل التصميم يستدل عليه بوضوح من خلال غياب مناقشة أي من آليات التصميم في كتب العلوم والكتابات الأخرى المتعلقة بالتطور والنشوء.

إن الادعاء الرئيسي لنظرية التصميم الذكي هو أن التصميم قابل للاسكتشاف تجريبيا. معظم الناس يرون أن الكشف عن التصميم هو عملية بديهية تحدث دون الحاجة إلى أي مداولات فكرية عميقة. وقد كان من أشهر من وصف هذه الظاهرة منذ اكثر من مائتي سنة ويليام بيلي في كتابه التدين الطبيعي . ففي أثناء نزهته في الريف، قال انه عادة ما يواجه وجود الحجارة في كثير من الأحيان على الأرض. فإذا ما أعارها اهتماما على الإطلاق، فسوف يستنتج ببساطة أنها مجرد أشياء طبيعية شكلتها قوى مادية. أما من ناحية أخرى، فإذا ما عثر على ساعة جيب مرمية على العشب، فالاستنتاج هو

أنها قد تم تصميمها من قبل شخص ذكي. لماذا ا؟ لأنه أثناء الاستقصاء سيكتشف أن الساعة، على عكس الحجر، تتكون من أنظمة معقدة تربط أجزاءها وتحتاج إلى مصمم قد قام بتصميمها. فهي تتكون من أجزاء متعددة مصممة بدقة ومتفاعلة معا لإنجاز عمل ذو غرض واحد: لمعرفة الوقت. وفي حين أن هذا السيناريو يسهل تصوره، ولن يكون الطعن بهذا الاستنتاج ممكنا من قبل أي شخص عاقل، إلا أن بيلي لم يصل إلى تلك النتيجة من خلال خطوات علمية مباشرة ، خطوة بخطوة. لقد "أدرك" فقط أنها مصممة. وحتى إذا ما وجد بيلي هاتفا خليويا على الأرض ، فهو لا يزال سيستنتج أنه قد تم تصميمه، على الرغم من انه سوف لن يكون لديه فكرة في حينه حول الغرض منه. ينبغي هنا أن نتذكر الضجة التي تسببها سقوط زجاجة كوكاكولا من السماء وما أحدثته بين أفراد قبيلة أفريقية في فيلم " يجب أن تكون الآلهة مجنونة. " فالعقل يمكن له بالنتيجة " أن يتحسس " النشاط الإبداعي للعقل آخر. وعلى الرغم من أن هذا الحدس يعمل بشكل جيد تجاه الأشياء التي هي من صنع الإنسان، فهل يمكن تطبيقه على الأشياء الحية الأخرى التي نعرف تماما أنها ليست مصنوعة "يدويا؟" و بكلمات أخرى، هل يمكن أن تنطبق على علم الأحياء؟ جين مايرز، أحد العلماء الرئيسيين في مشروع الجينوم البشري قال في مقابلة معه في عام 2000: " ما يدهشني حقا " هو تلك الهندسة البنيوية للحياة" .إنها تبدو كنظام معقد للغاية كما لو أنه تم تصميمها .... تقبع عبقرية هائلة وراء ذلك ".

كيف يمكننا أن نعرف ما إذا كان حدس مايرز هو الصحيح؟ ماذا لو كان عقله (وعقولنا) تخدعنا ؟ ماذا إذا كان لدينا حدس خاطئ وما نراه من تصميم في المنظومات الحية هو مجرد وهم، كما يزعم علماء الأحياء التطورية؟ هل هناك أي وسيلة للتحقق من أو تأكيد حدسنا؟

إذا أردنا علميا تحديد ما إذا كان كائن ما أو حدث ما قد جرى تصميمه، ينبغي أن يكون في حوزتنا أكثر من الحدس . نحن بحاجة إلى إضفاء الطابع الرسمي، الهادف، ووضع نهج منظم لهذه المسألة .وهذا هو بالضبط ما بدأ باستكشافه وليام .Dembski في كتابه *دلالات التصميم*:

لقد وضع ديمبسكي الخطوط العريضة المنهجية للكشف عن التصميم باستخدام "مرشحة الكشف عن التصميم." هذا النهج المنطقي يشير إلى أن هناك ثلاثة أسباب توضيحية فقط لأي حال، نمط، أو كائن (سواء في الماضي أو الحاضر): الصدفة، الضرورة ممثلة ب (القانون الطبيعي)، والتصميم.

تفترض الفرضية الطبيعانية أن الصدفة والضرورة هما الوحيدتان اللتان تعملان لتوليد الحياة وتنوعها، في حين تفترض فرضية التصميم أن الأسباب الثلاثة ربما تكون قد لعبت دورا. إن مخطط الكشف عن التصميم يسعى أساسا إلى أن يجد الدليل الذي يثبت التصميم وفي نفس الوقت ينفي دور كل من الصدفة والضرورة.

هناك طريقة لتطبيق مرشح Dembski وهو أن نسأل أولا ما إذا كان النموذج المستقصى يؤدي وظيفة ، بنية، أو غرضا ما مستقلا في المعنى أو المغزى عن بناء كل عنصر من العناصر التي تدخل في تشكيل هذا النموذج. على سبيل المثال، فالنموذج الكتابي "تصميم" ينقل معنى معروفا مستقلا في دلالته أو معناه عن كل من الحروف التي يتكون منها هذا النموذج. يدعو الأستاذ Dembski هذا المفهوم بمسمى "الخصوصية". فالتتابع غير المنتظم في كلمة تحوي نفس الحروف مثل "مصتيم" ، يفتقر إلى أي معنى وبالتالي فهو يفتقر إلى الخصوصية ولذلك لا يمكنه أن يدعم استنتاج التصميم.

الخطوة التالية هي تحديد ما إذا كان يمكن لهذا النمط الذي يبدو ذو مغزى أن يتم شرحه من خلال بعض القوانين أو الأنظمة الطبيعية. هل هو مثلا نموذج يستوجب أن يكون كذلك؟ هل يجب في العناصر التي تشكل النموذج أن تأخذ بالضرورة هذا الشكل المحدد؟ مثال ذلك اتحاد الكلور بالصوديوم وتشكيل الملح. فتشكل ذرة الملح بشكلها المحدد تفرضه الضرورة و إذا كان الأمر كذلك، فقد لا يكون بالإمكان الاستدلال من خلاله على التصميم. أما إذا لم يكن النموذج مستوجبا ضرورة ما، من ثم نشرع في الخطوة الأخيرة، وهي تحديد ما إذا كان هذا النموذج يمكن أن يحدث عن طريق الصدفة.

إذا كان النموذج بسيطا نسبيا، بحيث أن الصدفة يمكن أن تفسره بشكل معقول، فقد لا يكون ممكنا الاستدلال من خلاله عن التصميم. أما إذا كان التعقيد بالغا بحيث لا يمكن شرحه عن طريق الصدفة، عندئذ يكون هناك ما يبرر استنتاج التصميم. فالاستدلال على التصميم في النموذج الذي يعتبر من خلال تطبيق

المرشح أنه مصمم وفقا ل Dembski يتطلب ليس فقط وجود التعقيد ولكن مواصفات (الخصوصية) وعدم تفسيره بالضرورة أيضا.

"خثبتشسبلشس" هو مثال على النموذج الكتابي المعقد ، لكنه يفتقر إلى الخصوصية، فهو لا يملك أي معنى. و نموذج الموج على الشاطئ نموذج منتظم ولكن يفتقر إلى التعقيد. بالمثل، فإن كلمة "تصميم" هي نموذج مخصص ، ولكن كونها مؤلفة من خمسة أحرف فقط فهي تفتقر التعقيد الكافي الذي يؤدي بثقة إلى الاستنتاج بأنها قد ظهرت بشكل هادف بدلا من كونها نجمت بلا قصد. من ناحية أخرى، إن أي عنوان لشخص ما محدد يفيد، أنه معقد و مخصص ولا تستوجبه الضرورة على حد سواء. بالتالي يمكن الاستنتاج أن ذلك العنوان يمثل تصميما حقيقيا. هذه المناقشة التي أتينا عليها ينبغي أن تساعد القارئ على فهم الأسباب الثلاثة: الصدفة الضرورة والتصميم.

يزعم أنصار التطور أن المخلوقات كلها أتت من سلف مشترك واحد ربما كان البكتيريا أو غيرها، حيث طرأ تطور على تلك الكائنات الدقيقة بشكل متدرج وعبر فترات سحيقة من الزمن حتى جاء هذا التنوع الذي نراه الآن والذي توج بقدوم الإنسان. مثل هذا الكلام لا يمكن أن يؤخذ على عواهنه من غير برهان علمي ، وإلا كان فلسفة أو شعوذة أو أوهاما. والبرهان العلمي المادي، له قواعد اتفق عليها عند أفراد المؤسسة العلمية، منها الملاحظة والتجربة.

وبالعودة إلى الملاحظة، فإن على الباحث كي يثبت أن التطور قد أنجز حقيقة، أن يعود بادئ ذي بدء إلى الملاحظة، ويرى في الطبيعة ما إذا كان هنالك شيء ما يواكب هذا التطور المفترض أم لا. هنالك طريقتين للملاحظة:

الطريقة الأولى: هي ملاحظة التطور في الكائنات الحية التي تحيا الآن، وتحديد الشواهد التي تشير إلى هذا التطور. معلوم أن التطور هو وفقا لمزاعم التطوريين ظاهرة طبيعية مستمرة. ومعنى ذلك هو أن المرء كيفما نظر في الكائنات الحية لابد أن يجد دليلا ما شكليا في تلك الكائنات يشير إلى هذا التطور. بوضوح أكثر، ينبغي أن تكون في الكائنات الحية علامات شكلية و وظيفية واضحة تبين أن التطور هو في طور إنجاز مستمر. وهذا يعني في المخلوقات الحية ضرورة توفر ثلاثة شروط.

أولا- يجب أن تكون تلك الصفات الناجمة عن التطور صفات جديدة غير موجودة أصلا في أسلاف المخلوقات. فوجود تلك الصفات في أي من أفراد النوع يدل على قدم الصفات وعدم حصول التجديد والتراكم.

ثانيا- يجب أن تظهر تلك الصفات بينة واضحة. إن غياب وجود الصفات يدل على عدم وجودها أصلا في النوع.

ثالثا- يجب أن تكون تلك الصفات متدرجة أيضا في نفس نوع تلك المخلوقات. إن غياب وجود صفات التدرج يعني أحد أمرين، إما الثباتية وهذا مناف للتطور أو القفزة الوراثية، وهي أيضا منافية للتطور. والسؤال الآن: هل يوجد في هذا الكون نوع ما من المخلوقات الحية يملك صفات جديدة، بينة وواضحة، متدرجة في النوع؟

وليكن على سبيل المثال، مثالنا هو الحيوانات اللبونة. تلك الحيوانات تملك قدرا من المورثات لا تقل عن عشرات الآلاف من المورثات المختلفة. فمن أجل البرهان على عمل التطور في الميدان، يجب أن يكون هناك حيوانات من عدة أنواع وليس نوعا واحدا فقط، يظهر في كل نوع فيها، الآثار الثلاثة للتطور ملحوظة وهي، بروز صفات شكلية جديدة غير موجودة في بقية أفراد النوع (بفعل أثر الطفرات المزعومة). ثم إضافة إلى ذلك: يتحتم وجود تدرج وتنوع في الصفات الشكلية، بحيث يكون هناك ما لا يقل عن مائة تدرج وتنوع ملحوظين، كحد أدنى في حدود النوع الواحد (وذلك بسبب عدد المورثات الكبير التي تملكه تلك الحيوانات). يجب أن يشير هذا التدرج في الصفات، إلى الاتجاه الذي يتخذه التطور نحو النوع الجديد المزعوم.

إن الملاحظة الدقيقة والرصد المحكم لكافة الحيوانات اللبونة من غير استثناء، لا يثبت وجود صفات جديدة غير تلك الموجودة أصلا في جمهرة تلك الحيوانات في مورثاتها، وبالتالي لم يلاحظ في أي منها ظهور تلك الصفات الجديدة المزعومة، بينة واضحة. كما أنه لوحظ غياب وجود أي من صفات التدرج بين حيوانات النوع الواحد في أي فصيل من تلك الحيوانات قد يشير إلى توجه نحو نشوء نوع جديد. إذا كان الأمر بهذا الشكل، فهذا يعني أن تلك المخلوقات لابد أنها مصممة تصميما ذكيا ونهائيا وفق مخطط

منفصل لا يمت أي منها بصلة للآخر. إن المزاعم التي يقدمها أنصار التطور حول غياب وجود الحيوانات البينية الوسيطة والذي يعود إلى عدم قدرتها على التكيف، يمكن أن يكون مبررا لاختفاء صنف أو صنفين أو ثلاثة أصناف متدرجة داخل نوع واحد. أما أن يكون الغياب هو السمة الدائمة والمستمرة في كل الحيوانات اللبونة، بحيث لا توجد أية زمر من حيوانات بينية على الإطلاق، وبالرغم من التذكير في احتفاظ الاصطفاء الطبيعي على الصفات الجديدة الإيجابية، فهذا يعني أن تلك الزمر بالتأكيد غير موجودة ولا أصل لها. وهذا بالتأكيد يعني أن افتراض وجودها دون شواهد ملاحظة هو أمر خاطئ، وأن النظرية التي بنيت على أساس وجودها هي نظرية لا توافقها الملاحظات الطبيعية الميدانية. وهذا يعني أن النظرية التي تتكلم عن تطور الكائنات من الأدنى للأعقد وفق تدرج بطيء، هي نظرية خاطئة. إن الفرضيات التي لاتملك شواهد تطبيقية هي مجرد فلسفات وليست فرضيات علمية.

أنصار التطور يقدمون ما يعتبرونه دليلا على التطور في الصفات الوراثية من خلال ظاهرتين اثنتين: الأولى ما يسمونه بمسمى الأعضاء الزائدة. وهي في زعم أنصار التطور أعضاء في أجسام المخلوقات ورثتها عن أسلافها ليس لها أي دور وظيفي ولا فائدة من وجودها. مثال ذلك مايزعمونه عند الإنسان من وجود مايقرب من ثلاثمائة عضو أو نسيج لاعمل له ويمكن الاستغناء عنه، مثل ما يسمونه بالزائدة الدودية. هذه الأعضاء جميعها ثبت بالأدلة العلمية الحديثة أن لها دور وظيفي مهم ولايمكن الاستغناء عنها، نظرا لضرورة أدائها لعمل مخصص في الجسم. فالزائدة الدودية مثلا هي مركز حيوي مهم جدا وعضو لتوليد العناصر المناعية الدفاعية التي تخدم جهاز المناعة في الجسم.

أما الثانية فهو ما يسمونه (Junk DNA) أو ال(دي إن إي) القمامة، حيث يزعم أنصار التطور أن نسبة المورثات الفعالة إلى عناصر النيوكليوتيد الكلي لا تتعدى العشرة إلى عشرين في المائة، أما ما تبقى فهي تمثل بقايا لا قيمة لها ولا فائدة من تلك ال (دي إن إي) وهي قادمة من الأسلاف القديمة لتلك الكائنات الحية والتي بقيت كتذكرة بماضيها الوراثي في المكتنف الكلي لل دي إن إي. لا يخفى أن هذا الطرح هو شكل من أشكال التبرير الذي يحتاج إلى دليل علمي يثبته. لقد أثبتت الاستقصاءات العلمية المعاصرة أن هذه الأشكال من ال دي إن إي التي لا تقبع في محتوى المورثات كلها تمثل عناصر

وظيفية ذات أهمية حيوية جدا سواء في تعبير المورثة عن الصفة الوراثية التي ستنتجها وذلك من خلال ما يسمى بالإنترون والإكسون، وهما مكتنفات من الدي إن إي الأول فيهما يحدد الموقع الذي يبدأ فيه الاستنساخ للمورثة والثاني هو الذي يحدد نهاية موقع النسخ. وفيما عدا ذلك من المكتنفات الأخرى فهي تمثل مواقع لتأمين نسخ إضافية تشبه المورثات الأصلية لها دور في الوقاية من التفكيك الذي يطرأ على المورثة الأصلية أثناء أدائها لعملها في تركيب البروتين، بحيث تبطئ من سرعة هذا التفكيك حين تقدم نفسها كبديل إلى الخمائر المفككة، مما يساعد على زيادة التصنيع البروتيني. و لايزال العلماء يكتشفون في كل يوم وظائف جديدة لهذه العناصر.

إن المثالين السابقين وعلى الرغم من تفنيدهما، من الواضح أنهما ليسا بأي حال دليلا على التطور وإنما هي محاولة التفافية لنفي التصميم. فالتصميم يستوجب الدقة والانتظام والبرمجة المعلوماتية. فإذا ما اكتشفت أعضاء زائدة أو مورثات لاعمل لها كما زعموا، فهذا في عرف أنصار التطور عبثية تتنافى مع التصميم، وهو ماقد يدعونه (الاستدلال من خلال الإهمال) وهو أسوء الطرائق الاستدلالية التي يأباها العلم الصريح.

أما الطريقة الثانية: فهي البحث في السجلات المستحاثية وملاحظة وجود التنوع المتدرج في الصفات والتحول بين الأنواع. إن السجل المستحاثي هو سجل أحفوري يكشف عن تاريخ نشوء الخليقة وتنوعها وعمرانها لهذه الأرض. بدأت دراسة المستحاثات المختلفة والأحقاب الجيولوجية منذ أيام دارون، وهي لا تزال مستمرة بدون أي انقطاع إلى هذه الأيام. وقد برع في هذه الدراسات الكثير من أنصار التطور، والتي كانت دراساتهم متحيزة بشكل واضح لفرضيات التطور. ومع هذا، لم يتمكن الباحثون في أيام دارون من العثور على الكائنات الوسيطة المزعومة في تلك المستحاثات، و التي سميت بالحلقات المفقودة. عندما سئل دارون عن مبرر غياب تلك الحيوانات الوسيطة، كان جوابه هو عدم اكتمال السجل المستحاثي في حينه. لكن أن تكون تلك الصفة أي غياب الكائنات الوسيطة هي الصفة الملازمة بالرغم من توجه الباحثين المتحيز للبحث الحثيث عن تلك الأشكال الوسيطة المزعومة وعدم اكتشاف أي واحدة منها، فإن ذلك يدل على انعدام وجود تلك الكائنات الوسيطة أصلا. ومع هذا، وبعد ما يقرب من

القرنين من الزمان، فإن الدراسات المستحاثية التي لا تزال مستمرة، قد وضحت بشكل لا لبس فيه اكتمال بناء السجل المستحاثي بكافة مكوناته الأحفورية. الأمر المثير، هو أن الأشكال الوسيطة بقيت غائبة في المستحاثات، مما يؤكد الغياب الفعلي لوجود مثل تلك الكائنات الوسيطة، ويؤكد أن نظرية وجودها هي نظرية باطلة. عند مواجهة أنصار التطور بتلك النتائج من خلال الملاحظات، قدم التطوريون مبرراتهم أيضا زاعمين عجز تلك الحيوانات الوسيطة عن التكيف مما تسبب في انقراضها. لكن تلك المبررات غير كافية لتفسير غياب وجود مستحاثات تلك الكائنات المزعومة فيما لو كانت قد وجدت على الإطلاق.

لقد بينت الملاحظات الميداينة والملاحظات في السجلات الأحفورية كما في الحقبة الكامبرية بشكل لا يقبل الشك، أن الكائنات الحية المختلفة قد خلقت بشكل منفصل تماما، بدون أي شكل من أشكال التدرج المزعوم والذي افترضته نظرية دارون والتطور. وقد سجلت المستحاثات بشكل دقيق منذ ما يزعم التطوريون أنها أحقاب سحيقة، أنواعا كثيرة من المخلوقات الحية التي لا تختلف بتاتا في شكل أسلافها عن التي نراها تعيش في هذه الآونة. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على الثباتية والاستمرارية في الصفات الوراثية دون تغيير، بالرغم من مرور الأحقاب الطويلة.

المثير للاهتمام في الموضوع أن أنصار التطور عادة ما يلجأون في استقصاءاتهم في المستحاثات إلى مستحاثات المخلوقات البرية بدلا عن تلك التي تعيش على شواطئ البحار. فالأخيرة تمتاز عن الأولى كونها يمكن بسهولة عندما تموت أن تنطمر بفعل عمل الأمواج مما يحولها لمستحاثة حقيقية ويبقي عليها مكتملة . فالسجل المستحاثي للكائنات البحرية القريبة من الشواطئ هو سجل مكتمل تماما. لقد بين هذا السجل ومن خلال دراسات دقيقة عبر الدهور غياب وجود تحول يفيد التطور من حيث ظهور أنواع من الكائنات جديدة. لقد أظهر السجل بقاء الكائنات الحية على شكلها مع انزياح بسيط جدا لا قيمة له في أشكال تلك الكائنات. أما الكائنات البرية فهي نادرا ما تعطي مستحاثات مكتملة وذلك نظرا لتعرضها للافتراس من بعضها أو بسبب تآكلها. وهكذا يبقى السجل المستحاثي غير مكتمل هنا وغير مناسب للاستدلال به. مايثير الريبة هو أن أنصار التطور عادة مايستعينون بهذا السجل غير المكتمل وغير

الدقيق ويتلافون استخدام السجل البحري الدقيق، لأن السجل البحري ينقض معطياتهم على حين أن الأول يمكن أن يتخذوا منه ذريعة للقول بعدم اكتمال سجلهم المستحاثي نظرا لتلف الأدلة.

وبالعودة إلى الطرق التجريبية للبرهان على التطور، فلقد قام الناس منذ آلاف السنين بترويض بعض الحيوانات البرية كالطيور والكلاب والخيل والأبقار والماعز والأغنام وغيرها. ولقد أجروا عليها أشكالا عديدة من التهجين بهدف الحصول على أنواع تحمل صفات محببة لهم. وبالرغم من أن تلك التجارب لم يكن المقصود منها بأي حال، تأكيد أو نفي الدارونية، فلقد استخدم دارون ومن في زمانه من أنصاره، النتائج التي نجمت عن هذا التهجين كدليل تشبيهي على فعل التطور في الميدان وذلك نتيجة عجزهم عن تقديم الدليل على التطور من خلال الاستقصاء الميداني الطبيعي نظرا لعدم وجوده. لقد استند التطوريون في حينه إلى ظهور صفات في تلك الحيوانات المهجنة لم تكن موجودة في أسلافها، فاعتقدوا أن تلك الصفات هي صفات جديدة وهي تدل على التطور والتحول في النوع. وقام الدارونيون أنفسهم بإجراء تجارب تهجين نوعية موجهة (الاصطفاء الاصطناعي) على الطيور وعلى الكلاب وعلى بعض النباتات، وحصلوا على صفات شكلية أيضا، لم تظهر في أسلاف الكائنات التي أجروا تجاربهم عليها، مما كون لديهم الثقة بأن التطور هو حقيقة واقعة، حيث استندوا في تبريرهم التطوري، إلى تلك الصفات الظاهرة التي اعتقدوا أنها صفات جديدة حين لم يلاحظوها في أسلاف الحيوانات والنباتات التي أجروا تجاربهم عليها. لكن في حينه، لم يكن دارون وأنصاره ملمين أو على علم بالوراثة ومواضيعها، حيث الصفات المقهورة لا تظهر في الآباء وتظهر في الأجيال اللاحقة. فعلم الوراثة قد تم اكتشافه بعد عقود عديدة من وفاة دارون. وهكذا وقع أنصار التطور الأوائل في فخ نصبوه لأنفسهم بسبب الرغبة الملحة لديهم، للوصول إلى السبق العلمي. كتب القاضي فيليب جونسون معلقا على ذلك " إن النشر المتسرع لكتاب (أصل الأنواع) عندما بدا أن (ألفريد راسل والاس) كان على وشك أن ينشر فرضية مماثلة، والتناقضات والانتصارات الساحقة، كل ذلك يمثل أفكارا نبيهة تستحق إعادة التذكير بها."

لكن التطوريين الأوائل هم أنفسهم كانوا قد لاحظوا (عمليا وتجريبيا) أنه، عندما تعود الحيوانات الأهلية المدجنة إلى حالتها البرية ، فإن تلك الصفات المهجنة الأكثر تخصصا تفسد وتزول بسرعة. والمتبقي من

بين المخلوقات، يعود من جديد أدراجه إلى الشكل البري الأصلي. وهذه الملاحظة كان ينبغي أن تقودهم إلى نتيجة مفادها ثباتية النوع وغياب حدوث التطور والتنوع الذي ينبغي أن يأخذ اتجاها محددا. لكنهم لم يأبهوا لتلك النتيجة ولم يعيروها كبير اهتمام.

ما يبرهن عليه الاصطفاء الاصطناعي في الحقيقة، هو عملية اختزال موجه للمورثات من جمهرة المورثات الأصلية بحيث تظهر صفات بعينها وهي ربما تكون مفيدة لمن قام بهذا التهجين لهدف ما. لكن لم تكن تلك العمليات مفيدة لجنس الحيوان المهجن، حيث أن الصفات الظاهرة المحسنة التي تم الحصول عليها كانت حسنة من جهة الفائدة النسبية للذي قام بالتهجين لكنها بالمقابل ضارة وسلبية على الجنس نفسه. مثال ذلك التهجين بين ذكر حصان وأنثى الحمار، فالنتيجة هي الحصول على أجيال من البغال التي تمتاز بالجلد وقدرة التحمل العالية والمقاومة الجيدة التي هي مزايا تتفوق فيها على السلف. لكن النهاية هي نهاية صادمة حيث أن تلك الحيوانات هي حيوانات عقيمة ليس بمقدورها التكاثر أو الإنجاب. هنالك حدود مقيدة لمقدار التنوع الذي يمكن أن يحققه مربو الحيوانات الأكثر خبرة وتمرسا من خلال التهجين. إن تهجين الحيوانات الأهلية لم يقم بإنتاج أنواع جديدة بمعنى النوع المنفصل، وذلك من خلال الفهم الشائع المتعارف عليه (لتعريف نوع جديد) الذي يستوجب أن تكون المجموعات المهجنة الجديدة عقيمة عندما تتزاوج مع الزمر الأصلية، لكنها في نفس الوقت قابلة للتزاوج والتكاثر مع بعضها بعضا. بناء على ذلك فإن عالم الحيوان الفرنسي البارز بيير غريس، استنتج أن النتائج الناجمة عن الاصطفاء الاصطناعي تقدم شهادة قوية ضد فرضية دارون: "بالرغم من الضغط الهائل الذي تمت ممارسته على الاصطفاء الاصطناعي،(مثل الإطاحة بأي زوج لا يتوافق مع المقياس الذي تم اختياره) وعبر ألف عام من التهجين الموجه، لم يتولد أي نوع جديد". إن تلك النتائج المستنتجة من التهجين لا تخالف بل تتوافق مع معطيات العلم. فالعلم الصائب يبين أن الجمهرة الوراثية ثابتة في مكنونها ضمن إطار النوع الواحد. وهذا يعني علميا أن التهجين يمثل عملية اختزالية لتلك الجمهرة الوراثية باتجاه فريق محدد من المورثات. فإذا كان التطور حقيقة فإن التهجين المستمر لابد أن يفضي من خلال الطفرات والاصطفاء الطبيعي حتما بعد تلك العمليات الموجهة والمتكررة من التهجين إلى نشوء نوع جديد منفصل من الكائنات المهجنة. أما إذا كان التطور خاطئا فإن الكائنات

المهجنة الناتجة سوف تدلل على ما يشير إلى أنها من نفس جنس الأسلاف التي نجمت عنها وأن التغيرات الطارئة هي مجرد تغيرات في عناصر الجمهرة الوراثية في مكنون النوع. إن التنبؤ العلمي السابق قد بين بالمطلق أن تلك الحيوانات المهجنة بقيت دائما في محتوى النوع وفي إطاره بحيث أنه، عندما جرى تهجينها بشكل معمم مع بقية أفراد الجمهرة الوراثية عادت الصفات القاهرة الشائعة للظهور واختفت صفات الخصوصية المتنحية.

ومن خلال دراسة مقارنة للمصول، الخضاب الدموي، بروتينات الدم، الإخصاب بين الأقارب وغيره، كل ذلك برهن على أن السلالات تبقى ضمن نفس الإطار المختص بالنوع الواحد. والحقيقة هي أن الاصطفاء الاصطناعي يفضي إلى تقديم أشكال مادية ملموسة، وهو يجمع في المجمل كل الأشكال المتنوعة التي بمقدور المورثات أن تقدمها، لكنه ليس بمقدوره بناء عملية تطورية ابتكارية. إذن فالنتائج التجريبية سواء كانت الموجهة منها (التهجين بالاصطفاء الاصطناعي) أو غير الموجهة (وهو التهجين الاعتيادي)، قد دلت وبشكل لا يقبل اللبس، أن التطور الداروينى وفق آلياته (العشوائية) هو افتراض مزعوم تنفيه التجربة. كما دلت التجارب من هذا القبيل أن ما حصل عليه خبراء التهجين والباحثون هو الصفات الوراثية المتنحية، والموجودة أصلا في مورثات النوع نفسه، عند أسلاف الكائنات التي تم تهجينها دون أي جديد فيها. وفي الواقع فإن الاصطفاء الانتقائي هو محدود بالتنويعات الموروثة في الجمهرة الوراثية. وبعد عدد من الأجيال فإن القدرة على التنوع تتلاشى. إن الثباتية في المخلوقات هي الصفة الغالبة على عملية التكاثر والنمو. وهذا يعني طبعا تأكيد ما أثبتته الدراسات على المستحاثات التي ظهرت فيها الكائنات في الأحافير، بنفس شكلها التي تحيا عليه الآن. فالنتائج تدل في الواقع على أن المورثات، وهي الشيفرة الوراثية لكل نوع كائن حي، تتميز بانفصال واستقلالية كاملين عن النوع الآخر. وهذا ما يؤكد مرة أخرى على دور التصميم الذكي الذي قام بإنجاز نظام المورثات في كل الكائنات الحية. هذا الأمر لا يمثل رأيا شخصيا أو تصنيفا وهميا، بل يمثل واقعية مدروسة. ومع أن الدارونيين لا يتفقون مع ذلك الحكم. ولديهم نقاط يطرحونها، حيث يعزو الدارونيون سبب الإخفاق في إنتاج نوع جديد إلى نقص الوقت الكافي. فالإنسان كما يرى أنصار التطور قد قام بتهجين الكلاب فقط لآلاف قليلة من السنين، لكن الطبيعة تملك ملايين بل عدة مئات من

ملايين السنين في خدمتها. هذا الرد لا يبدو جادا و هو بمثابة هروب إلى الأمام من الحقيقة القائمة والمرئية. فلو كان كلامهم دقيقا وجادا بما يكفي، لما كانت كثرة من الكائنات التي تعيش في هذا الوقت، تبدو مطابقة للمستحاثات الأحفورية التي عاشت كما يزعم التطوريون، منذ مئات الملايين من السنين. كما أن هنالك نقطة على غاية من الأهمية لا يعطيها التطوريون وزنا. إنها تتعلق بتخلق مورثة جديدة و اندخالها في النظام الوراثي للمخلوق الأصلي. فملايين أو بلايين أو تريليونات أو لانهاية من السنين سوف لن تكون سببا كافيا في أن تتكون مورثات جديدة من العدم. المورثات الجديدة تحتاج إلى مصمم ذكي يوجدها. وبدون هذا المصمم الذكي، فمن المستحيل، بما تعنيه كلمة مستحيل، أن تنشأ مورثة جديدة. لقد اعتقد التطوريون الجدد بإمكانية نشوء مورثة جديدة من خلال حدوث تعديل ما، يطرأ على مورثة قديمة في الشيفرة الوراثية على ألدنا. يحدث هذا التعديل وفق زعمهم نظرا لخطأ في القراءة أو بسبب التضاعف أو التصاق بعض أجزاء الدنا. ويمكن أن يحدث في الطبيعة وفق زعمهم، بطريقة عشوائية، وربما تمكنوا من استحداثه في تجاربهم بطريقة موجهة. وقد منحوا لهذا التحول اسم الطفرة. فالطفرات هي ما دعاه دارون بدايةً " التنوع", وهي (كما عرفها أنصار التطور) تغيرات تطرأ على المورثات و تظهر بشكل عشوائي، وهي تقريبا دائما تكون مؤذية حيث تتسبب في التأثير الضار على العضوية بشكل ظاهر. وهم يزعمون دون أي دليل يقدمونه، أنها من الممكن وبشكل ضئيل جدا أن تحدث بعض التحسين على تلك العضوية في مجال البقاء والتكاثر. لكن مهما كان السبب في وجود تلك (الطفرة) المزعومة المفتعلة، فإنها في حقيقتها لا تمثل أكثر من تشوه على مستوى الدنا لا أكثر ولا أقل. هي حالة مرضية كالتي تظهر على الإنسان عندما يعتل جسمه لسبب ما. حيث تتظاهر تلك الحالة بصورة مرض على الصفات الشكلية الظاهرة. إن المورثات ليست إلا الصفات الجينية المقابلة لتلك الصفات الظاهرة. من خلال ذلك فإن ما يثير التساؤل هو لماذا عندما تظهر الأعراض على الصفات الظاهرة تسمى مرضا، وعندما تتظاهر على المورثات الجينية يسميها أنصار التطور طفرة، ويختلقون منها قدرة ذكية تعطي مواصفات إيجابية للنوع. إن كل كائن حي قد يصاب بالمرض. فلماذا يمتنع عند أنصار التطور على المورثات أن تصاب بتشوه ما نتيجة لعامل مرضي ما؟ أليس السرطان هو أذية على مستوى المورثات؟ إن مثل ذلك المرض الممثل بحدوث تشوه على مستوى الدنا لا يتركه جسم

الكائن الحي وشأنه. شأنه في ذلك شأن أي مرض يصاب به الكائن الحي. فهو يقوم بعلاج مباشر له وفق آليات تختلف بحسب كل عضو وكل حالة. لقد خلق الله تعالى لتلك التشوهات على مستوى الدنا، عند الكائن الحي نظاما أنزيميا معقدا يعمل مباشرة على احتواء الأذية عندما يحدث ذلك التشوه. هذا النظام الإصلاحي، مركب من عدة أنظمة خمائرية (تصميم ذكي) يعمل كل نظام وفقا للتشويه الطارئ، بحيث يقوم في النهاية إما بإزالة التشويه كليا، أو بإزالة جزئية للأذية دون أن يحدث تعديلا جوهريا على المورثة. أو أن هذا النظام إذا عجز عن القيام بالتعديل المناسب، فإنه يوعز إلى نظام آخر بالقيام بقتل الخلية كي يبقى عمل الجهاز العام في جسم الكائن الحي منسجما. فمن المستحيل والحالة هذه، أن يطرأ تشكل مورثة جديدة جيدة (طفرة) وفق آلية عشوائية، كما يزعم أنصار التطور. لقد أجريت تجارب مخبرية لا تكاد تحصى لاستحداث طفرات في المختبرات على مخلوقات حية عديدة وكانت جميع النتائج هي تشوهات على مستوى الصفات الظاهرة المقابلة لتلك المورثات المتأذية. لقد أخفق العلماء تجريبيا في استحداث أية طفرة إيجابية كما يزعم أنصار التطور. وبالرغم من أن ذلك يعتبر أمرا يمكن استنتاجه عقليا حيث لا يمكن استحداث مورثات جديدة من العدم. أما ما يحصل في التجارب فهو تشويه يطرأ على جسم المورثة الموجودة أصلا. الأمر يشبه بطريقة ما، ما يقوم به أطباء التجميل من إضافة بعض المركبات كالسليكون تحت الجلد لإزالة التجاعيد فما حصل بالنتيجة هو تصحيح لصفة ظاهرة دون أن يمس الأمر جوهر تلك الصفة. كذلك فإن التشويه الذي يطرأ على المورثة لن يفضي إلى استحداث صفة جديدة لم تكن أصلا موجودة وإنما سيقود إلى عيب مرضي وراثي. المورثة الجديدة لا يمكن أن توجد إلا في حالة واحدة فقط، وفقط لا غير، وهي أن يتم تصميمها بشكل إبداعي من قبل مصمم ذكي. لقد قام الدارونيون الجدد بإجراء تجارب نوعية خلال الخمسين عاما الماضية، على مستوى الشيفرة الوراثية الدنا. وأحدثوا تشويهات محققة في العديد من المورثات، لكنهم عجزوا عن إحداث (طفرة) جديدة (والمقصود هنا هو صفة وراثية جديدة وجيدة). فإذا عجز التصميم الذكي ممثلا بالإنسان في هذه الحالة، وسيبقى عاجزا، عن استحداث صفة وراثية جديدة جيدة، فهل يمكن (للعشواء المزعومة) أن تحدث مثل تلك الطفرة؟

ومع إخفاق مراكز البحوث والمعامل التي تعمل على استحداث طفرات نافعة، فقد تم إغلاقها جميعها بسبب نضوب التمويل المخصص وعدم تحقيق أي نجاحات ولو محدودة في هذا المجال.

لقد سنحت للإنسان فرصة مواتية لرؤية التشويه المباشر أو (الطفرات على مستوى المورثات) الناجم عن عمل المواد المشعة المتسربة من المفاعلات الذرية في الكائنات الحية المختلفة. لقد كانت كل النتائج الشعاعية على مستوى جميع مورثات الكائنات الحية التي تعرضت للإشعاعات،عبارة عن أذيات و تشويهات، بما لهذه الكلمة من معنى. لم تطرأ أية طفرة (بالمعنى الجيد) بالرغم من مليارات الأذيات التي أصابت الكائنات الحية المتنوعة. كل ما ظهر بعد تلك التسريبات الشعاعية من آثار مثل ما أصاب البشر، في هيروشيما وناغازاكي أوفي تشيرنوبل هي ولادات مشوهة ومواليد ناقصة الأعضاء وأجنة ميتة وغير مكتملة النمو وسرطانات. بالخلاصة فإن نتائج التعديل على المورثات هي أذيات تنعكس في الصفات الشكلية، على شكل استمساخات مرضية. صحيح أن مثل تلك الصفات لم تستغرق فترة حدوثها إلا أعواما قليلة، والطبيعة أمامها كما يزعم التطوريون أزمنة سحيقة. لكن ذلك التعرض المباشر للمورثات بالقدر الهائل من المادة المشعة المتسربة، والذي يعتبر حدثا استثنائيا، يستوجب بكل تأكيد، أن يكون قد تم استحداث تلك الطفرة الإيجابية إن كان حقيقة هنالك أية إمكانية على الإطلاق لحدوثها ، وأن يكون أنصار التطور هم أول من التقط النبأ وأذاعه في الآفاق. لكن غياب حدوث تلك الطفرة (الجيدة) هو دليل لا يقبل الشك على استحالة إمكانية حدوثها وفق الآلية العشوائية المزعومة مهما طال الزمن. وبالخلاصة، فإن كل ما استطاعت التجارب في هذا السياق استحداثه، هو تشويهات و أذيات على مستوى المورثات، انعكست على شكل تشوهات خلقية عند الأجنة.

يستشهد الدارونيون بأنه قد تم تطوير نباتات مدجنة يمكنها أن تتزاوج مع بعضها, لكنها لا يمكنها الإخصاب مع النباتات الأصل. وهي بذلك تحقق المعيار المقبول (للنوع الجديد).

هذا القول لا يمكن أن يكون دليلا على التطور لسببين:

1- لأن ما تم الحصول عليه هو أمر تجريبي وليس أمرا عفويا. وهناك اختلاف جذري بين التجربة الاصطناعية المصممة وبين العفوية المزعومة.

2- إن التجربة في حد ذاتها قد اختارت شروطا معينة حيث تمت بواسطة (مبدأ التصميم الذكي) وهو التصميم الإنساني للتجربة والتحكم بها وبذلك تكون نتائجها قد أخلت بمدلولي العفوية و العشوائية. إن وجود التصميم الذكي في التجربة بكل الأحوال يجعل التجربة غير مقبولة للبرهان على العشوائية. ولكي تكون التجربة مقبولة يجب أن تتم من خلال مبدأ يتطابق تماما مع شروط " العشوائية" كما قام بتعريفها أنصار التطور. وهو يقتضي أن تشكل الأنواع الجديدة يحدث وفق مبدأ العشواء بواسطة الاصطفاء الطبيعي. إذن لبرهان استحداث نوع جديد وفق النهج التطوري يجب تخطيط التجربة بحيث تطابق فيها الشروط شروط العشوائية وحدوث آلية الاصطفاء الطبيعي في تزاوج تلك الأنواع المختلفة، ثم أن يحصل عفويا تولد نوع جديد من ذلك التزاوج المختلط بين أفراد نفس النوع لا بين نوعين متغايرين من النباتات الحية كما جاء في التجربة، لأن التطور في أساسه يعتمد كلية على التدرج من نفس النوع وليس من تزاوج أنواع مختلفة.

إن (النوع البيولوجي) تعريفا: هو ببساطة زمرة قادرة على التزاوج فيما بينها. و في الجراثيم على سبيل المثال: إن النجاح الإنساني في تقسيم مجموعة ما قادرة على التزاوج إلى مجموعتين منفصلتين أو أكثر لا تستطيعان أن تتزاوجا مع بعضهما، لا يمكن أن يمثل دليلا بأن عملية مشابهة يمكن من خلال الوقت أن تنتج وفق آلية عشوائية نموذجا جديدا . إن ذلك الأمر يتعلق بشكل مبدئي بمخطط التجربة الذي تم. وإذا استثنينا العامل الإنساني (كمصمم ذكي) في تلك التجارب فإن السؤال هنا سيبقى يتعلق بمبدأ التجربة وكيف تم إجراؤها:

1- هل تمت التجربة على مستوى الأعراس في تلك الكائنات بنفس الطريقة الطبيعية التي يحدث فيها التزاوج عند نفس الكائنات. أم أنها تمت بطريقة مغايرة ومن خلال إضافات ليست واردة في الطريقة التقليدية.

2- هل تم التهجين بشكل موجه هادف أم ترك بدون توجيه؟

3- هل استثني في التجارب التهجينية نتائج معينة غير موافقة لمرئيات التطور أم أنه لم يستثنى شيء؟

يعزو الدارونيون سبب الإخفاق في إنتاج نوع جديد إلى نقص الوقت الكافي. فالإنسان قد قام بتهجين الكلاب فقط لآلاف قليلة من السنين , لكن الطبيعة تملك ملايين بل عدة مئات من ملايين السنين في خدمتها. حتى وإن كان الأمر يتعلق بعدة مليارات أو حتى لا نهاية من السنين، فإن تحصيل نشأة الحياة لابد أن له غاية، والأسباب هي دينية محضة. إن انتظار الأحقاب السحيقة من أجل تحقق حدث يقتضي تحولا عبثيا لا يمكن للعقل أن يقبله. إنه هدر كامل للزمان والمكان والحدث. فما لم يحدث خلال مئات من السنين، لا يمكن أن يكون قد حصل خلال تريليونات من السنين. ألم يكن بوسع الاصطفاء الطبيعي أن يجد طريقة يختصر فيها ذلك الوقت الضائع (مليارات السنين) ويحقق نجاحه في فترة وجيزة، تتيح للإنسان أن يشهدها؟ ولماذا لم يختر الاصطفاء الطبيعي طريقة أخرى جديدة في اصطفائه فيهب للإنسان حياة مديدة تجعل منه شاهدا على تلك التحولات منذ بدايتها؟ لماذا يختار الاصطفاء الطبيعي بطريقة متحيزة المعطيات الدارونية فتأتي نتائجه متوافقة معها دائما ولا يقبل تناقضا مع الدارونية وهو المنهج العفوي في المقام الأول؟ كيف تسنى لأنصار التطور أن يبرروا نشأة الحياة بزعمهم قبل عدة مليارات من السنين، في حين أن الإنسان الحالي الذي يفترض أنه المخلوق الوحيد الذي سيشهد ويحلل ويعي تلك التطورات المزعومة لم يأت إلا قبل عدة آلاف من السنين فقط .؟ ما تبرير مجيء كل تلك المخلوقات الأخرى التي لا تعي ما يحدث حولها ولا تفهم ما طرأ ويطرأ من تغيرات ولا تدرك ذلك التطور المزعوم، قبل أن يجيء الإنسان بمليارات السنين؟ أليس من المنطقي إذا كان التطور صحيحا، أن تكون جميع المخلوقات لديها وعي على الأقل يتعلق بقدومها ووجودها وصيرورتها؟ ليس هناك سوى الإنسان من بين كل تلك المخلوقات الذي يملك ذلك الوعي. وللمفارقة أنه جاء متأخرا جدا بحسب وصف الدارونيين. وكأن قدومه أو عدمه جاء سيان، وذلك عند مقارنة عمر وجوده المحدود بعمر المخلوقات التي جاءت أولا إلى الوجود. أليس من العقل والمنطق أن تكون تلك المخلوقات البدائية، هي من يملك الوعي والعقل لتسجيل التاريخ السحيق والجديد بدلا عن شاهد كالإنسان جاء متأخرا جدا ولم يشهد شيئا. ثم هل تمكن الإنسان حين هجن الكلاب ولآلاف قليلة من السنين من إنجاز

تحول طفري واحد يمكن قبوله في سياق التطور الدارويني المزعوم بالرغم من أن الأمر ينبغي أن يكون ذو أسلوب عشوائي (وفقا للدارونية) حتى يكون مقبولا؟

قبل دارون لم يقر أحد أن للعشواء أو الآليات غير الموجهة دور في تطور الكون والمخلوقات. فالعشواء هو مصطلح جاء به دارون و التطوريون ولم يقدموا الدليل العلمي على وجوده بل جعلوه مسلمة بدون دليل. ويبقى هذا الاصطلاح مرفوضا حتى يتم إثباته بالدليل. إن على أنصار التطور والحالة هذه أن يثبتوا وجود العشواء كمصطلح حقيقي علمي بالدلائل العلمية التجريبية إذا كانوا يعتقدون أن التطور حقيقة يستند إلى العشواء.

إن الطريقة التي يتعاطى فيها أنصار التطور مع وجهات النظر الأخرى وبصرف النظر عن خلفيتها، تبقى ذات نظرة متحيزة واضحة. فقرار الأكاديمية الذي يمثل التوجه الأساسي لأنصار التطور وكما ذكر القاضي فيليب جونسون " يظهر فيه كما لو أن محامي الدفاع عن المتهم غير مسموح له بتقديم حجته ما لم يقدم دلائله حول الشخص الذي ارتكب الجريمة، على الرغم من أن تلك الحيثية ليست من مهامه. و الجهة نفسها التي أصرت على فصل الدين عن العلم، كانت تواقة إلى استخدام فهمها للعلم كأساس في إبداء الرأي حول الدين... إن أدبيات الدارونية مليئة باستنتاجات مخالفة للدين، مثل أن الكون جاء بدون أي تصميم وهو بدون أية غاية، وأننا نحن البشر قد جئنا من خلال عملية طبيعية عمياء لا تقيم لنا أي اهتمام. و الأهم من ذلك ، فإن تلك الإفادات لم يتم تقديمها باعتبارها آراء شخصية بل كتطبيقات منطقية لعلم التطور.... وهنالك عامل آخر يجعل من العلم التطوري يبدو تماما كما لو أنه دين، وهو الحماسة الواضحة من قبل الدارونيين للتبشير بمعتقدهم في العالم، وذلك من خلال الإصرار على أن الشخص العادي غير المتعلم لديه الاستعداد بسهولة على تقبل (الحقائق) التي تقدمها فرضيتهم التطورية، كمسألة التزام أدبي أخلاقي". يقدم القاضي فيليب جونسون فقرة من كتاب "صانع الساعات الأعمى" الذي كتبه ريتشارد دوكينز وذلك كدليل واضح على التوجه والطبيعة ذات الصفة الدينية للدارونية وللتطور حيث كتب دوكينز " لقد أتاح دارون إمكانية أن يكرس المرء نفسه ملحدا بالفكر" وتابع أيضا " من المؤكد أنه إذا ما قابلت شخصا ما، يدعي أنه لا يؤمن

بالدارونية، فمن السليم القول أن هذا الشخص لابد أنه مهمل، غبي أو مجنون(أو أنه خبيث شرير) وإن كنت أفضل ألا ألفظ هذا التعبير".

لا يحتاج المرء إلى دقة نظر كي يرى التزمت والتحيز لدى دوكينز للدارونية وللتطور. إن الأسلوبين الإقصائي و الوصائي يبدوان جليين واضحين في فقرة دوكينز. فمن الذي أعطى الحق لدوكينز كي يقرر من هو العاقل ومن هو المجنون؟ ومن الذي خوله الصلاحيات في أن يكره الناس غصبا على الإيمان بالدارونية؟ وهل يملك دوكينز برهانا ساطعا على أن الدارونية والتطور هي الصواب الذي يجافيه الخطأ وأن الرأي الآخر هو خطأ يجانبه الصواب؟ أم أن الأمر كله مجرد تعصب لرأي ولعقيدة أو فلسفة.

وبالخلاصة: فهل بعد ذلك على علوم الخلق أو أية علوم أخرى كي تمثل علما، أن تستند إلى افتراضات بلا براهين وإلى مزاعم من غير أدلة؟ هل هذا هو العلم كما تراه الأكاديمية؟ إذا كان العلم كما تراه الأكاديمية بهذا الشكل، فهل يستوجب على الجميع أن يقبل هذا التعريف وأن ينصاع له؟ من الجلي أن تعريفا للعلم بهذا الشكل هو تعريف متحيز وناقص.

التطور:

في لغة مشتركة، يشير التطور إلى الأشياء المتغيرة مع مرور الوقت. كثير من الأشياء "تتطور" في هذا المعنى: تصاميم السيارات، والنظم السياسية، وبرامج الحاسوب، العلاقات الشخصية، وغير ذلك وهذا التعريف يتفق الجميع عليه. إن الأمور تتغير، حتى عندما ينطبق الأمر على الأنظمة الحية، نلاحظ أن الأمور تتغير. فالبويضة المخصبة تصبح جنينا ، فطفلا، فمراهقا، ثم بالغا. تتغير الهندباء من زهرة ذهبية إلى كرة متربة من البذور، واليسروع يصبح فراشات بل و أقرب إلى الواقع، فنحن نعلم أن سلالات مختلفة من الكلاب والقطط والماشية قد "خلقت" من خلال التهجين الاصطناعي عن طريق التخطيط و التربية والتوجيه الانتقائيين. وهكذا فالتطور بهذا المعنى مقبول من قبل جميع العلماء كآلية تغير. والسؤال لا ما إذا حصل تغير ما، وإنما ما الذي تسبب في هذا التغيير؟

لقد كان الاصطفاء فيما مضى "مصطنعا" (أي موجها من خلال آلية ذكية) وهو الاصطفاء الذي كان تشارلز داروين قد عناه عندما صاغ تعبيره " الاصطفاء الطبيعي" في كتابه أصل الأنواع عام 1859 .

جادل داروين أنه إذا كان الوسيط الذكي قادرا على أن يولد مثل هذا التغير الجذري في أشكال الحيوانات في غضون سنوات قليلة من التربية المخطط لها، فلربما يمكن لعمليات غير عاقلة أن تفعل الشيء نفسه إذا أتيح لها ما يكفي من الوقت، بوجود العوامل البيئية التي تتيح لل"أصلح" بين أفراد مجموعة من السكان البقاء على قيد الحياة (والتكاثر) بشكل أفضل من "الأقل كفاءة." داروين كان يدرك جيدا أن أشكال الحياة، مخطط الجسم، والبنى الهيكلية قد تغيرت على مدى فترات طويلة من الزمن . الحفريات وحدها يمكن أن تشهد على مجموعة متنوعة مذهلة و متزايدة من النباتات والحيوانات المعقدة التي انقرضت. لا شك أن الحياة قد تغيرت. ولكن ما سبب هذا التغيير؟ داروين وخلفاؤه يؤكدون أن آليات غير عاقلة أو موجهة، في عملية طبيعية تسببت في إحداث التغييرات. إن القانون والصدفة وحدهما (الاصطفاء الطبيعي الذي يعمل على التنوع العشوائي) يكفي لتفسير جميع أشكال التنوع في الحياة وأن يبرر أصل الحياة. قدمت الرابطة الوطنية لمعلمي الأحياء في عام 1995 فيما يلي التعريف التالي للتطور: "تنوع الحياة على الأرض هو نتيجة للتطور: الحاصل دون توجيه، وفق عملية طبيعية غير هادفة، لا يمكن التنبؤ بها، خلال زمن مديد وتناسل بتعديل وراثي يؤثر فيه الاصطفاء الطبيعي، الصدفة، الاعتبارات التاريخية، والتغيرات البيئية".

لا بد هنا من التوقف مع مصطلح التطور الذي قدمه دارون وتبناه التطوريون وجعلوا منه مفتاحا لنشأة الحياة وازدهارها في هذه الأرض. يقدم القاضي جونسون وصفا لهذا التطور فيكتب: " التطور": إنها كلمة قد تعني أي شيء انطلاقا من إفادة لا تثير الجدل، مثل القول بأن الباكتيريا قد "طورت" مقاومة للصادات الحيوية، إلى إدعاء ميتافيزيقي بأن الجنس البشري قد "تطور" بواسطة آليات وقوى عبثية. كلمة بمثل هذه المرونة من المرجح أنها سوف تتسبب في خداع واضح، وبالإشارة إلى ذلك، فإنه يتوجب علينا إدراك المقصود من المعنى بدقة، مقارنة مع التفسير السطحي" . يلجأ جونسون إلى الاستعانة بأفكار واحد من أنصار التطور، كولن باترسون، وهو عالم أحافير متمرس من المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي حيث تبين له "بأن التطور والخلق هما شكلين من أشكال الخداع المعرفي الذي يبدو أنهما يقدمان معلومات، لكن في الحقيقة وكل ذلك وفقا لرأيه، لا يقدمان شيئا". ومن خلال رأي جونسون فلقد كان الاعتراض الشائع على

الخلق ما قبل أيام دارون، هو أنه لم يكن بمقدور أحد التحدث عن آلية معروفة للخلق. لقد لمح الخلقيون ببساطة إلى "حقيقة" الخلق و أذعنوا في إهمال متعمد لتفسير المعنى الحقيقي للخلق . لكن الآن ووفقا لباترسون، ولأسباب جلية، فإن نظرية دارون المتعلقة بالاصطفاء الطبيعي تقع هي أيضا تحت مرمى النار. فهم ليسوا متأكدين من استمرار صلاحيتها. إن التطوريين يتكلمون بشكل متزايد مثل الخلقيين بالإشارة إلى (حقيقة) لكن دون أن يقدموا تفسيرا لما تعنيه تلك الحقيقة. قدم باترسون نقطة مهمة: "يمكننا أن نشير إلى شيء ما غامض وندعوه "تطور" لكن ذلك هو عنوان فقط". إن السؤال المهم ليس فقط في كون العلماء قد اتفقوا على ذلك العنوان، وإنما حول مدى معرفتهم في كيفية مجيء الأشياء الحية المعقدة مثل البشر إلى هذا الوجود. استعان جونسون برأي آخر للمنظر وعالم الاجتماع ذو الاهتمام الخاص بالتعرف على الفلسفات المبهمة، إيرفنغ كريستول. قدم كريستول ملاحظاته " إن النظرية الداروينية والتي تقدم شرحا حول كون الحياة المعقدة هي نتيجة لطفرات وراثية صغيرة و بواسطة "البقاء للأفضل" ،معلوم بأنها يمكن قبولها فقط، عند الكلام عن تنوع ضمن حدود النوع البيولوجي الواحد. أما الكلام عن أن التطور الداروينى الذي يزعم أنه يمكن أن يحول نوعا من المخلوقات إلى نوع آخر، فهو بالتحديد (فرضية بيولوجية) , وليست حقيقة واقعة".

يستنتج جونسون بالاستناد لما سبق، و حيث تقف الأمور الآن، "أن المتدينين من أنصار الخلق لا يمكن أن يكونوا بعيدين عن الواقع، حين يؤكدون أن التطور كما يتم تعليمه في هذه الآونة، يملك حيزا مناهضا للدين لا مبرر له، خصوصا وأن أنصار التطور لم يقدموا دليلا واضحا أو تعريفا مكتملا واضحا للتطور".

من الواضح من خلال ما سبق، أن ما كان القاضي فيليب جونسون يريد أن يشير إليه هو أن المأخذ الذي يأخذه أنصار التطور على أنصار الخلق هو استنادهم في تفسيراتهم العلمية إلى تفسيرات إعجازية أو خارقة للطبيعة، وهي التفسيرات التي تنسب إلى المؤمنين بالألوهية. أما هؤلاء أصحاب المذهب المادي من أنصار التطور فهم لا يؤمنون إلا بالمادة ويريدون أن يكون التفسير العلمي لأية ظاهرة تفسيرا ماديا. لكنهم في نفس الوقت هم أنفسهم، عندما قدموا فهمهم للتطور والذي يفترض أنه يقدم تفسيرا علميا ماديا للوجود، اتضح أن تفسيراتهم هي تفسيرات قاصرة، مرتبكة، وغير واضحة، بل ربما كانت تفسيرات خيالية لا تستند إلى أي

واقع. فإذا كان الأمر كذلك، فإن تعصب أنصار التطور لمذهبهم دون وجود دليل قطعي يملكونه، يعتبر في حد ذاته، وكما يرى القاضي جونسون، شكلا من أشكال المناهضة للدين والتحيز الذي لا مبرر له. يرى القاضي جونسون أن كلا التفسيرين اللذين يتناولان نشأة المخلوقات، الألوهي (بمعنى نسبه للخالق) عند أنصار الخلق والتطور عند أنصار التطور يتساويان في كونهما لا يقدمان توضيحا دقيقا يستند إلى مبررات طبيعية يتبين من خلالها، الآلية التي تمت نشأة الكائنات الحية بموجبها.

لقد استند القاضي جونسون فيما وصل إليه إلى كتابة واحد من أساطنة التطور وهو الأستاذ الجامعي في هارفرد ستيفان جي. غولد، الذي أنكر وجود أي قدر من هذا التحيز ضد التدين في الكتب المرجعية للتطور، مقارنة بأي حقل من حقول العلم الأخرى. وأكد أن " الاختيار الداروني .... سيبقى مركز الاهتمام في نظريات التطور الأكثر شمولية." وبأن "التطور هو أيضا حقيقة طبيعية، بنفس حالة ثبوت أن الأرض تدور حول الشمس" .

يكتب القاضي جونسون رادا على كلام غولد هذا " لقد أصبحت معتادا على ملاحظة تلك الأشكال من الاستجابات المتملصة تجاه الانتقادات. عندما يتساءل شخص ما من خارج المحيط العلمي، فيما إذا كانت فرضية التطور موثوقة تماما و بالشكل الذي تم دفعنا فيه لتكوين القناعة عنها، فإنه يتم الرد علينا بأن مثل تلك الأسئلة لا ينبغي أن تطرح".

إما أن يكون الأستاذ غولد لم يقرأ الكتب المرجعية للتطور، أو أنه حين قرأها لم يول التحيز فيها اهتماما كبيرا. لا شك أن الغالبية من الكتب العلمية وفي مختلف فروع الاختصاصات قد دخلتها شائبة التطور، ويبدو أنه مع الأسف، هنالك ضغط كبير وتوجه عام من قبل المتنفذين في الشؤون العلمية على مستوى العالم لإقحام التطور في كل حقول المعرفة. لكن يبقى حقل البيولوجيا من بين فروع العلم الأخرى، الحقل الأشد تأثرا بالتطور والأكثر خضوعا له. و الغريب هو ذلك التشدد والتزمت الذي يتخذه جي. غولد متحيزا للتطور حين كتب "التطور هو أيضا حقيقة طبيعية ، بنفس حالة ثبوت أن الأرض تدور حول الشمس". لقد استفز هذا الكلام القاضي جونسون فرد عليه بعبارته السابقة. فبدلا عن التملص بتقديم جمل صارخة كتلك العبارة التي كتبها ، كان ينبغي على غولد أن يبين لنا لماذا وكيف يكون التطور حقيقة طبيعية؟ فثبوت أن الأرض

تدور حول الشمس قد برهن عليها غاليليو يومها بدلائل علمية لا تقبل الشك، والشواهد العلمية المادية اللاحقة قد أكدت ذلك. فهل قدم غولد البرهان العلمي لعبارته تلك (أن التطور هو حقيقة طبيعية)؟ هل هكذا يكون العلم والنقد والحوار العلمي؟ إن غولد يقول لنا فقط و بالفم الملآن (التطور هو خط أحمر لا يجوز نقده أو الطعن فيه). أليس هذا شكل من أشكال التقديس الديني للنصوص؟ لكن الفرق جلي، فالنصوص الدينية هي نصوص إلهية وتستمد قدسيتها من الخالق الكريم الذي ينتفي عنه صفة الخطأ. أما التطور، فإن من ابتدعه هم بشر، والبشر عموما، لا يمكن نفي الخطأ عنهم. إننا نلحظ ذلك التزمت والتعصب للتطور في نص ما كتبه القاضي جونسون نقلا عن التطوريين: " يقال إن الخلاف بين الخبراء حول التطور هو مسألة تفاصيل، مثلما يتعلق الأمر بالبرنامج الزمني، أو حول طبيعة الآليات التي تم فيها التحول التطوري. فهذه الاختلافات لا تمثل علامات تأزم، وإنما هي ظواهر خلاقة صحية في داخل الحقل التطوري. وفي كل الأحوال فإنه لا يوجد أي مجال للشك بأي شكل كان، حول ما يسمى " بحقيقة" التطور".

إن تحيز التطوريين حول " حقيقة" التطور هو بمثابة دفع للآخرين قصرا للقبول بها. هذا يطرح سؤالا مهما حول مفهوم المسلمات. فالمسلمات هي حقائق لا يمكن برهانها ويستند إليها في بناء الفرضيات. فحقيقة أن أقصر مسافة بين نقطتين هو المستقيم هي مسلمة من المسلمات. وحقيقة أن الخطين المتوازيين لا يلتقيان أيضا مسلمة من المسلمات. لكن "حقيقة" التطور لا يمكن أن تكون مسلمة، وتحتاج إلى دليل تجريبي لتأكيدها. إن تطور كائن حي إلى كائن حي آخر لا يمكن أن يكون أمرا مسلما به، ما لم نشهد بأعيننا مثالا عن هذا التحول الذي يزعم التطوريون أنه قد حصل. يعلق القاضي جونسون على الموضوع كاتبا " هناك غياب واضح في الشرح الذي يشير إلى كمية التحولات الأساسية التي يمكن أن تحدث. إن الإفادة التي لا معنى لها و التي تقول (أن الإنسان قد تطور عن السمك) لا يمكن أن تكون مقنعة. ما يجعل قصة السمك مقنعة وذات مصداقية، هو إيمان العلماء أنهم يعرفون كيف أن السمك يمكن أن يتحول إلى إنسان بدون أي تدخل إعجازي".

إن هذا الذي قاله جونسون هو حقا ما نحتاج إليه. نحن هنا بحاجة إلى دليل مادي وفق ما يدعي أنصار التطور، كي نستدل من خلاله على صحة ما يزعمونه، وإلا كان زعمهم هذا يضاهي ما انتقدوا فيه أنصار الخلق آنفا.

هنالك عدم اتفاق واضح بين أنصار التطور حول الآليات التي يعمل التطور من خلالها ، وهنالك نظريات شتى وضعها أنصار التطور في هذا الشأن تشرح آلية وعمل التطور. إن عدم الاتفاق بين أنصار التطور حول آلية مشتركة لعمل التطور، يعتبر بالتالي ذو أهمية قصوى، إلى من يريد منا التعرف فيما إذا كان العلماء حقيقة يعلمون عن"التطور" بالقدر الذي كانوا يزعمون علمهم به. بناء على ذلك يكتب القاضي جونسون:

" إن وجود نظرية تشرح كيف يعمل التطور تعتبر أمرا لامناص منه. خصوصا في الحالة التي يلمحون فيها في التطور ، كما فعل عدد لا متناهي من أنصار التطور في كتاباتهم، إلى أن آليات مادية عبثية تعتبر مسؤولة عن سبب وجودنا. فالتطور، وفقا للمعنى السابق الذي يستخدمه العلماء هو آلية ميكانيكية، إذن : فأي مدلول لقيمة كلمة "حقيقة" سيبقى عندما يتم حذف الآلية عنها؟ إنها لا شك ستصبح غامضة بشكل كلي. سوف نبحث في الدلائل، لنرى ما إذا كانت هنالك آليات معروفة تستطيع أن تحقق التغيرات التحولية ذات الدرجة الكبيرة، والتي تزعم فرضية التطور بأنها قد حدثت، مثل التحول من باكتيريا ذات خلية واحدة إلى معقدات نباتية وحيوانية، من السمك إلى الحيوانات الثديية، ومن القرد إلى الإنسان. إذا كانت تلك الآليات الدارونية الجديدة لا تستطيع أن تؤدي العمل، وإذا كان هنالك فقط ما اعتاد غولد و كريستول تسميته " بآراء مختلطة مكونة من فرضيات متناقضة" بدلا عن إيجاد بدائل صريحة، عندها يمكننا أن نستنتج بأن العلماء لا يملكون في الحقيقة، أية معرفة حول كيف أن التطور ذو الدرجات (القفزات) الكبيرة من الممكن أن يكون قد حصل. عندئذ، ينبغي أن نضع في اعتبارنا، إمكانية الفصل بين " حقيقة التطور" وبين نظرية دارون".

بمعنى أوضح، إذا كان أنصار التطور وبعد قرنين من الزمان، ليس لديهم اتفاق على رؤية واضحة حول الآليات التي عمل فيها التطور وفق زعمهم في الطبيعة، وعلى تحول الكائنات الحية بين الأنواع الرئيسية

المختلفة، بل أن هنالك فرضيات متعددة كل منها تحاول أن تجد حلا مناسبا لمعضلة التحول، فإن هذا يعني أن كلمة (حقيقة) التطور هي كلمة زائفة لا يجوز استخدامها والتعصب لها بالشكل الذي رأيناه. وتبقى نظرية دارون مجرد نظرية من غير دليل.

تساؤلات حول التطور:

يقدم القاضي جونسون في هذا السياق عدة تساؤلات مهمة:

1- فيما إذا كانت الدارونية قد استندت إلى الدلائل العلمية بشكل معقول، أم أنها تمثل شكلا آخر من أشكال التعصب. هل تملك الدارونية والتطور دليلا مؤكدا عن وجود آلية ما طبيعية قد تطور من خلالها الإنسان والمخلوقات الأخرى عن أسلاف جرثومية، وبالأصل عن مادة غير حية؟ خصوصا، إذا ما اعتبرنا أن الأكاديمية الوطنية للعلوم قد وضحت بأن الاستناد إلى الشروح (الطبيعية)، يعتبر الخاصية الأساسية الأهم في العلم.

2- هل من المضمون الموثوق به، أن العلماء بطريقة ما، يعرفون بأن الخالق لم يكن له أي دور في خلق الكون والأشكال المختلفة للحياة فيه؟

3- هل يمكن لشيء ما أن لا يكون داخلا في مفهوم العلم وفقا للمفهوم الطبيعاني، لكن يمكن أن يمثل حقيقة، أم أن ما يقصدونه (بغير العلمي) هو أنه لا قيمة أو معنى له؟ وعند الأخذ بعين الاعتبار الدعم المتشدد من قبل المؤسسة العلمية للتطور الطبيعي، فهل يمكن لشخص من خارج المؤسسة أن يفكر حتى، في أن هذا المذهب الذي تم توطيده رسميا من الممكن أن يكون زائفا؟

إن القصد من الموضوع كما يراه جونسون، هو شرح للمفاهيم التي تستخدمها الفرضيات التطورية المعاصرة، وماهية الإفادات ذات الدلالة التي تطرحها حول العالم الطبيعي، وماهية النقاط ذات الخلاف الأساسي التي يمكن أن تكون منظورة بين التطور الطبيعي وبين الخلق.

ينطلق القاضي جونسون لدى الإجابة على تساؤلاته بداية من كتابات دارون نفسه، ويحدد ثلاثة أسس في الدارونية مرتبطة بعضها بالبعض الآخر تعتبر أساس نظرية دارون. ثم يعكف بعد ذلك إلى تحديد مفهوم مصطلح الطفرة، وينتقل لاحقا إلى آراء وافتراضات الدارونيين الجدد فيكتب:

" يناقش دارون في كتابه ثلاثة قضايا ذات ارتباط:

- الأولى هي أن الأنواع غير ثابتة. ومن خلال ذلك فقد وضح أن أنواعا جديدة قد انبثقت خلال المراحل التاريخية الطويلة للأرض من خلال آلية طبيعية تسمى " التحدر من نسب مع التعديل"
- القضية الثانية هي أن العملية التطورية يمكن أن تمتد لتشمل جميع أشكال الحياة المختلفة، لأن جميع الكائنات الحية قد تولدت عن أعداد قليلة جدا من الأسلاف المشتركة، ربما كانت سلفا جرثوميا.
- القضية الثالثة والتي هي الأكثر تمييزا للداروينية، أن العملية برمتها قد وجهت بواسطة "الاصطفاء الطبيعي" وهو القوة الدافعة والفعالة التي استطاعت أن تحقق تلك الحرفية البيولوجية المذهلة، التي اعتقد الناس سابقا في الأيام الخالية أنها كانت تحتاج إلى أن تقوم بها يد الخالق.

" البقاء للأصلح" هي القوة الدافعة التي اقترحها دارون لتحل محل التوجيه بيد الخالق.

لم يصر دارون وكذلك أتباعه الذين جاءوا من بعده على أن كل عمليات التطور تتم بواسطة الاصطفاء الطبيعي. لقد كتب في نهاية مقدمته في طبعته الأولى عام (1859) في كتابه نشوء الأنواع " إنني مقتنع بأن الاصطفاء الطبيعي قد كان العامل الرئيس لكن ليس الأوحد في حدوث التحول". وقد اشتكى لاحقا من "سوء التقديرات التي أهملت تلك الملاحظة".

ومن جهة ثانية فلقد كان دارون غامضا بشأن أهمية تلك البدائل، و واحدة منها كما يراها: " التنوع الذي يبدو لنا نتيجة جهلنا بأنه يحدث كما لو أنه عفوي". فهل ترى قصد بذلك أنه حدث ليس بعفوي، وإنما تهيأ لنا عفويته نتيجة لجهلنا؟ إن كان قصد ذلك فإن عدم حصوله العفوي يقتضي أنه حصل بشكل مقصود. إن أي تنوع يحصل عن عمد يعني أنه حصل بفعل قدرة ذكية. فهل هذا ترى ما عناه دارون؟

كيف يمكن أن نعرف أن كل ذلك التطور من الممكن حدوثه؟ لقد افترض التطور الداروني عنصرين أساسيين. الأول هو ما دعاه دارون " التنوع "، وهو نفسه ما يدعوه التطوريون الجدد الآن باسم (الطفرة).

مع فارق هو أن دارون لم يكن على علم بعد بالمورثات والوراثة لذلك استنبط أحكامه كلها في التنوع من الصفات الظاهرة فحسب. فالطفرات (كما عرفها أنصار التطور) هي تغيرات تطرأ على المورثات و تظهر بشكل عشوائي، وهي تقريبا دائما ما تكون مؤذية حيث تتسبب في التأثير الضار على العضوية بشكل ظاهر، لكنها من الممكن وبشكل ضئيل جدا أن تحدث بعض التحسين على تلك العضوية في مجال البقاء والتكاثر.

إن العضويات الحية عادة ما تنتج ذرية كبيرة أكبر عددا من التي تحقق الوصول إلى فترة البلوغ. وتلك الذرية التي تكتسب الفرصة تلك، هي أيضا ستقوم بإنتاج ذرية أخرى منها، في حين أن بقية الأمور تبقى متعادلة لدى تلك التي لم يحالفها الحظ. ومن خلال استمرار تلك العملية التي ينجو فيها بعض أفراد النوع الواحد بواسطة التمييز التفريقي، فإن صفة ما محددة سوف تنتشر في ذلك النوع، ويمكن أن تصبح الأساس في حدوث تحسينات تراكمية إضافية في الأجيال اللاحقة. ومن خلال الوقت المتاح الكافي، وحدوث طفرات كافية من النوع الصائب، فإن أعضاء معقدة بشكل هائل، ونماذج ذات سلوك تكيفي، يمكن في النهاية أن يتم إنتاجها في مراحل تراكمية صغيرة متدرجة، دون الحاجة إلى وجود أي ذكاء خاص مسبق.

من الواضح في الفقرة السابقة وإذا ما نحيت الطفرة جانبا لأنها مقتبسة حديثا من قبل أنصار التطور فإن ماتبقى يمثل فلسفة دارون في التطور. فالتنوع عنده يرتبط كما هو واضح بالصفات الظاهرة التي سوف تنبثق عن الذريات التي حالفها الحظ لتتكاثر أكثر وتنجب ذراري أكثر. هذا في الواقع هو مدلول فلسفة دارون في التطور. لكن وبالنظر إلى المعلومات العلمية التي جاءت لاحقا بعد دارون من خلال علم الوراثة وإسقاطها على الفهم الذي قدمه دارون لآلية حدوث التطور، يمكن بسهولة أن يتبين المستقصي أن ما كان يتكلم دارون عنه في تنوعه هو تلك الصفات الوراثية التي ستظهر في الأجيال اللاحقة. تلك الصفات في مجموعها هي مجموع الصفات المتنحية والغالبة التي تتأتى عن المورثات التي تحمل تلك الصفات القاهرة والمقهورة والتي تمثل في مجموعها ضمن أفراد النوع الواحد ما يسمى باسم الجمهرة الوراثية. من المعلوم أن الجمهرة الوراثية ضمن أفراد النوع الواحد هي جمهرة ثابتة لا يمكن أن تقدم صفات وراثية أو شكلية جديدة أو مبتكرة. وعلى هذا الأساس فإن التطور عند دارون لم يكن إلا مجرد عملية تهجين تظهر فيها

الصفات المتنحية ضمن النوع عند حدوث الزيجات المتجانسة أو متطابقة النسيلات تماما كما يحدث أثناء زواج الأقارب حيث تظهر الصفات الوراثية المتنحية وغالبا المرضية. أما عند حصول الزيجات المختلطة أو متعددة النسيلات فإن الأمر سيؤول إلى ظهور الصفات الوراثية الغالبة وهي عادة ما تكون الشائعة بين أفراد النوع. إذن فما نتكلم عنه وما عناه دارون في تطوره ليس إلا مجرد تهجين وظهور لصفات وراثية هي في الأصل موجودة في مورثات النوع ولا حدوث لأي شكل من أشكال التطور أو التنوع وعدم الثباتية في النوع. إن جهل دارون في حينه بعلم الوراثة واكتشافه للصفات الجديدة الناجمة عن التهجين هو ما جعله يعتقد بعدم ثباتية النوع. لقد تحققت لدارون فرصة لمراجعة خطأه في فرضية التطور التي ابتدعها وذلك أثناء إجرائه لتجارب التهجين على الطيور حين أتاح للطيور التي كانت تحمل صفات متنحية بالتزاوج المختلط مع الطيور ذات الصفات القاهرة فكانت النتيجة في الجيل اللاحق أن حصل اختفاء كلي للصفات المتنحية، وعاد جميع أفراد الجيل يحمل الصفات الغالبة الشائعة. إن هذا بالتأكيد يمكن تفسيره بالثباتية ضمن حدود النوع الواحد وهذا يتناقض مع عدم الثبات والاستقرار الذي افترضه دارون داخل النوع. فواقع الحال أن التطور الذي اعتقده دارون لم يكن تطورا على الإطلاق وإنما مجرد تهجين وصفات متنحية ظهرت فجأة.

"الطفرة " كما يتم استخدامها هنا من قبل أنصار التطور في العصر الحالي هي عنوان بسيط لمجموعة آليات، وهي التي يفترض أنصار التطور بأنها تقوم بتقديم التنوع الوراثي، والتي من خلالها يقوم الاصطفاء الطبيعي بأداء دوره. إن المجموعة تتضمن طفرات نقطية، تضاعف الصبغيات، تضاعف المورثات، ومجموع ذلك كله. إن النقطة الأساسية في الموضوع هي أن التنوع ينبغي أن يكون عشوائيا. من الأسهل بمراحل أن نتصور التطور الخلاق وذلك من خلال وجود قدرة تقود العملية باستخدام الطفرة المناسبة في الوقت المناسب. لكن النظرية الوراثية المتصلبة في تركيبها تصر على عدم وجود مثل تلك القدرة الخلاقة الموجهة للطفرات، وعلى هذا فعلى المخلوقات أن تتشكل بما تمليه عليها معطيات الطبيعة العمياء (الاصطفاء الطبيعي).

ووفقا لكلمات دوغلاس فيوتوياما : "عندما كتب دارون نشأة الأنواع، لم يكن بمقدوره أن يقدم حالات جيدة من الاصطفاء الطبيعي. لقد قدم بدلا عن ذلك شكلا مشابها من الاصطفاء الاصطناعي ، والذي يستخدمه مربو الحيوانات والنباتات لتحسين صفات الأنواع المحلية للحيوانات والنباتات.

إن الاصطفاء الاصطناعي لا يماثل في طبيعته الاصطفاء الطبيعي، وإنما يختلف عنه بمبدأ جوهري هو التخطيط والتصميم الذكي. لقد كان هدف دارون في نظريته على أي حال، والتي قدمها في تجربته هو إثبات أن العمليات الطبيعية العبثية يمكنها أن تحل محل التصميم الذكي. ".

لقد أخفق فيوتوياما في عرض توصيف صحيح لما قدمه دارون. فدارون في عملية التهجين التي استند إليها لم يقدم أبدا شكلا مشابها من الاصطفاء الاصطناعي للاصطفاء الطبيعي . فالاصطفاء ومن خلال الرؤيا الخاصة بأنصار التطور يقتضي ظهور مورثات جديدة لم تكن أصلا موجودة في النوع، وهذا مالم يحصل في تجارب دارون التهجينية. فكل ما قدمه دارون من خلال التهجين هو مجرد اختيار للصفات الوراثية المتنحية والموجودة أصلا ضمن جمهرة المورثات للنوع. لذلك وجبت الإشارة إلى أن أنصار التطور كثيرا ما يؤولون المعاني بالشكل الذي يتناسب ووجهة نظرهم دون إعارة الحقيقة العلمية أهمية كبيرة.

بناء على ما سبق فإن عالم الحيوان الفرنسي البارز بيير غريس، استنتج أن النتائج الناجمة عن الاصطفاء الاصطناعي تقدم شهادة قوية ضد فرضية دارون: "بالرغم من الضغط الهائل الذي تمت ممارسته على الاصطفاء الاصطناعي,(مثل الإطاحة بأي زوج لا يتوافق مع المقياس الذي تم اختياره) وعبر ألف عام، لم يتولد أي نوع جديد".

كل ما يمكن قوله إذن عن الاصطفاء الطبيعي هو أن الكائن الذي ينتج المقدار الأكبر من الأنسال ينبغي أن يملك المؤهل المطلوب لإنتاج أكبر عدد من الذرية. " تكرارية المعنى".

إن الفيلسوف المشهور في المجال العلمي كارل بوبر كتب مرة، "بأن الدارونية ليست في حقيقتها فرضية علمية، لأن الاصطفاء الطبيعي هو شرح فضفاض يمكن أن يطلق على أي شيء، وهو بالتالي لا يقدم شرحا لأي شيء."

إن التوليفة المعاصرة (الفرضية) الخاصة بالداروينيين الجدد قد انبثقت عن مفهوم المورثات في المجموعة، وهو حقل يرتكز إلى الرياضيات ، ويوضح كيف أن استحداث أعداد قليلة جدا في الطفرات يمكن أن يؤدي إلى أن تنتشر تلك الطفرات بشكل سريع في المجتمع. إن تلك المعطيات المطروحة هي فرضيات في إطار نظرية، وليست تحصيلات ملاحظة في الطبيعة. والرياضيون بشكل طبيعي، كانوا يعمدون إلى التفكير بأنها " أي شيء تسبب في أن العضوية وأصولها قد أنتجت ذراري أكثر من قدرة الكائنات الأخرى المطابقة المنافسة والتي هي من نفس النوع". فهي لايمكن أن تخرج عن إطار النوع .

لا يمكن الاستناد إلى المبادئ الرياضية النظرية فحسب في دراسة أية ظاهرة طبيعية وخصوصا انتقال الصفات الوراثية بين أفراد النوع. إن الملاحظة العلمية تقتضي المتابعة الإحصائية الدقيقة من خلال مراقبة ظهور الصفات الجديدة في النوع وليس الحساب النظري لاحتمال ظهورها كما يفعل غالبا أنصار التطور. فالظن والتكهن لا يمكن أن يفيدا الحقيقة شيئا ذا بال.

يكتب باترسون "يمكن لهذه الفرضية أن تقدم على شكل منطقية استدلالية بمعنى: 1- جميع العضويات يجب أن تتكاثر. 2- جميع العضويات تقدم تنوعا وراثيا. 3- التنوع الوراثي يختلف في تأثيره على التكاثر. 4- وبالتالي فإن التنوع الذي يملك تأثيرا مفضلا على التكاثر هو الذي سوف يحقق النجاح. وأولئك الذين لا يملكون التأثير المفضل سوف يخفقون، وبهذا الشكل فإن العضوية ستتغير".

إن ما يلفت باترسون النظر إليه، هو أن النظرية تؤسس لفكرة أن بعض أشكال الاصطفاء الطبيعي سوف تحدث ، و لكنه لا يقصد بالأمر التوسع في الشرح، والتعميم إلى حدوث تطور. ففي الواقع فإن النظرية لا تؤسس لمفهوم التحول في العضوية. إن المدى الذي يمثله التنوع الوراثي قد يكون ضيقا، وإن التنوع الذي سينجح في البقاء، من الممكن أن يكون في جهة الإبقاء في صفات النوع على ما هي عليه. و من الممكن للنوع أن يتبدل بمقدار أكبر (في اتجاه الانقراض اللاحق) فيما إذا كانت الكائنات الأقل صلاحية هي التي قد نجحت في تكثير أفرادها. وفي كل الأحوال نحن نتكلم عن جمهرة وراثية موجودة في الأصل وهذا لن يتسبب مطلقا في استحداث أي نوع جديد. فالنوع سيبقى مستقرا ثابتا.

إن الصفة السائدة في أنواع المستحاثات هي صفة الثباتية بمعنى غياب التغيير. هنالك أعداد هائلة من "المستحاثات الحية" وهي تبدو تماما في هذه الأيام كما كانت عليه منذ ملايين السنين، وفقا لما يمكننا أن نقرره. إن كل ما تم التطرق إليه يمكن احتواؤه ضمن إطار الجمهرة الوراثية للنوع وهذا النقاش يستثني ظهور أية طفرة جديدة. فما يتم الحديث عنه لايزال لم يتعد الصفات داخل النوع الواحد وبالتالي لاشيء البتة يفيد التطور المزعوم بعد.

الاصطفاء الطبيعي كفرضية علمية:

الاصطفاء: هو المصطلح الذي يعني القيام بالاختيار، أو القرار. ويشمل مرادفات كالانتقاء، والاختيار، والتفضيل وفق عملية غير عاقلة. بهذا المعنى: فالنهر يسلك دون أن يختار مثلا اتباع الطريق الأقل مقاومة. و أيونات الصوديوم والكلوريد ليس لها إلا خيار تشكيل بللورات الملح. البنزين، والأكسجين، وشرارة خيارها بنفسها أن تنفجر. والمصفاة لا خيار أمامها بالاحتفاظ بالعناصر الشعرية. فمصطلح "الاصطفاء الطبيعي" هو الردف الخلفي للتطور، واستخدامه على نطاق واسع يسهم في الارتباك السائد الذي هو من سمات هذا الموضوع.

لم تحقق تلك الأشكال من الجدليات أي انطباع إيجابي عند بيير غريس. وقد لخص استنتاجاته في نهاية الفصل المتعلق بالتطور والاصطفاء الطبيعي على النحو التالي: " (التطور في الميدان) وفقا لكل من ج. هكسلي والبيولوجيين الآخرين، هو ببساطة يمثل ملاحظة للحقائق الديموغرافية، التقلبات الموضعية للنماذج الجينية، التوزعات الجغرافية. وعادة ما تبقى الأنواع المعنية غير متغيرة على الخصوص لمئات من القرون! فالتقلبات الناجمة عن الظروف، مع التعديلات المسبقة على الجينوم، لا تثبت التطور، ولدينا الدليل المادي في الكثير من الأنواع القديمة الباقية كما هي دون تبدل (مثال الأشكال المستحاثية التي بقيت كما هي لملايين السنين)...".

تبدو تلك النتيجة صادمة و صحيحة بشكل لا لبس فيه بحيث تستدعي مشكلة جديدة. فلماذا يعتقد الأشخاص الآخرون بمن فيهم الخبراء الذين نحترم ذكاءهم وسلامة تفكيرهم، أن الشواهد التي تشير إلى التقلبات في

المجتمعات المحلية تثبت فرضية كون الاصطفاء الطبيعي لديه القدرة على أن يهندس المعجزات، وأن يبني الأعاجيب مثل العين والجناح؟

كل من درس التطور يعلم أن تجربة فراشة العث كيتلويل تمثل توضيحا تقليديا لقوة الاصطفاء الطبيعي، وأنه كان على الدارونيين أن ينتظروا ما يقارب القرن لكي يروا ذلك التأكيد الخجول لمعتقدهم الرئيسي. لكن كل من درس التجربة يعلم أيضا أنها لا علاقة لها من قريب أو بعيد بنشأة الأنواع، أو حتى التنوع فيها. لأن الفراشات السمراء والبيضاء كانتا بالأصل موجودتين خلال كامل التجربة. وما تغير هو نسبة إحداهما إلى الأخرى. كيف يمكن لأشخاص أذكياء أن يصبحوا من السذاجة بحيث يتخيلون أن تجربة كيتلويل يمكنها بأي شكل من الأشكال، أن تدعم الادعاءات الطموحة للدارونيين. (عمل التطور الميداني).

الاصطفاء الطبيعي ضرورة فلسفية:

أبلغت الأكاديمية الوطنية للعلوم في أمريكا المحكمة العليا أن الصفة الأساسية الأولى للعلم هي ضرورة " استناده إلى توصيفات طبيعية"،وذلك بعكس " المفاهيم الإعجازية غير المتاحة للفهم الإنساني ". من خلال ذلك ، فإن العلماء المعاصرين يضعون أية قدرة حيوية خارقة، ليست بالمادية، تستهدف دفع الكائنات باتجاه تعقيد أكبر، إدراك أفضل ، أو ما شابه، ضمن تصنيف (المستثنى) غير المقبول . و إذا كان للعلم أن يقدم أي شرح للتعقيد البيولوجي بالمطلق، فعليه أن يقدم ذلك من خلال ما تبقى بعد أن حيّد المستثنيات. يعتبر الاصطفاء الطبيعي الشكل الأكثر تميزا بين البدائل الباقية وربما البديل الوحيد المتبقي.

في مثل هذه الحالة فإنه يمكن للبعض أن يقرر أن الدارونية ببساطة لابد أن تكون صادقة. ولمثل هؤلاء الأشخاص فإن الهدف من أي استقصاء جديد سيكون فقط شرح آلية عمل الاصطفاء الطبيعي، وأن يتم حل الإشكاليات الناجمة عن القليل من المخالفات في بعض الظواهر الطبيعية للفرضية التطورية. وبالنسبة لهؤلاء فلا حاجة لاختبار الفرضية عينها، حيث لا يوجد أي بديل جيد يمكن اختبارها ضده. وإن أي شخص يقول بأن الفرضية نفسها لا تحمل مصداقية بما يكفي، يمكن إفحامه بالقول " إن تابع دارون الأمين" تي. إتش. هاكسلي اعتاد أن يسأل المتشككين في أيام دارون ما هو البديل الذي تملكه؟

لكن السؤال الملح هو ماهي حدود عمل الاصطفاء الطبيعي حقيقة؟

الجواب هو أن الاصطفاء إن كان له أن يعمل فهو سيعمل إما على التنوع على المورثات في الجمهرة الوراثية الواحدة وهذا ما نجده في عمليات التهجين. وهكذا تبقى الصفات الجديدة الظاهرة في إطار النوع الواحد بحيث لا تتطور البتة إلى أي نوع جديد. أو أن يعمل هذا الاصطفاء على الطفرات، وهنا نحن نتكلم عن أمر افتراضي لم يثبت علميا. فالطفرة الجيدة تعني تخلق مورثة جديدة. وهذا مالم يثبت علميا. لا طفرة جديدة ثبت تخلقها تجريبيا أو من خلال الملاحظة في الطبيعة. وكل ما تكلم عنه العلم في عالم المورثات هو مجرد تشوهات و أذيات. فالموضوع هو غياب تخلق مورثة جديدة بمعنى غياب وجود أي طفرة حقيقية. فأمر عمل الاصطفاء الطبيعي على مستوى الطفرات يبقى مجرد أمر افتراضي تكهني وليس حقيقة علمية.

من الواضح إذن أن هناك قسر فكري وإغلاق متعمد لكل الآراء والاعتقادات وحتى وجهات النظر المغايرة للتطور، بهدف تفريد التطور كمبدأ وحيد يمثل الشرح العلمي لنشوء الكون والحياة ومآلهما. بمعنى آخر، ومن خلال تبسيط الموضوع إلى منطقية يكون التحليل كما يلي:

المعجزات والقدرات الخارقة لا تمثل تفسيرا ماديا طبيعيا – الاصطفاء الطبيعي هو الوحيد الذي يقدم التفسير المادي الطبيعي ------> يتم اعتماد الاصطفاء الطبيعي في التفسير العلمي للنشوء والارتقاء ويلغى ما سواه.

لقد وجدنا أن علماء متميزين قد قبلوا من دون أي انتقاد المقارنة و "التشبيه" (المثير للتساؤل!!) بين الاصطفاء الطبيعي والاصطفاء الاصطناعي. وهم أنفسهم اعتادوا ألا يبدوا أي انزعاج من الخداع المتعلق " بتكرار المعنى" و تطبيقات " المنطق الاستدلالي" المذكورين آنفا. إن مثل تلك اللامعقولات استطاعت أن تبقى وتثمر. من الواضح في تأويلاتهم أن الاستناد إلى مثل تلك الأباطيل قد برر ولنفس الأسباب المزعومة التي قدموها، تفسير ظواهر أخرى والتي قدر فيها للأنواع التي لا تقوى على المنافسة من الكائنات، أن تتجنب الانقراض، حيث فسر هؤلاء العلماء أنفسهم السبب في عدم انقراضها، بأنه لا يوجد منافس مؤهل يجلس في محيطها البيئي.

لقد طور الدارونيون نظاما مرنا مطاطا ذو قدرة مساعدة قادرا تقريبا على تقديم شرح مقبول ظاهريا، لأي احتمال نقدي يمكن تصوره. فعلى سبيل المثال، إن المستحاثات الحية، والتي من المفترض أنها بقيت دون أن تتغير لملايين من السنين لا تمثل لدى الدارونيين أي إشكال، في الوقت الذي زعموا فيه أن أبناء عمومتها

تطورت باتجاه مخلوقات أكثر تقدما مثل البشر. فتلك الكائنات قد أخفقت في تطورها لأن الطفرات الضرورية لم تأت إليها ، أو أن السبب ربما يعود " لمعوقات تنموية"، أو أنه بسبب أنها تكيفت تماما بشكل ملائم مع بيئتها. وبالمختصر لم تتطور تلك الكائنات لأنها لم ترد أن تتطور.

مثال على منهجهم ذاك المناور هو : أن بعض الحيوانات تبدي تنبيهات تحذيرية عند قدوم المفترسات، فهي من الواضح أنها تضحي بأمنها الشخصي في سبيل الآخرين في القطيع. كيف يمكن للاصطفاء الطبيعي ذو صفة الأنانية أن يشجع تطور ظاهرة كتلك (التضحية بالنفس) على حين أن الاصطفاء الطبيعي والتطور يعملان بشكل أناني وكقانون أساسي بهدف البقاء للأفضل؟

يعزو الداروينيون تلك المفارقة الواضحة إلى مصطلح جديد هو (الاصطفاء الجماعي). فمن خلال التضحية بالنفس وذلك للحفاظ على الذرية أو الأقارب، فإن الكائن سيتيح مجالا لبقاء مورثاته. ومن خلال تحويل التوجه فيما يتعلق بالاصطفاء إما بشكل صاعد (إلى مستوى المجموعة) أو هابط (إلى مستوى المورثة)، فمن الممكن للداروينيين بسهولة أن يحسبوا حساب الصفة التي تتناقض مع فرضية الاصطفاء في مستوى الكائن الفرد.

لكن سؤالا مهما يجب الإجابة عليه عند هذه النقطة وهو، كيف تسنى لهذا الاصطفاء الجماعي أن ينقلب مورثة على المستوى الجيني تعمل للحفاظ عليه، مع علمنا أن المورثات الفردية هي مورثات أنانية تنتقي الاصطفاء الطبيعي لمصلحتها؟ يجب الأخذ بالاعتبار أن كل ذلك قد تم بواسطة تلك العشوائية المزعومة وفق قوى طبيعية غير موجهة.

من الواضح أن التفكير التطوري يحمل ازدواجية ساطعة في المعايير لا يمكن لمتتبع تجاهلها أو إغفالها. إنه في حقيقة الأمر يلجأ إلى إيجاد المبررات فقط، لكنه يفتقد إلى المصداقية سواء كانت علمية أو بالأحرى أدبية أخلاقية.

إذا كان الأمر لا يتعدى اصطفاء طبيعيا وعشواء كما يزعم أنصار التطور فإن الكائنات الحية غير العاقلة أو الواعية يستوجب عليها ألا تطلق أية صيحة تحذيرية لتنبه غيرها عند دنو الخطر. ويتوجب عليها ألا ترضع أو تطعم صغارها عندما تجوع وتتركها لتموت لأن ذلك كله يتجاوز حدود قدرة العبث والفوضى

التي ينطلق منها أنصار التطور، والتي يستحيل أن تبرر نزعة إعارة الاهتمام بالكائن الآخر من نفس النوع. تلك النزعة التي لا يمكن أن تتأتى إلا عن معجزة هي في وصفها غريزة قد زرعتها قدرة واعية خالقة في نفس تلك المخلوقات، لتؤدي دورها التي خلقت من أجله. لقد فصل الله تعالى لنا تلك الظاهرة في القرآن الكريم في الآية الكريمة " وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء" . فكونها أمم يستوجب وجود روابط وعلاقات محكمة بين أفرادها صنعت من لدن عليم قدير.

إن مثل أنصار التطور في تعليلاتهم التي يقدمونها (الاصطفاء الجماعي) كمثل الملك الذي حاج إبراهيم في ربه. قال تعالى " ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين" البقرة (258).

إن إحياء الله للمخلوقات هو إيجاد من عدم وإعادة حياة إلى نفس ميتة أما ما زعمه ذلك المدعي فهي قدرته بما مُكّن فيه، من هدر دم أحدهم أو الصفح عنه. وهذا التبرير الذي قدمه مثله مثل تبرير (الاصطفاء الجماعي) لا يتعدى حدود السفسطة التي لا ترقى إلى مستوى الرد العلمي.

إذا افترضنا أن الداروانية هي من حيث المبدأ صادقة، فإنه من المعقول بشكل عام أن يجري تعديل الفرضية وفق الضرورة بحيث تتطابق مع الحقائق الواقعية المشاهدة. لكن المشكلة تقبع في أن أنظمة التعديل في هذه النظرية هي مرنة بشكل يتجاوز الحد، بحيث أنه من خلال ترافق استخدامها مع النظرية، يصبح من الصعب تصور طريقة ما يمكن من خلالها اختبار المزاعم الداروانية باستخدام أية تجربة مهما كانت، وذلك نظرا لكثرة التعديلات والتغييرات التي طرأت وتطرأ عليها، هذا إذا استثنينا أن القضية برمتها هي مجرد مناورة وموارية.

في العبارة التي شرح فيها القاضي جونسون فهم دارون لآلية الاصطفاء الطبيعي والتي أصبحت تمثل نموذجا لإدراك أنصار التطور للطريقة التي يحدث التطور من خلالها "إن العضويات الحية عادة ما تنتج ذرية كبيرة أكير عددا من التي تستطيع الوصول إلى فترة البلوغ. وتلك الذرية التي تكتسب الفرصة تلك،

هي أيضا ستقوم بإنتاج ذرية أخرى منها، في حين أن بقية الأمور تبقى متعادلة لدى تلك التي لم يحالفها الحظ. ومن خلال استمرار تلك العملية التي ينجو فيها بعض أفراد النوع الواحد بواسطة الاصطفاء التفريقي، فإن صفة ما محددة سوف تنتشر في ذلك النوع، ويمكن أن تصبح الأساس في حدوث تحسينات تراكمية إضافية في الأجيال اللاحقة."

من الواضح أن دارون ينسب كل ذلك لآلية عشوائية لا تستند إلى أي صفة غائية أو هدف محدد.

هنالك قضيتين اثنتين تستحقان النقاش في هذا الفهم الداروينى: الأولى هي في عملية إنتاج الذرية وظهور صفة محبذة واكتسابها من قبل معظم أفراد النوع في الأجيال اللاحقة. لا مانع هنا، من استخدام مصطلح إحصائي وهو مصطلح التوزيع القياسي. فكما هو معلوم في الجمهرة الإحصائية القياسية، فإن الجمهرة تتميز في توزيعها بنموذج أقرب إلى النموذج الجرسي. هذا النموذج ينطبق على جميع الجمهرات ذات الصفة القياسية. وإذا ما تم تقسيم المجتمع الكلي إلى مجموعات أصغر، فإن كل مجموعة ستحقق النموذج ذو الشكل الجرسي، الذي في شكله يشابه كثيرا النموذج الأصلي للمجتمع، مع اختلاف بسيط قد ينجم عن انحراف في المتوسط وفي توزع أفراد العينة الواحدة حول المتوسط. إن صفة معينة في مجتمع معين لابد أن تطابق في توزعها الشكل الجرسي. وفي زمرة معينة من المجتمع، يمكن لهذه الصفة أن تتكاثر بطريقة تصبح فيها الصفة الغالبة. وربما استأثرت تلك الصفة لاحقا بأفراد المجتمع ككل فغلبت تلك الصفة. وليكن المثال هنا هو مثال أطوال البشر. فمتوسط الطول عند المجتمع البشري ككل يقارب ال 170سم عند الذكور و 155 سم عند الإناث. لكن نلاحظ عند تقسيم المجتمعات البشرية إلى أقاليم، أن متوسط الطول يرتفع مثلا لدى الدول الاسكندنافية ليصل عند الذكور إلى 185 سم وعند الإناث إلى 170سم. أما في الصين فيكون 165 سم عند الذكور و 150 سم عند الإناث. إذن قد يحدث انزياح في متوسط الطول بين أفراد المجتمعات المختلفة، لكن ذلك لن يؤدي إلى تقويض القانون الأصلي. فزيادة الطول قد لا تكون في النوع البشري مزية عندما يقارب هذا الطول العملقة، بنفس القدر الذي يكون فيه القصر الزائد الذي يجاور القزمنة مضرا. ولذلك تبقى الوسطية هي المزية الأكثر أولوية والتي نلاحظ أن معظم أفراد العينة البشرية تكون مجاورة لها. ما يعنيه هذا الكلام بيولوجيا هو أنه وخلافا لما اعتقده دارون من انزياح في الجمهرة الإحصائية باتجاه

أحد طرفيها، فإن العودة إلى المظاهر الطبيعية تشير إلى أن الجمهرة الإحصائية في مجملها تحاول دائما أن تتمركز حول الوسط. وهذا يؤكد مفهوم النزعة المركزية و الثباتية في أفراد النوع بدلا من الانزياح الذي يعتقده دارون. هذه هي النقطة الأولى.

أما النقطة الثانية والتي يزعم دارون أنها السبب في تشكل النوع الجديد، فهي أن تلك الصفة الجديدة ولتكن فرط الطول في مثالنا هذا، هي التي ستغلب على الأطوال المتوسطة، بمعنى الوصول إلى العملقة. لكن تلك العملقة قد تترافق مع أمراض كثيرة وراثية أخرى تكون سببا في أن تعيد الكرة إلى الوسط.

وعلى أية حال، فإن تلك الصفات الظاهرة هي كلها بالأصل، موجودة كمورثات حقيقية في جمهرة النوع كما هو واضح في مثالنا، ولكن ربما بأعداد محدودة وليست غالبة. فإذا ما حصل أنها أصبحت الغالبة فإن هذا لا يعني ظهور صفة جديدة لم تكن أصلا موجودة. وإنما هو في كل الأحوال انزياح في الصفات. وعلى هذا، فإن تلك الصفة التي ستصبح سائدة في ذلك النوع هي في الحقيقة صفة أصيلة في النوع نفسه، وسوف لن تؤدي إلى إحداث أي شكل من أشكال التغير باتجاه نوع جديد، مثلما أخطأ دارون في فهمه للأمر. من الممكن أن نفهم لماذا أخطأ دارون في حينه. فهو لم يكن على معرفة بالمورثات والوراثة، فظن أن ظهور صفة ما مقهورة أو متنحية، هو بمثابة صفة جديدة طارئة على النوع. وعلى هذا أسس لمبدأ أن الأنواع غير ثابتة فأخطأ في ذلك. لكن اللوم الحقيقي في هذه النقطة بالذات سيكون على الدارونيين الجدد، الذين أدركوا حقيقة المورثات والوراثة والصفات القاهرة والمقهورة والمتنحية، ولازالوا يتمسكون بمبدأ عدم ثباتية الأنواع .

عدم ثباتية النوع الذي لا يزال الدارونيون الجدد يتبنونه، يقتضي حتمية تخلق مورثات جديدة بشكل متكرر ومستمر وفي كل الأنواع الحية. المشكلة أن تخلق مورثة جديدة عفويا هو أمر مستحيل تماما. والسبب واضح جلي. فعند الكلام عن مورثة، نحن نتكلم عن معلومات دقيقة سوف تكسب العضوية الحية صفة ظاهرة إيجابية، تستفيد منها تلك العضوية باستخدامها بشكل متناغم مع بقية الصفات الظاهرة الأخرى. إن القول بأن آلية ما عشوائية أو عفوية تقدم ملايين من التشوهات في المورثات وتحقق بالمصادفة صفة إيجابية، تسمى (طفرة) هي من الاستحالة بقدر استحالة تحقق الحلم لدى طالب كسول يحلم بأن يصبح طبيبا.

فالعشوائية تتناقض تناقضا كليا مع تكوين المعلومات التنظيمية. التنظيم لابد له من تصميم ذكي عاقل كي يحدثه، وبغير ذلك لا يمكن أن يحدث. لقد تكلم العديد من العلماء ذوي الوزن العلمي والاجتماعي في هذا الموضوع، فقال أحدهم أن تكون الحياة وتنوع الأحياء بواسطة العشواء كما يزعم أنصار التطور هو بمثابة تشكل طائرة بيوينغ تلقائيا من تجمع بقايا الخردة في مستودع للخردة. والحقيقة هي أن ما نراه من تنوع في أشكال الحياة المختلفة هو أعقد من المثال السابق بما لا يحصى من تقدير. لقد افترض دارون عدم الثباتية في الأنواع فقط بسبب توهمه بأن الصفات المتنحية هي صفات جديدة في النوع. لكن لاحظ دارون كما لاحظ غيره أنه عقب إجراءات التهجين وظهور الصفات المتنحية "(و الجديدة) كما فهمها دارون" ، فإن الأنواع المختلفة عندما تترك لتتزاوج وحدها دون توجيه تعود أدراجها إلى صفاتها السائدة البرية التي كانت تملكها قبل التهجين (النزعة المركزية). لقد لاحظ دارون ذلك في الطيور وكان الأحرى به أن يجد تفسيرا لتلك الظاهرة. أليست تلك الظاهرة تمثل دليلاً واضحا على ثباتية النوع؟

إذا ما استخدمنا هذا التطور الداروينى المزعوم كمثال في إطار النوع الواحد و أخذنا مثالا على ذلك أفراد البشر، فهم جميعا قد جاءوا من أصل مشترك أو سلف واحد، يتفق في ذلك المؤمنون بالخلق وأنصار التطور، وإن اختلفوا في التفاصيل. فإذا ما قمنا بدراسة على الصفات الشكلية المختلفة للعروق المختلفة، وجدنا أن هنالك سحنات مختلفة تماما شكليا بين تلك العروق. فالعرق الأصفر يميل نسبيا للقصر. سحنته حنطية و لون شعره أسود وطبيعته ملساء عادة. أنفه مفلطح قليلا، وعيناه ذات توضع خاص وغالبا ما يكون لون البؤبؤ داكنا. أما العرق الأبيض، فهو يميل لطول القامة سحنته بيضاء ولون شعره مائل للشقار وطبيعته منها الملساء أوالمجعدة قليلا. أنفه أقنى ودقيق وشفتاه كذلك، أما لون عينيه فهي عادة فاتحة. والعرق الزنجي يتميز بقوام طويل وبعضلات مفتولة اللون داكن جدا والشعر غالبا أجعد وأسود بينما الأنف والشفتين مفلطحين ولون العيون داكنة جدا. هذه العروق الثلاث، قد كانت في يوم ما ذات أصل مشترك واحد ثم انفصلت. إن هذا يمثل مجمل ما طرأ على الإنسان المعاصر من تبدل منذ أن وجد ولغاية هذا اليوم. فهذا الإنسان قد بقي إنسانا ولم ينقلب كائنا جديدا. والاختلافات أو التغيرات التي طرأت عليه لا تتعدى كونها صفات سطحية بسيطة لا تمهد ولا تفضي إلى تغير النوع. تلك الصفات محمولة على مورثات في مستوى

الدنا. وهي كانت أصلا موجودة في السلف المشترك للعروق الثلاثة المذكورة آنفا. ولكن بعد حدوث الانفصال في العرق والابتعاد الزماني والمكاني والتزاوج بين الأقارب كل بشكل منفصل عن الآخر، ظهرت تلك الصفات المختفية والمتنحية وافترقت الأعراق. لكن بقي البشر بشرا وهم لا يزالون يتزاوجون بين بعضهم وينجبون الأجيال دون أي تغير أو انفصال.

أما أن يحصل افتراق في النوع، فهذا أمر لا دليل عليه. وهذا يقودنا إلى القضية الثانية التي يناقشها دارون وهي (أن العملية التطورية يمكن أن تمتد لتشمل جميع أشكال الحياة المختلفة). إن المثال المتعلق بالبشر هو مثال ينطبق على جميع المخلوقات من غير استثناء. فكل المخلوقات إذا ما افترقت زمانا ومكانا وتزاوجت الأفراد الأقرب من بعضها ظهرت الصفات المتنحية والمقهورة التي كانت مختفية من الجمهرة الوراثية على شكل عروق أو ألوان. لكن ما يجب التأكيد عليه هو بقاء النوع و ثباتيته والدليل على ذلك هو عودة الصفات الأصل الشائعة من جديد عند عودة المخلوقات للتزاوج المشترك بينها، كما دلت على ذلك التجارب على الحيوانات المختلفة.

إن التوضيح الذي قدمه القاضي جونسون في شرحه للتطور نقلا عن أنصار التطور يمكن إعادة صياغته بعد تعديله على الشكل التالي : إن الدارونية والتطور لا تتعدى في حدودها القصوى في التفسير، حدود التنوع الوراثي الناجم عن المورثات الموجودة أصلا في الجمهرة الوراثية للنوع الواحد. وهي إن استطاعت أن تفسر شيئا ، فإن بمقدورها أن تفسر لنا التنوع في العروق والألوان بعد فصل كلمة (تطور) عنها، لكنها لا تستطيع وليس بمقدورها أن تفسر لنا وجود الأنواع المختلفة من المخلوقات. فأشكال الحياة المختلفة لم تأت بها العملية التطورية المزعومة وإنما جاءت بها يد الصانع الحكيم بواسطة التصميم الذكي (الخلق المقتدر).

وعلى هذا الأساس يمكن أن ننتقل إلى القضية الثالثة والتي هي الأكثر تمييزا للدارونية, وهي أن العملية التطورية برمتها قد وجهت بواسطة "الاصطفاء الطبيعي".

إن عمل الاصطفاء الطبيعي يصبح بناء على ما سبق، متمثلا فقط بكيفية اختيار القرين لقرينه أثناء التزاوج. إن مثل هذا الاختيار لا يحتاج إلى تعابير مبالغ فيها مثل الاصطفاء الطبيعي والبقاء للأفضل، كالتي قدمها

دارون وتبناها أنصار التطور. فما أسماه دارون (الاصطفاء الطبيعي) يبقى دوره قاصرا على، و لا يتعدى حدود الغريزة عند الكائنات الحية المختلفة، مقابل اختيار الزوج لزوجته في مشروع الزواج لدى المخلوق الوحيد العاقل وهو الإنسان. من البديهي أن اختيار الزوجة عند البشر أو فعل الغريزة عند الحيوان سوف لن يتطلب أو يحتاج إلى تلك الخلافات المستعرة والخصامات التي لا نهاية لها بين أنصار التصميم الذكي وأنصار التطور. فالموضوع كما هو بين، أقل شأنا من أن يتسبب في حدوث تلك النزاعات التي عاشتها البشرية ما يقرب من مائتي عام بذلت فيها كل جهة ما لا طائل له من جهد ووقت، كان أحرى به لو أنفق في مجالات البحث العلمي الحقيقي لحقق إنجازات علمية مثمرة. فكل ما أفضى إليه هذا الاصطفاء الطبيعي هو تنوع الصفات الظاهرة الشكلية في إطار النوع الواحد.

كتب القاضي جونسون "فمن الواضح أن علامات سوء التكيف أثناء التطور يمكن أن تعزى وفقا لتلك النظرية، إلى التقاعس أو عدم القدرة على الاستفادة من الفرصة التي من الممكن أن تكون موجودة متاحة، و عندما تخفق جميع الحجج فإنها ستعزى ببساطة " للصدفة".

لقد كتب دارون التالي " إذا أمكن أن يبرهن على أن أي جزء من البنية الخاصة بأي نوع من الكائنات قد تم تشكيله حصرا بهدف تحقيق الفائدة لنوع آخر , فإن ذلك سيبطل فرضيتي."

إن من تكلم بهذه الجملة هو نفس دارون الذي أكد بأنه لم يدع مرة بأن الاصطفاء الطبيعي هو الآلية الحصرية للتطور".

في كثير من الأحيان فإن المتابع لدارون يكتشف عدم جديته في طروحه وتهربه من تقديم طرح متكامل نهائي، وهذا ربما يفسر من خلال خلفيته الثقافية والتعليمية التي تميزت باللامبالاة و بإخفاقات متتابعة وتبديل وتغيير في الدراسات الجامعية مع عدم إتمام العديد منها كما أشار هو بنفسه إلى ذلك، مما يجعله مترددا وغير واثق من معلوماته. فهو هنا يعتبر الاصطفاء الطبيعي هو الآلية الرئيسية لإحداث التطور ثم ينسل ويقول أنه ليس الآلية الحصرية. من الواضح أنه غير متأكد أو واثق من طرحه في عمل الاصطفاء الطبيعي ودوره الحقيقي، لذلك يتراجع عن الجزم بآلية عمله. هذا بخلاف نظرائه من العلماء الذين عاصروه. فقد كانوا أكثر جزما وأكثر دقة. على حين أن تردده المستمر يدل على وضوح نقص في

التحصيل العلمي يجعله دائما غير متأكد من معطياته. وهذا يجعل القارئ المهتم بتبرع بنفسه بتقديم حلول للعديد من جدلياته الناقصة، كما فعل العديد من الباحثين من أنصار التطور وغيرهم من تقديم تفسيرات واقتراحات وإضافات لدعم أو تفسير ما يعتقدون أنه قصده. بالطبع فإن مثل ذلك الغموض في طروحاته يباعد بين آرائه وبين المنهج العلمي القويم.

فإذا لم يكن الاصطفاء الطبيعي في الفقرة السابقة هو الآلية الحصرية للتطور بالرغم من أنه الآلية الأكثر حدوثا كما أكد دارون، فالسؤال المطروح هو أية آلية أخرى بعد استثناء الاصطفاء الطبيعي ستحل محله في إحداث التطور؟

كما هو معلوم فإن الاصطفاء الطبيعي يشترط العشوائية والعبثية دون أية غاية في الطفرات. ثم تأتي العوامل البيئية الظرفية ليتحقق مبدأ الاصطفاء. لا بد أن تقع الإجابة على السؤال السابق ضمن واحد من التصنيفين التاليين:

1- طفرات عفوية مع غياب الاصطفاء الطبيعي: وفي مثل هذه الحالة فالكائنات التي ستخرج للحياة كما تزعم فرضية التطور ستكون أدنى وأقل قدرة على التلاؤم من الكائنات التي ستأتي بفعل الاصطفاء. وهي سوف تكافئ في فرص بقائها تلك الكائنات الدنيا التي نشأت عنها أو أنها ستكون أقل منها شأنا. لكنها بالتأكيد لن تكون (وكل ذلك وفقا للتطور الداروني) أفضل شأنا من أسلافها التي نشأت عنها. كل ذلك لأن الاصطفاء الطبيعي لن يكون متوفرا لكي يستفيد من أية مزايا إيجابية عفوية ربما تفوق مزايا الكائنات الأم. وعليه فإن تلك المزايا ستكون معدومة الأهمية وفاقدة القيمة حين غياب الاصطفاء. وفي هذه الحالة فإن مصير تلك الكائنات سيؤول للانقراض شأنها في ذلك شأن الكائنات الحية السلف لهذه الكائنات. فالنتيجة النهائية لتلك الفرضية هي بقاؤنا في نفس مربع الكائنات السلف دون حدوث أي شكل من أشكال التطور على الإطلاق. هذا يعني منطقيا أن زعم الطفرات العفوية بغياب الاصطفاء هو زعم فاسد وسوف لن يؤدي إلى أية نتيجة فعلية إيجابية على الإطلاق وفق مزاعم التطور.

2- طفرات غير عفوية مع غياب وجود اصطفاء طبيعي: عندما تكون الطفرات غير عفوية، فلابد من وجود آلية ما ذكية هي التي أحدثت تلك الطفرات (غير العفوية) وإلا لكانت عفوية. فهي إذن طفرات موجهة أو بالأحرى استحداثات جديدة مبرمجة بمعلومات على مستوى المورثات تمثل أنظمة كودات جديدة لمورثات جديدة غير تلك التي كانت أصلا موجودة في السلف. فهي إذن لا تمثل (طفرات) في حقيقة الأمر. لأن تعريف الطفرات هو تعريف داروينى ويزعم حدوثها وفق آليات غير موجهة في التحول على مستوى المورثات. فالتحولات الجديدة غير الطفرية هي بالتالي ابتكارات وراثية ، لا يمكن أن تكون إلا من خلال مصمم ذكي.

ومع فساد التصنيف الأول وهو وجود الطفرات العفوية مع غياب الاصطفاء الطبيعي، يبقى أمامنا التصنيف الوحيد الممكن وهو التصنيف الثاني والذي يستدعي وجود تصميم ذكي هو الذي يقوم باستحداث تعديلات على المورثات. فدارون هنا ومن خلال جملته أعلاه التي لم ينكر فيها إمكانية التطور بدون آلية الاصطفاء الطبيعي، يؤكد لنا وإن لم يقر بذلك، أن البديل لابد أن يكون التصميم الذكي، وذلك نظرا لغياب أية آلية أخرى بديلة غير موجهة مهما كانت، بمقدورها أن تتسبب في حدوث التطور المزعوم. وعلى العموم فإننا نرى دائما أن جميع ظواهر التكيف في الكائنات الحية التي قد تترافق بتعديلات محدودة على مستوى المورثات هي تعديلات منضبطة ودقيقة وموجهة كونها تحدث وفق آلية اصطفائية اختزالية وليست عفوية، فهي بالضرورة مصممة تصميما ذكيا. وعلى هذا فربما كان هذا ما عناه دارون في جدليته السابقة حين نفى أن يكون الاصطفاء الطبيعي يمثل الآلية الحصرية للتطور. لكن ما هي نسبة عمل كل من الآليتين الاصطفاء الطبيعي أو الاصطفاء الاختزالي مقارنة ببعضهما على الصعيد الميداني؟

هذه الظاهرة هي ظاهرة قابلة للملاحظة العيانية وهي تقع مباشرة تحت مظلة العلم. وإذا ما تمعنا بدقة وبتدقيق علمي بكل الظواهر الطبيعية التكيفية التي نسبت في تكونها إلى الاصطفاء الطبيعي لوجدنا أن تلك الظواهر بمجملها وبدون استثناء تتفق على تميزها بالاختزالية الاصطفائية بمعنى أنها لم تحدث مرة واحدة بصورة عفوية وإنما وفق آلية انتقائية موجهة. الأمثلة على ذلك كثيرة لكن نضرب مثالا للتوضيح

هو تشكل المقاومة للصادات الحيوية لدى بعض أنواع الباكتيريا. فلكي يكون الأمر اصطفاء طبيعيا لابد من حدوث طفرات عديدة يختار من بينها الاصطفاء الطبيعي وفق آلية عفوية ما هو أصلح. مانراه على مستوى الباكتيريا هو تبدل محدد ووحيد في نوع معين من الجراثيم وفي موقع معين على مستوى الحمض النووي تسبب في حدوث تعديل على مستقبل محدد مما نجم عنه إعاقة اتحاد الصاد الحيوي المحدد بالمستقبل المحدد وبالتالي عجز الصاد الحيوي عن الاندخال إلى الخلية الجرثومية وتاليا حدوث المقاومة للصاد. فالعملية هنا تمت وفق آلية اصطفائية اختزالية، اصطفائية حيث اصطفت العملية نوعا محددا من بين جميع الأنواع المختلفة من الجراثيم لحصول التعديل. واختزالية كونها اختزلت من بين كل المواقع على الحمض النووي هذا الموقع المحدد وأحدثت فيه هذا التعديل النوعي المحدد وليس سواه. بما أن العملية اصطفائية اختزالية فهي تحتاج إلى مصمم ذكي لتصميمها بعكس الاصطفاء الطبيعي عفوي الحدوث. يستنتج مما سبق أن الاصطفاء الاختزالي الموجه من قبل المصمم الذكي في الطبيعة يستأثر ب 100% من ظواهر التكيف الطبيعية ولايبقى للاصطفاء الطبيعي إلا 0% من تلك الظواهر. بمعنى آخر فإن الاصطفاء الطبيعي لا يمكن إثباته أو الاستدلال عليه من خلال الظواهر الطبيعية العلمية. وعليه فهو مجرد افتراض وهمي .

إن تأكيد دارون بأن الاصطفاء الطبيعي ليس هو الآلية الحصرية للتطور. والبرهان العلمي على أن البديل الوحيد المتوفر الممكن بعد ذلك، لابد أن يكون التصميم الذكي، وفق آلية الاصطفاء الاختزالي وغيرها من الآليات الذكية يعني أن ما قاله دارون: " إذا أمكن أن يبرهن على أن أي جزء من البنية الخاصة بأي نوع من الكائنات قد تم تشكيله حصرا بهدف تحقيق الفائدة لنوع آخر , فإن ذلك سيبطل فرضيتي." هذا التعبير يقصد به دارون الغائية وهو أمر مؤكد. فإذا ما استثنينا مزاعم الداروينيين فيما زعموا تشكيله بواسطة الاصطفاء الطبيعي في أجزاء الكائنات، فهذا يستوجب أن كل ما لم يصنعه الاصطفاء الطبيعي من بنى خاصة في أي نوع من الكائنات لابد أنه قد تم تشكيله حصرا من خلال تصميم ذكي. وكونه قد تم بواسطة التصميم الذكي فهو لابد أنه يهدف إلى تحقيق الفائدة لنوع آخر، وهذا بالتالي يبطل فرضية دارون بالكلية. إن هذا المنهج يتطابق تمام التطابق مع ما نجده في الطبيعة ويتناغم معها بعكس ما هو عليه الحال في الطرح

التطوري: فلو أننا درسنا السلسلة الغذائية عند الحيوانات على سبيل المثال، لوجدنا أن هنالك ثلاثة أنواع من الحيوانات، الحيوانات النباتية التي تعتمد في غذائها كليا على النباتات. الحيوانات اللاحمة التي تعتمد كليا على اللحوم. وهنالك الحيوانات الآكلة لكل شيء. إن العشوائية في المزاعم التطورية تقتضي أن تكون النباتات قد تكونت بشكل ما بحيث لا يكون من الضروري للحيوانات النباتية أن تستفيد منها في غذائها. والسبب هو أنها أصلا قد تكونت بلا هدف وبلا أية فائدة مقصودة للنوع الآخر(كما زعم دارون). فالنباتات قد تشكلت عفويا كحدث عشوائي بلا غاية. هذا الكلام لا يتطابق مع الواقع. فبملاحظة الحيوانات النباتية نرى أن هذه النباتات تمثل الأساس الأول والوحيد في الراتب الغذائي لتلك الحيوانات، كما أنها تمثل الغذاء أيضا لكل من الفطور والجراثيم التي لا تستطيع الاستفادة مباشرة من عملية التركيب الضوئي. بالتالي وبعكس ما ذكره دارون فإن تلك النباتات لابد أنها قد تم تشكيلها بهدف تحقيق الفائدة لنوع آخر. لنا أن نتخيل أن تلك النباتات وبسبب تركيبتها الجينية قد تشكلت وفق آلية تجعل منها سامة وغير مناسبة لأية مخلوقات أخرى. النتيجة أن تلك المخلوقات سوف لن تستمر في الحياة لانعدام توفر الغذاء المناسب لها. ما ينطبق على النباتات ينطبق أيضا على الحيوانات النباتية التي تستخدمها الحيوانات اللاحمة كمصدر وحيد لغذائها، فهي إن لم تكن قد وجدت حصريا بقصد توفير الغذاء لها، فلابد أن تلك الحيوانات اللاحمة لن يتاح لها الوجود في هذا الكون. وبالخلاصة، فإن النباتات الخضراء قد وجدت خصيصا لتأمين الغذاء لغيرها من المخلوقات التي تقتات عليها كما أن الحيوانات النباتية قد وجدت خصيصا لتأمين الغذاء لغيرها من الحيوانات اللاحمة. وعليه فليس هنالك من شك أن كل شيء في هذا الكون قد وجد بقصد محدد ولغاية معينة، والمطلوب من الإنسان العاقل هو البحث في هذا القصد وتلك الغاية.

من خلال ذلك، فإن السؤال المهم والذي يستحق التحليل الدقيق: أي أعضاء في الكائنات الحية قد تم تشكلها كما زعم الداروينيون بواسطة الاصطفاء الطبيعي، وأيها قد تشكل بواسطة التصميم الذكي؟ و للإجابة على ذلك لابد من وضع قاعدة للتمييز حتى نستطيع من خلالها أن نحدد إلى أي موقع يمكن أن نصنف الأعضاء والأجزاء المختلفة. تزعم فرضية دارون في الاصطفاء الطبيعي أن العشوائية هي الأساس الذي لا يمكن أن يتخلى عنه كشرط في هذه الفرضية. فمن المقبول إذن أن نشترط أن كل عضو أو جزء في أية عضوية أو

كائن حي من وحيدات الخلايا إلى الإنسان، فائض أو لا وظيفة له أو غير فعال أو لا فائدة منه نهائيا هو من الأعضاء التي نشأت بواسطة التطور والاصطفاء الطبيعي. وبالمقابل فإن أي عضو مهما كان شكله أو حجمه يملك صفة وظيفية محددة أو فائدة أو أهمية للكائن الحي الذي هو جزء منه، أو للكائنات الحية الأخرى فإن هذا العضو يمثل عضوا ذو هدف وبالتالي فهو ناجم عن تصميم ذكي.

بعد إتمام الشروط ما علينا إلا أن نختار كائنا حيا ولنقم بإجراء تلك التجربة التي نزعم بأنها ذات صفة علمية ونرى كم من الأعضاء أو الأجزاء ستنطبق في خانة الاصطفاء الطبيعي وكم منها سينطبق في خانة التصميم الذكي. ليكن الإنسان مثالنا: فكما هو واضح، فإن الإنسان هو أكثر الكائنات الحية تعقيدا وذلك باعتراف كل من أنصار الخلق وأنصار التطور على حد سواء. فإذا ما أخذنا الصفات الشكلية الظاهرة ونظرنا في فائدتها، وبهدف تسهيل المهمة، نقول أن كل عضو مضاعف ذو تموضع متسق ومتماثل بين جانبي الجسم يمثل عضوا لا شك أنه نشأ عن تصميم ذكي، لأن التناسق لا يتماشى مع العشوائية أبدا. بهذا تكون القدم والساق والإليتين والصدر والكفين والذراعين والكتفين والخدين وفتحتي الأنف والعينين والحاجبين والجفنين والشفتين والصدغين وعظام الجمجمة كلها وما في محتوياتها ذات طبيعة متناظرة، فهي لأسباب تنسيقية فضلا عن كونها وظيفية لا يمكن أن تكون عشوائية المنشأ، وهي بالتالي ناجمة عن تصميم ذكي. ولو استعرضنا بقية الأعضاء غير المضاعفة المتبقية وقيمناها من خلال الوظائف الحيوية التي تؤديها والتي تدل على هدف وغاية لا تكون في العشواء، فإن جميع الأعضاء في كامل جسم الإنسان تكون أعضاء وظيفية ذات هدف وغاية وطيفية كما تبين، وهي بالتالي أعضاء ناجمة عن تصميم ذكي. وعلى هذا فإن كامل جسم الإنسان بغير شك قد تم تصميمه تصميما ذكيا شأنه في ذلك شأن كافة المخلوقات بغير استثناء. أما السؤال المطروح بعد هذا فهو: ما الذي تبقى للتطور والاصطفاء الطبيعي كي يصممه؟ بالتأكيد لاشيء على الإطلاق!!

من هنا نعيد الكرة إلى أنصار التطور متسائلين إذا أمكن أن يبرهن على أن أي جزء من البنية الخاصة بأي نوع من الكائنات قد تم تشكيله حصرا لا لتحقيق أي هدف أو فائدة سواء لنفس النوع أو لنوع آخر فإن ذلك

ربما يجعل من التطور فرضية وليس مجرد مزاعم. يقول الله تعالى في القرآن الكريم " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم "

عندما قام بتأليف كتابه المشهور نشأة الأنواع، لم يكن دارون حاسما فيما طرحه من مزاعم وفرضيات. وكان في كثير من الأحوال يناقض نفسه من خلال تقديم فرضيات ثم تقديم آراء مناقضة كما تم تبيانه أعلاه. إن نظريته في التطور هي إحدى أهم دلائل العبثية التي قدمها، والتي حاول من خلالها أن يدلل على قدرات وإمكانيات يمتلكها. لكنها في حقيقتها لا تمثل أكثر من وهم وخداع زائفين يسقطان أمام أي تحليل عقلي علمي بسيط. ومن أمثلة مناوراته التي لابد من الإشارة إليها هنا قوله الذي أتينا عليه سابقا والذي نكرره : "إذا أمكن أن يبرهن على أن أي جزء من البنية الخاصة بأي نوع من الكائنات قد تم تشكيله حصرا بهدف تحقيق الفائدة لنوع آخر , فإن ذلك سيبطل فرضيتي." فبالمجمل وكما تم تبيانه أعلاه، فإن كل مخلوق حي في هذا الكون قد خلق لغاية ولفائدة يستفيد منها مخلوقات أخرى إلى أن يصل الأمر إلى الإنسان، حيث أن كل المخلوقات في هذه الأرض مخلوقة بهدف تحقيق الفائدة لهذا الإنسان. السبب واضح في ذلك. فالإنسان هو المخلوق الوحيد في الأرض الذي يملك القدرة على تسخير كل المخلوقات فيها لخدمته.

لكن دارون في عبارته السابقة من الواضح أنه كان يقصد أمرا آخر. فكلمتي "حصرا بهدف" في جملته السابقة تعنيان الاستهداف والغاية. ودارون في مناورته الذهنية هنا لا يريد أن يقبل وجود أي هدف أو أية غاية، لأنها تتنافى مع طرحه التطوري. فوجود أي هدف أو غاية هو تلقائيا يدل على التصميم الذكي والذي من المؤكد أن دارون يدرك وجوده. ولذلك يسعى إلى نفيه من خلال مداخلته تلك، لذلك يكون تفسير ما قصده في عبارته الاستنكارية السابقة هو التالي: "لا يمكن لأحد أن يبرهن على أن أي جزء من البنية الخاصة بأي نوع من الكائنات قد تم تشكيله حصرا بهدف تحقيق الفائدة لنوع آخر، وعليه، ستبقى فرضيتي صحيحة.". فما الذي يعنيه دارون بعبارته هذه؟ ولماذا لا يستطيع أحد أن يبرهن على أن أي جزء من البنية الخاصة (ونقصد هنا البنية الهيكلية الشكلية أو النسيجية كعضو أو كنسيج) في أي نوع من الكائنات قد تم تشكيله حصرا بهدف تحقيق الفائدة لنوع محدد آخر دون غيره من الأنواع؟ إن ما قصده دارون بسؤاله الاستنكاري هو من أجل التأكيد على صحة فرضيته بأن الاصطفاء الطبيعي كما يزعم، يعمل بشكل عشوائي

دون تحيز. وبالتالي فهو يؤكد أن أي جزء من البنية الخاصة بأي نوع من الكائنات قد تم تشكيله أصلا عفويا بلا أي هدف وليس يهدف لتحقيق أي فائدة قد تم تخصيصها لأي نوع آخر. إن أي هدف لتحقيق فائدة يقتضي الغائية والغائية تستوجب الخلق. لذلك ووفقا لدارون فإذا ما كان هناك فائدة ما فهي ينبغي أن يكون قد تحققت تلقائيا و عشوائيا عند بعض الكائنات حين تطورت بواسطة آلية (الاصطفاء الطبيعي) وليس عن أي قصد. هذا يدل وفق دارون، أن الاصطفاء الطبيعي يعمل وفق آلية عشوائية.

لكن لماذا لا يستطيع أحد البرهان على طرحه؟ لأن دارون يتلاعب بعقول من يقرؤونه هنا. يعلم دارون كما يبدو، علم يقين أن كل نوع من الكائنات الحية مصمم بشكل منفصل ومختلف كليا في نظام تصميمه وتركيبه عن تصميم الكائنات الحية الأخرى من الأنواع المختلفة لأن الكائنات الحية منفصلة لأنواع. وهو يدرك أنه لا يوجد أي شكل من أشكال التماهي أو التواصل أو التطور مهما كان شكله أو صفته بين الأعضاء في الأنواع الحية المختلفة، لأن جميع الأنواع المختلفة من المخلوقات أثناء استقصاءاته المضنية لم يستطع أن يكتشف بينها أيا من المخلوقات البينية التي زعم أنها ناجمة عن تطور الأنواع. هذا يقتضي إدراك دارون أن الكائنات قد جاءت مخلوقة بشكل منفصل وفق تصميم ذكي ومنفصل من قبل خالق مقتدر. إن أي تطور بين الأنواع المختلفة وفقا للنهج الداروني ربما يفضي إلى شكل من أشكال الفائدة الحصرية بين تلك الأنواع بحكم وجود صلة قرابة وراثية بين تلك الأنواع وإن انفصلت في الجنس لاحقا. لكن إدراك دارون بوجود الانفصال الكامل في التصميم بين الأجناس المختلفة منذ البداية ويقينه بذلك، بل ويقينه أنها كلها لابد مصممة بواسطة خالق مقتدر، يجعله واثقا تماما أن أي جزء من البنية الخاصة بأي نوع من الكائنات لم يتم تصميمه بهدف تحقيق أية فائدة حصرية تخص نوعا آخر. وهنا الفائدة الحصرية التي قصدها هي إمكانية استخدام أي عضو من نوع ما والاستفادة منه من قبل نوع آخر كما في أمثلة زرع الأعضاء المتداولة في هذه الأيام. هنا يدخل في الموضوع الاستقلال والاختلاف التركيبي في النظام المناعي لكل نوع كائن حي عن الآخر. إذن فدارون في جدليته تلك يحاول أن يستخدم الانفصال البنيوي النسيجي في أنواع الكائنات الحية والذي لا يمكن أن يتأتى إلا بواسطة الخلق، كدليل ليبرهن به على صحة فرضيته بأن الاصطفاء الطبيعي كما يزعم، يعمل بشكل عشوائي دون تحيز وبدون غاية. فأي عبثية هي أكبر من أن يستخدم الحجة

التي تؤكد الخلق وتعاكس مزاعمه ثم يقوم بليّها واللعب بها من خلال التلاعب في الألفاظ كي يحتج بها في النهاية لصالحه كدليل على التطور. إن الانفصال البنيوي النسيجي بين الأنواع المختلفة من المخلوقات هو دليل واضح على التصميم المنفصل لا على الاصطفاء الطبيعي وبالتالي يدل على الخلق. دارون يريد أن يجعل من هذا الانفصال دليلا على العبثية متذرعا بحجة عدم تحقيقه لأية فائدة للأنواع الأخرى. لاتخفى هنا نزعة السفسطة لدى دارون في تقديم المثال والمثال المعاكس والاستفادة منهما لإثبات افتراضاته. هنا وبالعودة إلى تساؤل دارون من جديد ولكن بعد إعادة صياغته "إذا لم يكن بالإمكان البرهان على أن أي جزء من البنية الخاصة بأي نوع من الكائنات قد تم تشكيله حصرا بهدف تحقيق الفائدة لنوع آخر ,مع التأكيد على كلمة حصرا، فهل إن ذلك سيجعل فرضيته مقبولة؟؟"

هل إن الانفصال في صفات البنى الشكلية والنسيجية للمخلوقات هو دليل على العشوائية أم أنه دليل واضح مؤكد على التصميم الذكي؟

ومن جهة أخرى هل إن التماهي والاتصال في صفات البنى الشكلية والنسيجية للمخلوقات هو دليل ينفي التطور؟

إن نفي التطور لا يصح الاستدلال عليه من خلال البرهان الذي طلبه دارون كما أن عدم إمكانية تقديم البرهان لا يثبت أن التطور هو حقيقة وعلم. فلو أن نسيجا أو عضوا معينا لمخلوق ما قد تشكل حصرا بحيث يستفيد منه مخلوق من نوع مختلف فهذا يعني من الناحية الوراثية أن كلا المخلوقين شديدا التقارب الوراثي كما هو الحال في أمثلة نقل الأعضاء في الطب المعاصر. فكلما كان العضو المنقول أكثر تطابقا في بنيته الوراثية كلما كان مقبولا من قبل جسم المتلقي بحيث لا يحصل أي ارتكاس مناعي عندما يكون التطابق النسيجي تاما. يحصل هذا التطابق فقط في حالتين: إما أن يكون المتبرع هو نفس المتلقي أو أن يكون المتبرع والمتلقي توأمين حقيقيين. وفيما عدا ذلك فإن الأعضاء ضمن إطار النوع الواحد هي أكثر قبولا من قبل جسم المتلقي منها في حالة كون نوع المتبرع مختلف عن جنس الآخذ. وفي الحقيقة فإن دارون بمنطقيته السابقة يناقض نفسه وينسف فرضيته في التطور. فالتطور يقتضي وجود شكل من أشكال الاتصال والتماهي الشكلي والوظيفي وحتى النسيجي في المخلوقات المختلفة، كونها ذات أصل مشترك واحد كما

يزعمون وهذا ما يعول عليه أنصار التطور من المعاصرين مخالفين لمنطقية دارون السابقة. فهم يستدلون على صلة القرابة بين الكائنات المختلفة من خلال نسبة التشابه في المورثات. فمثلا يزعمون أن قرود الشمبانزي هي الأقرب نسبا إلى الإنسان لأن 98 % من مورثاتها تشابه مورثات الإنسان. وعلى هذا الأساس، فإن التطور الداروني وبعكس مقولة دارون السابقة، يقتضي أن يكون جزء من البنية الخاصة بأي نوع من الكائنات قد تم تشكيله حصرا بهدف تحقيق الفائدة لنوع آخر، لأن التحول إلى النوع الجديد يفترض أن بعض المورثات قد حصل فيها تطور في حين أن البعض الآخر بقيت كما هي، وهي بالتالي لابد أنها قد وجدت حصريا لتحقيق الفائدة للنوع الجديد المفترض.

إلا أن التخالف المناعي بين الأنواع وحتى بين الفصائل في النوع الواحد بل وحتى بين أفراد الفصيل الواحد تلغي أي شكل من أشكال الفائدة الحصرية التي يطمح أنصار التطور المعاصرين في الحصول عليها، مالم يجر إلغاء المناعة بالمثبطات المناعية التي لن تلغي الاستقلالية والانفصال المناعي والنوعي.

تبقى الحقيقة العلمية التي يجب التأكيد عليها والتي يغفلها أنصار التطور دائما وهي أن التشابه في المخلوقات سواء من الناحية الشكلية الظاهرة أو الناحية الوراثية على مستوى الكروموزومات والمورثات إنما يؤكد على الشبه في الخصائص دون أن يدل على صلة القرابة البيولوجية. فالقرابة البيولوجية تقتضي إثبات كيف تحول كائن ما من نوع إلى آخر من خلال الاستقصاء العلمي التجريبي والملاحظة، الأمر الذي لم يثبت. فالأمر لا يعدو في أحسن أحواله تشبيها بوجود قطع غيار ذات تصميم متشابه لا أكثر. بمعنى أن كون كل الكائنات الحية يدخل الماء بنسبة لا تقل عن 70 % في بنيتها، فإن هذا لا يبرر أن تلك الكائنات تتصل بصلة القربى البيولوجية بسبب أن الماء موجود في تركيبها كلها.

لقد كان دارون صادقا فيما ارتأاه في مقولته تلك أن الكائنات منفصلة في أصلها وهذا يدل على أنه كان يدرك التصميم المنفصل وعلى الرغم من إدراكه بوجود المصمم المبدع لهذا الكون، فإنه لم يكن مقرا بذلك.

ففي عبثيته الذهنية تلك إنما كان يستلهم في الحقيقة فلسفة تقتضي انعدام وجود أي هدف أو غاية لهذا الكون. لأن وجود هدف و غاية يستدعي سؤالا مهما جدا لماذا هو موجود وما هو الهدف من وجوده؟ لكن اختياره كان غير موفق حين اختار المثال الذي يدل على التصميم واستخدمه بشكل خاطئ لنفي الغاية.

حجج أنصار التطور التي يستندون إليها:

يقدم القاضي فيليب جونسون أمثلة على أسلوب المراوغة والمناورة والتملص في التبريرات التي يدلي بها الدارونيون حين يشعرون بأنهم قد حشروا ووقعت الحجة عليهم فيكتب:

"لماذا يقوم الاصطفاء الطبيعي الذي من المفترض أنه قد صنع كل الطيور من أسلاف متدنية الأصل بإنتاج أنواع تتوق فيها الإناث إلى ذكور مزينة بزركشة قد تهدد حياتها؟ ألم يكن ينبغي على أنثى الطاووس أن تطور اختياراتها بحيث تكون أفضليتها تجاه ذكور ذوي مخالب حادة وأجنحة ضخمة؟ إننا نشهد هنا لدى أنصار الدارونية، فلسفة بتوجهات مسبقة تعمي الذكاء الداروني عن استبيان وجود المثال المعاكس في الطبيعة".

كتب جوليان هيكسلي مرة " من الممكن توقع اللااحتمالية كنتيجة ناجمة عن الاصطفاء الطبيعي، حيث بوسعنا تقبل المفارقة بأنه كلما نجم ظهور حالة ما بعيدة الاحتمال بشكل فائض، فإن ذلك يمكن أن يؤخذ على أنه دليل على فعالية الاصطفاء الطبيعي". وبهذا المعيار كما يرى جونسون: فإن الفرضية تلك، ليس لديها شيء تخشاه من (الشواهد الواقعية المنافية للفرضية الأساسية). مما يعني أن الطفرات عليها أن تقدم الابتكارات المحبذة أولا قبل أن يعود الاصطفاء الطبيعي لاحقا ويشجع ظهور تلك الطفرات. (ما قصده القاضي جونسون في عبارته السابقة، هو أن أنصار التطور يضعون أولا الأحكام والفرضيات وفق قوالب مسبقة، ثم يلجأون إلى الملاحظات والوسائل و يستخدمونها لتتواءم مع قوالبهم المسبقة).

لقد كان إسهام دارون الفريد هو في تقديمه آلية مقنعة ظاهريا توضح كيف أمكن التحول الضروري بين الأنواع. آلية لم تحتج إلى توجيه إلهي ، أو قوى غامضة حيوية، أو أي سبب آخر لا يعمل حاليا في هذا العالم. لقد كان دارون قلقا على وجه الخصوص من أن تضطره الحاجة في فرضيته تلك إلى أية " وثبات" - قفزات مفاجئة، حيث يمكن أن يظهر نوع جديد من الكائنات خلال جيل واحد.

القفزات:

لم يقترح داروين أية آلية لكيفية ظهور أو توريث التغيرات في الكائنات الحية للأجيال اللاحقة. وعلى الرغم من أن جريجور مندل اكتشف المبادئ الأساسية لعلم الوراثة خلال حياة داروين، لكن عمل مندل (تم نشره

في عام 1866) ولم يكن معروفا على نطاق واسع، أما دلالة عمله فلم تقدر أهميتها حتى أعيد اكتشافها عام 1900. واستغرق الأمر بعلم الوراثة حتى حوالي 1950 إلى أن نضج بما فيه الكفاية كعلم، وكذلك بالنسبة إلى علم المتحجرات وعلم الأحياء المجهرية والكيمياء الحيوية وعلم الأجنة، و الفرضية التطورية الداروينية لتصبح جميعها مطوية معا في وحدة كنظرية شاملة. وهكذا فإن " توليفة الداروينية الجديدة " هو الاسم الصحيح للنظرية الحديثة للتطور. وهي تفترض الأصل المشترك للكائنات الحية مع وجود اختلافات وراثية مواتية (نشأت من الطفرات العشوائية) وفقا لما تمليه القيود البيئية العشوائية. يمكن اعتبار العملية الداروينية على شكل سلسلة من المناخل تقوم بتكرير أفراد المجتمع واختيار للأفراد الذين يمتازون بخصائص مناسبة لمواجهة تيارات الضغوط البيئية . مثلما هو الحال في النهر الذي لا يستطيع أن يختار مساره، كذلك الأمر في حالة الحياة فهي تختار أي توجيه تسمح به القوانين الطبيعية والصدفة.

القفزات (أو الطفرات الجهازية الضخمة، كما تدعى عادة في هذه الأيام) يعتقد معظم العلماء ولأسباب لها مدلولها أنها نظريا مستحيلة الحدوث. إن المخلوقات الحية تمثل معقدات هائلة لأجزاء ذات علاقة وثيقة ببعضها، وتلك الأجزاء هي أيضا معقدة. من المستحيل التخيل كيف أن تلك الأجزاء من الممكن أن تتغير بشكل منسجم كنتيجة للطفرة العفوية. وبكلمة واحدة (هي كلمة نطق بها دارون) ، القفزات تعدل المعجزات. (إن الأجزاء الرئيسية للأنظمة المعقدة هي معقدة جدا ويجب أن يتم بناؤها في نفس الوقت. وبإجمال الموضوع، فإن تلك القفزات في التحولات الحاصلة في الأجهزة الحية بين الأنواع المختلفة من المخلوقات والتي يعزوها أنصار التطور لجملة من الطفرات المشتركة الحادثة في توقيت زماني واحد يجدر بأن لا يتم تمييزها عن الخلق الخاص.

حتى البزوغ المفاجئ لعضو معقد واحد ، مثل العين أو الجناح ، يتطلب تداخلا خارقا للطبيعة. لقد أنكر دارون وبشدة أية فرضية تطورية من هذا النوع, "إذا ما تم إقناعي بأنني أحتاج إلى إضافات كتلك، إلى فرضية الاصطفاء الطبيعي، فإنني سوف أرمي بها مثل قطعة قمامة..... سوف لن أمنح نظرية الاصطفاء الطبيعي أي شيء، إذا ما احتاجت إلى إضافات إعجازية خلال أية مرحلة من مراحل الارتقاء".

والحق أنه في كل خطوة من خطوات الارتقاء صغيرة كانت أم كبيرة، يحتاج الإجراء إلى شكل من أشكال الاختزال الاصطفائي الذي يتطلب بالتأكيد إضافات إعجازية تستوجب شكلا ما من التصميم.

لقد فهم دارون أن الملامح المميزة لفرضيته هي الفلسفة المادية التي لا تقبل أية مساومة، والتي أضفيت إليها في الواقع الصفة العلمية كما يزعم أنصار التطور بمقتضى كونها لا تحتاج إلى أية قوى أسطورية أو خارقة للطبيعة غير متاحة للاستقصاء العلمي.

ومن أجل تحقيق فرضية مادية متكاملة، فقد قام دارون بشرح كل الخصائص المعقدة أو التحولات الضخمة من خلال اعتبارها نتيجة تراكمية لخطوات صغيرة متعددة جدا. وبكلماته الفصيحة: "يعمل الاصطفاء الطبيعي فقط بواسطة الاحتفاظ بِـ - و التراكم لتلك التعديلات الوراثية المفرطة في الصغر، والتي كل منها ذو فائدة في الحفاظ على الكائن الكامل".

اعترض ت. إتش. هاكسلي منذ البداية على جزم دارون في موضوع التدرج، محذرا إياه في رسالة مشهورة: " لقد حملت نفسك صعوبات لا ضرورة لها وذلك من خلال تبني النموذج الطبيعي بلا قفزات دون أي تحفظ.". لقد كان هاكسلي مصيبا في نصيحته لأنه من المستحيل علميا وعمليا أن يعمل الاصطفاء الطبيعي عمله في التطور ومن خلال المنظور التطوري، فقط بواسطة الآلية التراكمية للتعديلات الوراثية المفرطة في الصغر كما زعم دارون وذلك لأسباب مسوغة سنأتي على ذكرها. لكن دارون أيضا كان مصيبا في حيثيته تلك. فالقفزات في الطفرات المزعومة تعني بدون أدنى شك المعجزات وتقتضي القدرة الخلاقة التي يريد دارون أن ينفيها في فرضيته تلك.

إن الكثير من الأعضاء إثناء بنائها أو (تعديلها) تتطلب اشتراكا معقدا من أعضاء مركبة لكي تقوم بأداء عملها. كيف يمكن لمثل تلك الأشياء أن يتم بناؤها بواسطة " التعديلات الوراثية المفرطة في الصغر، والتي كل منها ذو فائدة في الحفاظ على الكائن الكامل."؟ إن الخطوة الأولى لتشكيل نظام جديد مثل الرؤيا أو القدرة على الطيران على سبيل المثال سوف لن يحدث بالضرورة أية فائدة ما لم تكن الأجزاء الأخرى التي يحتاجها لأداء المهمة متوافرة في نفس الوقت.

سأل ستيفن جي. غولد نفسه " السؤال الرائع, ما فائدة 5% من العين؟" وتنبأ بأن الأجزاء الأولى من العين ربما كانت مفيدة لشيء آخر مغاير للرؤيا.

استجاب ريتشارد دوكينز للموضوع " بأن حيوانا قديما يملك 5% من العين من الممكن بالتأكيد أن يكون قد استخدمها لشيء ما مغاير للرؤيا، لكن يبدو لي أنه من المحتمل أنه استخدمها لرؤيا مقدارها 5%."

لم يكن غولد يقصد في تساؤله ما فهمه دوكينز. فغولد قصد البنية العضوية النسيجية الهيكلية للعين التي لا تتحقق الرؤيا إلا بكمال بنيتها، أما دوكينز، فقد حرف المعنى نحو الإبصار و الرؤيا. ومن الواضح أن الظاهرتين تختلفان تماما. فغولد على صواب فيما قاله. و دوكينز كان مخطئا ومراوغا في تفسيره.

إذا كانت العين بالكاد قد تطورت، فإنها لاشك قد تطورت عدة مرات. كتب إرنست ماير "يجب أن تكون قد تطورت بشكل مستقل كحد أدنى 40 مرة"، وهي حالة ظرفية تحتم عليه القول " إن العضو ذو التعقيد الكبير يمكن أن يتطور بشكل متكرر و تجميعي عند وجود الظرف الملائم، شرط أن يكون مثل هذا التطور بكل حال محتملا.". إن هذا يعني أنه إن كان للتعقيد أن يحدث فإنه يستوجب اتجاها ذو غاية وهدف ينتهي بتشكل عضو الرؤيا كالعين. إن مثل هذا التوجه الغائي ذو الاختزال الاصطفائي ليس في حقيقته إلا بمثابة معجزة تستوجب تخطيط مبدع خالق لكي يجري حصولها بمثل هذا التدرج الذي يماثل الخلق.

لكن لماذا هناك العديد من أشكال العيون التي تملكها كثير من المخلوقات الأولية والتي لا تزال تحيا معنا لم تتطور أبدا إلى أشكال أكثر تقدما؟ لقد اعترف دوكينز بأنه تحير بشأن الحبار، والذي عبر فترة وجوده التي استمرت مئات الملايين من السنين لم يتمكن من أن يطور عدسة لعينه بالرغم من امتلاكه للشبكية التي تبكي على وجه الخصوص لمثل " ذلك " التعديل البسيط المحدد لكنه المجدي والفعال في نفس الوقت. هذا يثير تساؤلا ملحا حول تلك الانتقائية الغريبة والمستهجنة في عمل التطور المزعوم بين المخلوقات المختلفة.

ريش الطيور ينبغي أن يكون قد تطور عن الطبقة القشرية للزواحف إذا كانت الدارونية صحيحة، لكن مرة أخرى فإن الأشكال الوسيطة من الصعب تخيلها ذهنيا وهي غير موجودة في آثار المستحاثات أو بين المخلوقات الحية.

وهنالك مشكلة أخرى كبيرة تتمثل برئة الطير المتخصصة، والتي هي مختلفة تماما في تركيبها عن بنية أية رئة لأي سلف متطور يمكن تخيله. ووفقا لدانتون، " فقط التفكير كيف أن هذا الجهاز التنفسي من الممكن تخيل تطوره التدريجي من التصميم التقليدي للفقاريات هو أمر خارج المألوف بحيث لا يمكن تصوره، خصوصا مع الأخذ بعين الاعتبار أن الحفاظ على الفعاليات التنفسية مهم جدا لبقاء حياة العضوية، إلى الحد الذي يظهر فيه أن أي اضطراب ولو ضئيل في العمل سوف يقود إلى الموت خلال ثوان.".

كما أن الريش لا يمكن أن يعمل كعضو للطيران ما لم تكن الخطافات والأجنحة قد تكيفت لتتلاءم مع بعضها بشكل ممتاز. كذلك فإن رئة الطائر لا يمكن أن تنجز عملها كجهاز للتنفس ما لم يكن الجهاز القصبي الذي يتخلله، و الأسناخ الرئوية التي توفر للجهاز ما حول القصبات ما يحتاجه من الهواء، مكتملة النمو وقادرة على العمل بشكل مشترك بآلية متكاملة متجانسة.

أن يجد المرء من السيناريوهات التدريجية لتطور الأنظمة المعقدة أمرا مقبولا، هو مسألة يدخل فيها موضوع التحيز الشخصي في الحكم. إنها مسألة مبدأ وأيديولوجية، إن مثل تلك السيناريوهات هي في واقع الحال مجرد تخمينات. فالأجنحة تظهر لدى كل من الطيور والخفاش في السجل المستحاثي مكتملة النمو، ولم يستطع أحد أن يثبت بالتجربة أن التطور التدريجي لكل من الجناح والعين هو أمر ممكن.

إن غياب مثل هذه الدلائل التاريخية المستحاثية والتجريبية من المحتمل أنه هو ما كان في ذهن غولد حين كتب" إن تلك الحكايات وفقا للطريقة التقليدية في التاريخ التطوري الطبيعي، ليس بمقدورها أن تثبت أي شيء".

كتب دارون" إذا ما كان بالإمكان البرهان على أن أي عضو معقد متواجد لم يكن بالإمكان تكونه من خلال تعديلات هائلة متوالية، فإن فرضيتي حتما آيلة للإخفاق"

واحد من العلماء البارزين في منتصف القرن العشرين الذي استنتج أن النظرية قد انهارت بالتأكيد هو عالم الوراثة الألماني الأصل الأمريكي الجنسية البروفيسور ريتشارد غولد شميدت العامل في جامعة كاليفورنيا في بيكرلي. لقد قدم غولدشميدت تحديا مشهورا للداروينيين الجدد، مدونا قائمة من سلسلة من البنى المعقدة

بدءا من أشعار الثدييات إلى خضاب الدم، والتي آمن أنه لم يكن من الممكن أن يتم بناؤها من خلال تراكم واصطفاء الطفرات الصغيرة.

وقد استنتج غولدشميدت أن التطور الداروني لا يمكن أن يتماشى إلا مع التنوع الحادث داخل حدود النوع الواحد، بخلاف غريس، حيث اعتبر أن التطور خارج ذلك الإطار قد حدث وجوبا في قفزة واحدة وذلك من خلال تواكب الطفرات الهائلة. لقد سلم بأن الطفرات الكثيرة واسعة النطاق هي تقريبا في كل الأحوال ستنتج وحشا غير متكيف وبلا أمل. لكنه اعتقد أنه في حالات نادرة فإن حادثة عرضية محظوظة قد تنتج " وحشا مأمول به" وهو الكائن الأول في النوع الجديد، الذي لديه القدرة على النجاح والتكاثر. (لكن السؤال الملح هنا مع أي زوج سيتكاثر؟؟؟). لقد تقبل الداروني هذا الاقتراح الخيالي بتهكم عنيف وسخرية لاذعة حيث وصف غولدشميدت سلوكهم العدواني تجاهه: " في هذه المرة لم أعد فقط مجنونا ولكن تقريبا أمسيت مجرما".

فالتواكب والتداخل في عمل الأعضاء أو الأنسجة في العضو الواحد أو أي نظام في بنية جزيئية هو من التعقيد بحيث يتحتم قدوم تلك العناصر في نظام العمل الواحد في نفس الوقت وبفعالية كاملة. فعلى سبيل المثال، في نظام الإرقاء الدموي هنالك عوامل متعددة داخلية وخارجية تنتجها أعضاء مختلفة متباعدة في ارتباطها كالكبد والنسيج البشري. وهي تمثل سلسلة متصلة كل واحدة منها، عند تفعيلها تؤثر على التي تليها وتتسبب في تفعيلها وهكذا إلى أن ينتهي التفعيل بتشكل مركب الليفين وحدوث التخثر. إن غياب وجود واحد من بين عوامل التخثر تلك سوف يؤثر بشكل مباشر على فعالية نظام الإرقاء ككل، ولن يكون بالإمكان الحصول على تخثر دموي فعال إلا بتواؤم وتواكب كل تلك العوامل. فغياب العامل الثامن (الهيموفيليا) مثلا هو مرض وراثي مشاهد في بعض أفراد الأسرة البريطانية الحاكمة. يتظاهر المرض سريريا بنزف دموي مستمر عند التعرض لجرح أو رض. ينجم المرض عن وجود صفة مقهورة مرتبطة بالجنس، وإذا كانت متماثلة اللواقح عند الإناث ، فإن جنين الأنثى لن يتمكن من النجاة. وإذا أصابت الذكور فإنهم يكونون دائما مصابين بالمرض. أما عند الإناث متعددة اللواقح فتكون الأنثى سليمة بفعل تأثير الصفة الغالبة السليمة. فكما هو مبين من المثال السابق فإن غياب العامل الثامن فقط من بين اثنا عشر عاملا قد تسبب في إخفاق نظام

الإرقاء بأكمله. ما ينطبق على هذا النظام، ينطبق على عدد لا يمكن حصره من الأنظمة المختلفة في أعضاء جسم الإنسان وعند جميع المخلوقات. مثل هذه الأنظمة لا يمكن تفسير قدومها بأنها جاءت وفق آلية تدريجية من الطفرات المتراكمة. فهي أنظمة إما أن تكون قد جاءت بعناصرها المركبة للوجود دفعة واحدة أو أنها لم تأت مطلقا. وأي تفسير يخالف هذا التفسير هو تفسير فيه الكثير من التحيز الشخصي واللاصوابية في إبداء الرأي. إن القضية تتحول إلى مسألة انحياز لمبدأ أيديولوجي وقوالب جاهزة وأحكام مسبقة. وهذا بالتأكيد يتنافى مع شكل العلم حتى وفق التعريف التطوري الطبيعاني. فكون تلك الأنظمة قد جاءت للوجود دفعة واحدة بالتأكيد ينفي صواب مبدأ الآلية التدريجية من الطفرات المتراكمة الذي طرحه دارون، وبالتالي ينسف نظرية دارون بالكامل كما أكد هو بنفسه حين قال مكررا " إذا ما كان بالإمكان البرهان على أن أي عضو معقد متواجد لم يكن بالإمكان تكونه من خلال تعديلات هائلة متوالية، فإن فرضيتي حتما آيلة للإخفاق" . وهاهي الأعضاء المعقدة المتواجدة بتلك الصفة الغالبة، هي في عددها بلا نهاية في الكائنات الحية المختلفة كما تم تبيانه.

يبقى أمامنا الطريق الآخر في إطار التطور الذي قدمه غريس حين اعتبر أن التطور في تلك الحالات المعقدة قد حدث وجوبا في قفزة واحدة وذلك من خلال تواكب الطفرات الهائلة. هنا لا بد من التساؤل المبني على التفكير: إذا كان لديك قضية ما وكان أمامك خيارين لحلها. الخيار الأول من خلال حكم العقل ، هو خيار سهل غير معقد ويتجه مباشرة باتجاه الهدف دون مواربة أو التفاف. والخيار الثاني هو خيار مبتكر معقد ولا يحمل صفة المنهجية. فجميع العقلاء سوف يحبذون الخيار الأول وينكرون الخيار الثاني. نفس الأمر يتعلق هنا بالفرض الذي قدمه غريس أعلاه، وقد فصله بوضوح أكثر كمايلي : لقد سلم بأن الطفرات الكثيرة واسعة النطاق هي تقريبا في كل الأحوال ستنتج وحشا غير متكيف وبلا أمل. لكنه اعتقد أنه في حالات نادرة فإن حادثة عرضية محظوظة قد تنتج " وحشا مأمول به" وهو سيصبح الكائن الأول في النوع الجديد، الذي لديه القدرة على النجاح والتكاثر. هذا هو تفسير غريس، بإزاء الذين يؤمنون بالخلق حيث يقول تفسيرهم: أن هنالك قدرة تصميمية قد قامت بخلق هذا العضو المعقد وفقا لتصميم ذكي ومن خلال خطة محكمة. لا يمكن لتفسير غريس أن يكون صائبا أو علميا. فكيف يمكن للطفرات أن تتجمع بآلية

عشوائية وفي أعداد تصل حتى أكثر من عشرين ألف طفرة نوعية، إيجابية في لحظة واحدة وفي اتجاه تطور محدد؟ ليس هذا فحسب، بل أن تلك الحادثة يتحتم أن تتكرر مئات المليارات من المرات في كل المخلوقات، وبشكل دائم عبر الأزمنة والأمكنة في كل مرة يحدث فيها تشكل نظام معقد. إن ضرورة تكرار تلك الحادثة (النادرة) كما زعم غريس!!! يجعل منها ظاهرة اعتيادية. إن الكلام بهذه الطريقة هو من العلمية بالقدر نفسه الذي تكون فيه الخوارق عبارة عن ظواهر اعتيادية. لقد وقع أنصار التطور في مأزق عويص يشابه في طبيعته ما كانوا ينتقدون فيه أنصار التوجه الخلقي، حين كانوا ينسبون إليهم تفسير الظواهر (بالمعجزات) فهاهم الآن هم أنفسهم يفسرون الظواهر (بالخوارق)، ويحتمون على المتعلمين والعامة قبول وجهة نظرهم بينما يرفضون وينكرون وجهة النظر الأخرى. وبالعودة إلى وحش غريس المأمول به الذي نشأ بواسطة طفرات هائلة جاءت في وقت واحد متناغمة، فبزعم أن هذا الكائن الخرافي قد جاء لهذا الوجود، فهو لاشك سيمثل نوعا جديدا يختلف عن النوع السلف الذي نشأ عنه. وهو حكما لن يكون قادرا على التزاوج مع النوع السلف لأنه تعريفا نوع جديد. وكما تفضل القاضي فيليب جونسون : " سيكون لديه القدرة على النجاح والتكاثر. (لكن السؤال هنا مع أي زوج؟) " . نعم مع أي زوج؟ هل ستقوم الطفرات في حادثة ثانية عرضية محظوظة فتنتج في نفس الوقت " وحشا مأمولا به آخر" سيكون المخلوق الثاني في النوع الجديد، الذي سيكون لديه القدرة على التزاوج والتكاثر مع المخلوق الأول؟؟؟

إن نهج كل من غريس ومن قبله غولد شميدت هو محاولة لإيجاد تفسير معقول لنشأة الأعضاء المعقدة وما أكثرها في هذا الوجود. لكن لابد من إعادة صياغة وتحليل هذا الرأي كي تتحقق الفائدة العلمية:

فوجهة النظر هذه، أول ما تستثني في نشأة الأنظمة المعقدة كما بين غولد شميدت، إمكانية أن يتم بناؤها من خلال تراكم واصطفاء الطفرات الصغيرة. وهذا أمر قد تم البرهان عليه. فمساهمة تراكم الطفرات الصغيرة في إنشاء الأنظمة المعقدة أصبح علميا أمرا مرفوضا تماما كما وضح ذلك العديد من العلماء بمن فيهم الدكتور بيهي في كتابه (صندوق دارون الأسود).

أما ما فهم من كلام غريس من خلال منطقه التطوري فهو أن التطور قد حدث وجوبا في قفزة واحدة وذلك من خلال تواكب الطفرات الهائلة.

لقد اشترط غريس في هذا التطور شروطا مهمة وهي التالية: أولا- اشترط أن يحدث قفزة واحدة. ثانيا - اشتراط تواكب وجود طفرات هائلة. ثالثا -اشترط وجود حظ وفير. فبالنسبة للشرط الأول، لنفترض أن شخصا ما كان يربي سلحفاة، تركها في الليل واستيقظ صباحا فوجد مكانها عصفورا صغيرا, فهل يستقيم القول أن السلحفاة تحولت إلى ذلك العصفور؟ إن شرط التحول قفزة واحدة هو بمثابة تحول السلحفاة إلى عصفور. فهو أمر مستحيل علميا و لا يستقيم عقليا. أليس البديل الصائب الوحيد لتلك القفزة الواحدة (المستحيلة الحدوث) هو تخلق مخلوق جديد ، طالما أن وجود النوع الجديد قد حصل وتأكد ؟ وإذا كان الأمر كذلك وهو بالتأكيد كذلك، أليس التصميم الذكي هو الآلية الوحيدة الممكنة؟ وبالنسبة للشرط الثاني: تواكب وجود طفرات هائلة: بصرف النظر عن الاعتبارات التطورية التي تعتقد بإمكانية تشكل مورثات جديدة عفويا بدءا من مورثات قديمة (وهو معنى الطفرة) أو قول أنصار الخلق باستحالة هذا الأمر، فإن معنى تواكب وجود طفرات هائلة في عضوية ما، هو تماما يساوي وجود مورثات جديدة تختلف كلية عن المورثات القديمة وتتسبب في ظهور صفات شكلية جديدة، هي التي تمنح الكائن الحي شكله. بمعنى آخر، من خلال مثالنا السابق، فهي تحول نوعي لتلك السلحفاة إلى عصفور مرة أخرى، وذلك من خلال التحول الذي طرأ على مورثات تلك السلحفاة. ومرة أخرى، من المؤكد أنه لا توجد أية آلية علمية تجريبية يمكن أن تتسبب في تشكل هذا العدد الهائل من المورثات الجديدة (الطفرات الإيجابية) المفضلة التي ستتجمع تلقائيا، وتقدم تلك الصفات الشكلية، التي تتسبب في تحول مخلوق ما لنوع آخر جديد مغاير. فإذا كانت الآلية العلمية وهي آلية موجهة تقودها خبرات بشرية عاقلة ذكية عاجزة عن مثل هذا الأداء، فمن المؤكد أن آليات تنسب للعشواء ستكون أكثر عجزا وضعفا من أن تنجح في تحقيق هذا التحول. أليس البديل الصائب الوحيد لتواكب وجود طفرات هائلة (المستحيل الحدوث) هو تخلق مورثات جديدة ، طالما أن وجود النوع الجديد قد حصل وتأكد ؟ وإذا كان الأمر كذلك وهو بالتأكيد كذلك، أليس التصميم الذكي هو الآلية الوحيدة الممكنة؟

يبقى أمامنا الشرط الثالث وهو الحظ الوفير. وهو في منطق التطوريين البديل العشوائي عن التصميم الذكي الذي يحقق تجمع تلك المورثات النوعية الخاصة التي ستحول نوعا معينا إلى نوع آخر. والتساؤل المهم هنا

ووفقا لعرف التطوريين: هل يعتقد التطوريون أن حظا وفيرا سوف يسمح بتجمع بضعة آلاف من المورثات المختلفة التي ستتسبب في تكوين كائن جديد ذو صفات مغايرة للسلف. هل يوجد حقيقة حظ وفير يملك تلك القدرة المذهلة التي تفوق المعجزات. إن العلم يجزم وبشكل قاطع استحالة وجود مثل هذا الحظ الوفير الذي يزعم أنصار التطور إمكانية حدوثه. والقضية الأكثر تعقيدا هي أن هذا الحظ الوفير يجب أن يكون دائما بمتناول اليد في كل مرة يتم فيها تكون عضو ما حي ذو تعقيد وظيفي، أي أنه ينبغي أن يكون هذا الحظ الوفير اعتياديا. طبعا الأمر مستحيل بكل المقاييس العلمية والعقلية. لكن ومن أجل حسم تلك المسألة الجدلية، أليس البديل الصائب الوحيد للحظ الوفير المستحيل الحصول، طالما أن التحول قد حصل وتأكد، هو التحول الموجه؟ وإذا كان الأمر كذلك وهو بالتأكيد كذلك، أليس التصميم الذكي هو الآلية الوحيدة الممكنة؟ وفي الختام عندما يتكلم غريس عن (وجوب) حدوث الشروط الثلاثة في نفس الوقت كأساس لأي تطور كي يأخذ فعله في حال الأعضاء المعقدة، ألا يبدو أنه يتكلم بشكل أكثر من فصيح عن الخلق بواسطة التصميم الذكي؟. ليس هناك أجمل من تعليق القاضي فيليب جونسون على الموضوع حين كتب "إذا كان غولدشميدت قد عنى ما عناه بأن الأجزاء المعقدة ذات الارتباط المشترك عند الحيوان من الممكن أن يتم توليفها بشكل مترافق بواسطة نظام الطفرات الهائلة، فلقد كان يقصد واقعيا تحقق مبدأ المعجزة التي ليس لها أساس لا في الفرضية الوراثية ولا في الشواهد التجريبية."

لا يزال الدارونيون الجدد يعتقدون أن الطفرات تنجم عن أخطاء عشوائية أثناء نسخ أوامر الشيفرة الوراثية للدي إن أي. وقد توضح أن تلك الأخطاء العشوائية المزعومة من المستحيل أن تقدم مورثة واحدة جديدة ناهيك عن أن تقدم عددا معتبرا من المورثات يمكن بواسطتها بناء عضو معقد في العضوية الحية . غاية ما في الأمر، أنها تقدم تشوها ملحوظا ومرضيا في مستوى الأذية على المورثة، ينعكس على شكل صفة ظاهرة مرضية. لقد تبين ذلك من خلال ملاحظة المخلوقات التي تعرضت بشكل عرضي للإشعاعات وكذلك التجارب النوعية التي أجريت على الكائنات الحية المختلفة، والتي تم فيها إحداث تشوهات مقصودة على مستوى المورثات. لقد كانت جميع النتائج تشير إلى ظهور صفات ظاهرة مرضية ومشوهة، ولم يحدث في مرة واحدة تشكل مورثة جديدة حقيقية. لقد قام العالم آكس بحساب إمكانية تكوين بروتين صغير مكون

من 120 حمض أميني عفويا فتبين له أن عدد المترادفات الممكنة أثناء بناء هذا البروتين يعدل 10 قوة 77 رديف بروتيني يمكن تكوينه من نفس الحموض الأمينية المكونة لهذا البروتين المفترض. لك أن تتخيل أن هذا الرقم يعدل عدد كافة الذرات المكونة لمجرة درب التبانة مرتين. بمعنى علمي واضح، من أجل تكوين بروتين واحد فعال حيوي هنالك بالمقابل 10 قوة 77 بروتين غير فعال ولا حيوي غير وظيفي. لذلك فلابد أنه حصل في حالة تكوين هذا البروتين الفعال اختزال اصطفائي بواسطة مصمم ذكي لإنجاز هذا الشكل المحدد من البروتين. هذا ما حدا بالقاضي جونسون لأن يكتب " إن الافتراض بأن حدثا عبثيا كهذا يمكن أن يعيد بناء عضو معقد واحد مثل الكبد أو الكلية هو بمثابة الحصول على تصميم لساعة رقمية من خلال قذف ساعة قديمة على الحائط."

التفت الدارونيون الجدد بعد أن فشلوا في تسويق فرضية الطفرات العديدة المعتبرة إلى فرضية جديدة وهي الطفرات المحدودة والتي تمتاز بأنها صغيرة جدا، بحيث تمر دون شعور بها. فوفقا لكلام ريتشارد دوكينز " عمليا فإن كل الطفرات التي تمت دراستها في مختبرات الوراثة هي في الحقيقة طفرات كبيرة، وإلا لما كان بمقدور علماء الوراثة أن يلاحظوها، وهذه الطفرات هي طفرات مؤذية للحيوانات التي تملكها." لكن إذا كانت الطفرات الضرورية صغيرة جدا كي تلحظ، فإنه ينبغي أن تتواجد كميات عظيمة منها (ملايين؟) من الأنواع المناسبة، و كلها تتقدم عند الحاجة إليها، لتقوم بعمل المشروع طويل الأمد في بناء العضو المعقد". ما يقصده دوكينز في تلك الفرضية هو ضرورة وجود طفرات محدودة جدا في العدد ولكنها تتكرر في الأجيال المتتابعة و تتعدل وتأخذ شكلا تراكميا بحيث تفضي في النهاية إلى إحداث التطور المزعوم. إن ما يظهر للوهلة الأولى بأنه أمر غاية في البساطة ومن السهل حدوثه، سيتضح لا حقا أنه مستحيل الإمكانية، شأنه في ذلك شأن التطور القافز بواسطة العديد من الطفرات المعتبرة. فهو إلى جانب كل تلك المعوقات التي تعيق حصوله في حالة الطفرات العديدة، هنالك عائق التوجيه المستمر للطفرات بين الأجيال المتتابعة. إن ما يتكلم عنه دوكينز و الدارونيون الجدد هو مجرد آلية عشوائية وليس آلية موجهة تتحكم بها قوى مدركة واعية. وإذا كان هنالك من شك حول استحالة إمكانية تحقق ذلك الافتراض الباطل، فلنتخيل أن صانع الساعات الأعمى الذي افترضه دوكينز، بدون أن يعرف أسماء المدن أو مواقعها وبدون أية مساعدة من أي

شخص، قد تقرر عليه أن يقوم برحلة إلى عواصم أوربا كلها، على أن يكون مسار الرحلة محددا بحسب تسلسل أسماء المدن وفق الحروف الأبجدية!!!. من الأجدى لأي امرئ منطقي أن يعود إلى فرضية الطفرات ذات القفزات المعتبرة على أن ينحو المنحى الذي اتخذه دوكينز و التطوريون الجدد بواسطة الطفرات التراكمية. لقد تبين للقاضي جونسون أن مثل تلك المزاعم الممثلة بالتطور الداروني التراكمي تعتمد على: 1- كمية الانتقالات الطفرية المحدودة المحببة والمطلوبة لبناء الأعضاء والأجهزة المعقدة 2- التكرارية التي من شأنها أن تحدث مثل هذا التحول الطفري المحدود والمحبب فقط، حيث المكان والزمان المناسبين 3- فعالية الاصطفاء الطبيعي في الحفاظ على التحسينات المحدودة 4- الثباتية الكافية كي تسمح للصفات الحسنة بالتراكم 5- وجود الوقت المناسب .

وفي الحقيقة وكما يذكر القاضي جونسون "فلقد حاول بعض الرياضيين أن يقوموا بإجراء الحسابات حول احتمالات إمكانية تحقق ذلك التطور المزعوم . لقد كان التقرير مدهشا ليس فقط بسبب المادة البحثية التي تحدّت علماء الرياضيات، وإنما الأهم من ذلك، بسبب الأسلوب والسلوك الذي رد فيه الدارونيون على الموضوع في تقديم مبرراتهم .

فعلى سبيل المثال فإن الرياضي دي. إس. أولم أبدى رأيه بأنه من غير المحتمل بشكل كبير أن العين من الممكن أن تكون قد تطورت بتراكم طفرات صغيرة . والسبب في ذلك هو أن عدد الطفرات ينبغي أن يكون كبيرا جدا في حين أن الوقت المتوفر منذ أن نشأت الكائنات الحية ليس كافيا فيما يبدو لها كي تتكون. السيد بيتر مدور و سي. إتش. و ادنغتون من أنصار التطور كانت دفوعهم ضد أولم ، بأنه كان يجري دراساته بصورة رجعية. إن حقيقة كون العين في رأيهم قد تطورت هو أمر واقع، وعلى هذا الأساس فإن الصعوبات الرياضية هي صعوبات ظاهرية."

يعلق القاضي جونسون على وجهة نظر التطوريين هذه بقوله " يحاول الدارونيون أن يكونوا معقولين ، لكن يبدو الأمر لهم كما لو أن أولم قد قدم معادلة يبرهن فيها أن الجاذبية من الضعف بحيث لا تستطيع أن تقينا جميعا من الاندفاع و التحليق إلى الفضاء."

وكما يذكر القاضي جونسون، فقد حمي وطيس النقاش بعد أن استنتج رياضي فرنسي اسمه شيتزنبيرغر أن " هنالك فجوة معتبرة في فرضية التطور لدى الداروئيين الجدد، ونحن نؤمن بأن تلك الفجوة ذات طبيعة نوعية بحيث لا يمكن تجاوزها من خلال المفاهيم البيولوجية الحالية..... إن الصعوبات التي في كل من فرضيتي الطفرات الكبيرة والطفرات الصغيرة عظيمة بالقدر الذي يمكن أن نتوقع مشاهدة جهود أخرى تصنع، للوصول إلى منطقة وسطية تقلل من العوائق التي لدى كلا الطرفين.

تبرع ستيفن جي. غولد بمحاولة من هذا النوع لرأب الصدع بين الافتراضين, ففي عام 1980 قدم ورقته العلمية وفيها " فرضية جديدة وعامة" حاول فيها غولد إعادة إحياء غولدشميدت من خلال الشرح الذي تناوله حول وحشه حيث قال:" لم يقصد غولدشميدت في الواقع أن (نوعا جديدا من الكائنات يظهر فجأة وحالا، كامل التكوين ، وذلك من خلال الطفرات الضخمة) ووفقا لشرح غولد فإن ما قصده يمكن أن يتوافق مع "أساسيات الداروئية" . إن نوع التبدلات الوراثية التي في رأي غولد (وكما قال غولد وكانت في ذهن غولدشميدت أيضا) هي حدوث طفرة على مستوى المورثة المنظمة للنمو الجنيني، من خلال الفرضية التي " ترى أن التبدلات الصغيرة التي تحدث في المراحل المبكرة من الحياة الجنينية، تتراكم أثناء النمو لتقدم اختلافات معتبرة عند البالغين". ووفقا للقاضي جونسون: ففي الواقع إن على التطوريين أن يقروا بما افترضه غولد . والسبب في ذلك هو أن غولد لم يتمكن من افتراض أي مسلك آخر فيما خلا الذي تحدث عنه، يمكن أن يتحقق من خلاله أي تحول تطوري رئيسي يرأب الهوة بين الافتراضين المتقوضين.

نشر غولد مقالة رئيسية في المجلة العلمية (بليوبيولجي) والتي تعبر عن دعمه لغولدشميدت بشكل أكثر وضوحا. وفيها أعلن الموت الفعلي لتوليفة الداروئيين الجدد. وبدلا عنها فقد رد في مقالته " الأساس والقاعدة في انبثاق الأنواع" أن المرحلة التقريرية في حدوث التطور، والخطوة الأولى نحو التطور القافز، وهي الخطوة التي يرى أن النوع فيها ينتقل إلى نوع آخر، تتطلب طريقة تطورية مخالفة للتراكم الصرف للطفرات الصغيرة " التكوين عبر الوثب إلى تصميم جديد كليا".

لكن آمال غولد خابت بشكل مريع مرة أخرى . إذ أن إرنست ماير وهو صاحب المنصب الأعلى بين الأحياء من بين الداروئيين الجدد، كتب أن غولد قد أساء كليا تقديم نظرية غولدشميدت وذلك عندما أنكر

أن غولدشميدت قد أيد استحالة حصول تحول طفري جهازي ضخم خلال جيل واحد. فعلى سبيل المثال فقد استشهد بعد الموافقة من قبل صاحب العلاقة، باقتراح شيندوولف أن الطائر الأول قد فقس من بيضة حيوان زاحف...."

ريتشارد دوكينز تكلم بفظاظة عن غولدشميدت في كتابه صانع الساعات الأعمى، وانتقد غولد لمحاولته إحياء أفكاره. فبالنسبة لدوكينز "مشكلة غولدشميدت".... قد تبين أنها ليست مشكلة على الإطلاق" لأنه لا يوجد أية مشكلة في الوصول إلى بنى معقدة من خلال التطور التدريجي. وما يبدو أن دوكينز يعنيه من خلال تأكيده هذا، هو أن التطور خطوة- خطوة للأجهزة المعقدة المتكيفة هي إمكانية منطقية، ولا يوجد برأيه برهان على ذلك أقوى من كونها قد حدثت فعلا كما يزعم. يستخدم دوكينز الخفاش من خلال نظام الأمواج الصوتية العظيم الذي يمتلكه كمثال فعلي لما يرى أنه من الممكن للاصطفاء الطبيعي أن يقوم به من تطوير للأنظمة المعقدة، مشبها إياه بالتكنولوجيا الحديثة الخاصة بأنظمة الرادارات في المجتمعات البشرية. لكن بالمقابل يمكن أن يستدل بنفس مثاله أيضا على أن نظام الأمواج الصوتية هو دليل ساطع على وجود " صانع الساعات" (أي المصمم).

ووفقا لجونسون، "لقد كان دوكينز مصيبا في نقاشه حين اعتبر أن الداروينيين إذا كانوا قادرين على إنجاز خفاش ، فهم قادرون على صنع أي شيء. لكن ما أخفق في توضيحه هو هل بمقدور التطور الداروني أن يعمل أي شيء من هذا القبيل". ما يقدمه دوكينز حقا هو تبسيط وتسطيح للخوارق حيث يريد أن يقنع القارئ بأن الخوارق أمر يجب أن يأخذ بالقبول على محمل البساطة دون تعمق وتعقيد. إن العلم لا يريد أن يسمع من دوكينز الآلية التي من خلالها ينظر إلى حدث معين، وإنما يطلب التعرف فيما إذا كان هذا الحدث ممكن الحدوث فعليا وهل يتوافق مع المنهج العلمي الذي أقره بنفسه أم لا؟

لقد وجد دوكينز أن الأمر لابد أن يكون مستحيلا دون اللجوء إلى ما يمكن تسميته القفزات الطفرية المعتدلة، وبمعنى أوضح " الطفرات التي من الممكن أن تكون ضخمة في تأثيرها ، والتي اتضح له أنها لم تكن كبيرة في تعقيدها البنيوي ". ووفقا لدوكينز " من السهل الاعتقاد أن أفعى وحيدة بوجود نصف دزينة من الفقرات التي لم يملكها أسلافها من الممكن أن تكون فد نشأت عن تحول طفري أحادي.".

بناء عليه استخلص القاضي جونسون الخلاصة التالية "لقد افترض غولد ما أراد أن يفترض، و دوكينز وجد من السهل عليه أن يعتقد ما يشاء، لكن الافتراض والاعتقاد ليسا كافيين كي يكونا أساسا في تقديم شرح علمي لمفهوم التطور."

يتساءل القاضي جونسون: هل هناك وسيلة لإثبات أن فرضية الطفرات في المورثات التي تنظم النمو الجنيني قد تزودنا بما يحتاجه التطور لجسر تلك الهوة.

إن الكائنات التي تبدو مختلفة جدا عند البلوغ هي في بعض الأحوال تكون متشابهة كثيرا خلال مراحلها الجنينية المبكرة كما اعتقد هيغل سابقا. وبالتالي فهنالك على العموم، قبول للفكرة القائلة بأن تغيرا بسيطا لكنه أساسي في البرنامج المنظم للنمو قد يوجه نمو الجنين في اتجاه غير اعتيادي. مبدئيا، فإن هذا النوع من التغير من الممكن أن نتخيل أن مهندسي الوراثة البشريين يمكن أن يقدروا على توجيهه يوما ما، فيما لو كان هذا النمط من العلم سيستمر في التقدم على نفس الوتيرة التي سار عليها مؤخرا. لنفترض أنه عقب برنامج بحثي كثيف، استطاع العلماء أن يغيروا البرنامج الوراثي لجنين سمك بحيث نما إلى حيوان برمائي. هل من الممكن لهذا التحصيل الافتراضي للهندسة الوراثية أن يثبت أن البرمائيات في واقع الأمر قد تطورت، أو كحد أدنى من الممكن أن تكون قد تطورت ، بطريقة مماثلة؟

لا لن يكون بوسعه ذلك ، لأن كلا من غولد والآخرين الذين افترضوا النمو بواسطة القفزات الطفرية الكبيرة يتكلمون عن تغيرات عشوائية، وليس تغيرات قد تم تخطيطها عمدا من قبل عاقل كالإنسان أو بالأحرى بواسطة قدرة (إلهية).

ويستنتج جونسون : "الذين يقترحون النمو بواسطة القفزات الطفرية الكبيرة ما عليهم تحقيقه، ليس القول بوجود برنامج بديل وراثي يحكم النمو، ولكن عليهم تقديم دليل عن أن ابتكارا مهما تطوريا يمكن أن يتم إنتاجه بواسطة تغيرات عشوائية وليس (وفق تصميم ذكي) في مستوى التعليمات التوجيهية للمورثات".

وحتى ولو لجأ علماء الوراثة من أنصار التطور افتراضيا إلى تقديم مورثات منتخبة من أنواع من المخلوقات واستطاعوا أن يدخلوها في المخطط الوراثي لأنواع مخلوقات أخرى فكل ما سيكونون قد فعلوه إن نجحوا في تجاربهم، فهو لن يعدو كونه مجرد نقل صفات وراثية مخلقة في الأصل بين الأنواع وهذا

بالتأكيد يعني أنهم لم يركبوا مورثة جديدة لم تكن أصلا موجودة، وهذا ما لايدعم التطور في أي اتجاه بالرغم من أن العملية برمتها يقودها البشر وهم طبعا سيبقون ضمن إطار التصميم الذكي وليس العشوائية.

إن الافتراض السائد في علوم التطور على ما يبدو، هو وجود احتمالات تخمينية بدون أية تأكيدات تجريبية. إن تلك المبادئ تمثل في ساحة البيان ما استند إليه كل من ودينغتون، مدور، ومـاير عندما تحداهم الرياضيون في دفاعهم فزعموا: يجب أن تكون الطبيعة قد قدمت ما في حوزتها من تطور لتقدمه، وإلا لما كان للتطور أن يحدث. كلامهم هذا يعني، ودائما من خلال ما يراه القاضي جونسون: "أنه إذا كان على التطور أن يحتاج إلى الطفرات القافزة الكبيرة، فإن تلك الطفرات الكبيرة يجب أن تكون ممكنة الحدوث، وإذا كانت الطفرات القافزة الكبيرة مستحيلة فإن على التطور أن ينبذها جانبا ولا يعتد بها".

وعلى هذا واستنادا إلى كل ما ذكر سابقا، يمكننا القول بدون أي تحفظ أن أنصار التطور لا يملكون أي دليل علمي محقق حول التطور.فهم يضعون فرضيات ثم يستندون إليها في تبرير وجهة نظرهم. تلك الفرضيات في حد ذاتها، هي بحاجة إلى دليل من العلم لتستند إليه. من الواضح أن الدليل معدوم، أو أن العلم يؤكد عدم صلاحية الفرض نفسه. ومع كل هذا، فهم يستندون إلى تلك الافتراضات الخاطئة، وهذا ما يسمى في العلم الاستناد إلى الأحكام المسبقة والأفكار المعلبة والأساسيات الخاطئة. وهم أيضا عندما يقدمون مبرراتهم لدعم التطور فهم يلجئون إلى متناقضات ومتباينات وذلك بحسب احتياجهم للدليل. فإذا كانت الفكرة لديهم تتطلب دليلا ما محددا فهم يستعينون به. وإذا كان النقيض هو ما يرونه مناسبا، فلا مانع لديهم من إخفاء ذلك الدليل أو إنكاره. هذا الأسلوب من التحكيم هو أسلوب لا يستند إلى أية قواعد علمية، حتى وإن كانت تستند إلى المفهوم المادي للعلم. ففي العلم لا يمكن للمرء أن يتقبل الشيء ونقيضه على أنهما متطابقان أو أنهما يصفان حالة واحدة، لأن مثل تلك الآليات تخالف أبسط الأساسيات في قواعد العلم، وهي عدم جواز وصف ظاهرة معينة بصفة معينة وبنقيضها في نفس الوقت. مثال ذلك قولك القمر نور وظلام، أو الثلج بارد وساخن. فإذا جاز لنا أن نعرف سلوكهم هذا فهو سلوك مراوغ. بناء على ما سبق يستنتج القاضي جونسون التالي:

"العلماء الماديون لا يترددون في ازدراء نظرائهم الخلقيين الذين ينسبون النشوء لخالق يستخدم طاقة خارقة، و التي من غير الممكن ملاحظتها والبرهان عليها في وقتنا الحالي . فإذا ما كان على علم التطور أن يستند أيضا إلى قوى توجيه غامضة أو إلى تحولات وراثية مستحيلة الحدوث، فإن فيلسوفا ماديا كتشارلز دارون عندئذ يكون قد تنكر للتطور و نسب إليه صفة القمامة."

إذن فمن خلال منطق (مادي علمي محض) لقد تبين بشكل واضح أن التطور كنهج، يستند إلى قوى توجيه غامضة وإلى تحولات وراثية مستحيلة الحدوث. وهذا يعني أنه لا يستند إلى أية أسس أو قواعد علمية مادية صرفة، وفقا للشكل الذي تم فيه تعريف العلم من قبل الأكاديمية الوطنية للعلوم في أمريكا ذائعة الصيت، حيث اعتمدت ضرورة استناد العلم إلى الشروح الطبيعية. وعلى هذا الأساس وبالاستناد إلى القاعدة التي وضعتها الأكاديمية الوطنية للعلوم في وصفها للعلم ، فإن (علوم التطور) شأنها في ذلك شأن (علوم الخلق) كلا هما قد أخفق كما يرى جونسون وذلك وفقا لرأي الأكاديمية، في اكتساب صفة العلم.

لكن هنالك فرق بين أنصار التطور وأنصار الخلق في هذا الشأن. أنصار التطور هم أنفسهم الممثلون بالأكاديمية الوطنية للعلوم. فجميع أفراد الأكاديمية هم من التطوريين فكرا ومنهجا واعتقادا. في حين أن أنصار الخلق لا يمثلهم أحد في تلك المؤسسة. أما فكرهم ومنهجهم واعتقادهم فهو كما هو بين، يخالف ويناقض معتقد الأكاديمية الممثل لفكر التطوريين. وإذا كان التطوريون يقرون بالتعريف الذي قدمته الأكاديمية للعلم باعتبار أن جميع أفرادها من التطوريين، فإن أنصار الخلق يقررون بأن العلم لا ينبغي تقييده كما فعلت الأكاديمية بالاستناد فقط إلى الشروح الطبيعية. فهذا في حد ذاته هو تقزيم وتحجيم للمفهوم الصائب للعلم. بل هو تحيز وانحراف عن شمولية مفهوم العلم. من الواضح أن هنالك الكثير من المظاهر الكونية في الطبيعة التي لا يمكن تفسيرها بالاستناد إلى الشروح الطبيعية المادية كما تزعم الأكاديمية الممثلة لأفكار أنصار التطور. فالعقل والروح والحالات النفسية عند البشر والغريزة عند الحيوانات، لا يمكن أن يكون لها أي تفسير مادي طبيعي لا في هذا الوقت ولا لاحقا، كما يزعم أنصار التطور مهما حاولوا أن يجدوا المبررات أو الافتراضات. إن العلوم الطبيعية تستطيع أن تقدم فقط التفسيرات المادية للظواهر الطبيعية ذات الصفة المادية. أما المظاهر التي تتجاوز حدود المادة فهي عاجزة تماما أمامها ولا تستطيع أن

تقدم تفسيرا مقبولا لها. إن المؤمنين بالخلق يؤمنون بأن تلك الظواهر التي هي ما وراء طبيعية هي ظواهر علمية وتفسيرها لا يتأتى عن طريق العلم المادي وإنما يستند إلى النصوص الإلهية، لكن شريطة أن تكون كما تم توضيحه سابقا قطعية الثبوت وقطعية الدلالة. وإلا فإن بابا للتدجيل وللشعوذة له أول وليس له آخر يكون قد فتح يمكن أن يخترقه من يشاء. وعلى الرغم من أن الصفات والظواهر الخارقة للطبيعة هي بمثابة المعجزات التي لا يمكن للعلم المادي أن يفسرها، فإن الخالق تبارك وتعالى قد تفضل بتقديم دلائل وبراهين مادية، يمكن استخدام التفسير العلمي الطبيعي للبرهان على صحتها وحقيقة وجودها. فمن الظواهر الخارقة بل وأهمها وسيدها على الإطلاق هو وجود الله تعالى. فالله تعالى لم يمكن أي إنسان من رؤيته. قال تعالى(لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) لكنه تعالى برهن وبشكل مادي علمي على وجوده وعلى أنه خالق الكون والمتحكم في هذا الكون. كيف ذلك؟ لقد بعث الله تعالى بالرسل والأنبياء الذين هم من البشر والذين شهدوا جميعا بأن الله حق وأنه الخالق والمتصرف بهذا الكون بكل أجزائه. رب قائل يقول ما الدليل على أن هؤلاء الرسل والأنبياء صادقين في رسالتهم وفيما يزعمون؟ والإجابة بينة لمن يريد أن يتأكد، وهي أنه ما من نبي أو رسول جاء إلى قومه إلا وأيده الله بدليل مادي معجز خارق يؤكد أولا على أن هذا النبي صادق في دعواه وأنه جاء برسالة من عند الخالق موجهة للعقلاء من البشر. سنستند في مصدرنا إلى القرآن الكريم حيث نؤمن نحن المسلمون أنه أصدق كتاب على وجه الأرض وهو من عند الله تبارك وتعالى. فممن ذكرهم القرآن الكريم وورد ذكر بعضهم في التوراة والإنجيل نبي الله موسى: لقد أيده الله تعالى بمجموعة دلائل مادية بصرية تمثل معجزات وتؤكد على أنه نبي مرسل من عند خالق كريم يحمل رسالة ليوصلها للبشر. قصة موسى عليه السلام قد ورد ذكرها في القرآن الكريم في سورة القصص وهي بذلك قطعية الثبوت قطعية الدلالة. لننظر في تلك الدلائل المادية تباعا ونقيمها تقييما علميا ثم نرى إن كان هنالك لدى أنصار التطور أي مأخذ على تلك الدلائل: فنبي الله موسى قد ولد في السنة التي كان فيها فرعون مصر (رمسيس الثاني) قد قرر قتل الأطفال المولودين في تلك السنة من بني إسرائيل في مصر. ورمسيس الثاني هو شخصية معلومة وليست شخصية مبهمة. لقد رأى هذا الفرعون حلما بأن طفلا من بني إسرائيل سيسلبه عرشه ولهذا السبب قام بقتل أطفال بني إسرائيل المولودين عاما وتركهم يعيشون عاما. موسى عليه السلام

ولد في عام القتل. وضعته أمه في طوافة صغيرة في نهر النيل وتركته. انتقل الطفل في النيل وتلقفه العاملون لدى فرعون. أدخلوه إلى فرعون الذي لم يكن وقتها يعيش له طفل. زوجة فرعون ارتأت أن تربيه عندها واقترحت على فرعون تبني الطفل. بالفعل قبل فرعون بذلك. تقترح تلك الخلاصة أسئلة مهمة لأنصار التطور:

1- ما هي إمكانية نجاة طفل إذا ما وضع في نهر كنهر النيل؟

2- ما هي احتمالية أن يتم التقاطه ويجاء به إلى فرعون تحديدا؟

3- ما هي احتمالية أن لا يكون لفرعون أي مولود يعيش له في نفس الوقت؟

4- ما هي احتمالية قبول تبني الطفل من قبل فرعون (رمسيس الثاني) وهو الذي يخشى على عرشه من بني إسرائيل؟

إذا قمنا بقياس جميع الاحتمالات السابقة وفقا لقواعد الاحتمالات فيمكن القول بوضوح أن ظاهرة طبيعية كتلك لا يمكن أن تحصل صدفة بأي حال من الأحوال بل لا بد من وجود تصميم ذكي ينظم هذه العملية. إن هذه القصة إن دلت فإنما تدل على وجود عناية أكبر من بشرية وهي التي تتحكم بالبشر، هي التي تحكمت بمصير موسى عليه السلام وتتحكم بمصير غيره من المخلوقات جميعا.

لقد جاءت هذه القصة بتلك التفاصيل في القرآن الكريم كما سجلتها التوراة أيضا، ومن المرجح أن بعض هذه التفاصيل أيضا مدونة في السجلات التاريخية للفراعنة. وموسى عليه السلام شخصية معلومة وموجودة، وقد تربى بالتأكيد في بيت فرعون وهذا يؤكد أن تفاصيل القصة بهذا الشكل هي حق لمن يبحث عن اليقين.

بعد ذلك ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنه حرم على موسى عليه السلام المراضع كي يرده إلى أمه والسؤال هو:

ما هو احتمال أن يرفض أي طفل جنين الرضاعة وهو جائع من غير ثدي أمه؟

ما من شك أن ذلك مستحيل إلا أن يتم بواسطة تصميم ذكي من خلال عناية إلهية تتجاوز حد البشر.

يستمر السرد القرآني، ويكبر موسى عليه السلام ويبعث بالرسالة السماوية هداية إلى فرعون وقومه وإلى قوم موسى. ومع تلك الرسالة يؤيد الله موسى أيضا بقدرات خارقة وهي أن عصاه عندما يلقيها تنقلب إلى

ثعبان هائل يتحرك ويلقف المخلوقات أو الأشياء الأخرى. وعندما يمسك موسى بها تعود أدراجها عصا جامدة لا حياة فيها كما كانت من قبل. كما ويؤيد الله تعالى موسى بانقلاب لون يده إلى اللون الأبيض .

فما هي احتمالات انقلاب عصا من خشب غير حي إلى ثعبان حي يزحف ويأكل وفق زعم التطوريين؟

وما هي احتمالات انقلاب لون ذراع إنسان من لون حنطي إلى أبيض ساطع؟

بالتأكيد فإن تلك الظواهر الخارقة لا يمكن أن تتم إلا بوجود مصمم ذكي هو نفسه الذي صمم الكون وصنع قوانينه. هو الذي لديه القدرة على التحكم في القانون وتبديله، حين جعل من العصا ثعبانا ثم أعاده عصا من جديد.

إن قصة العصا الثعبان قد شاهدها وشهد عليها العديد من قوم فرعون (رمسيس الثاني) وهو معهم، ونفر من بني إسرائيل مرتين كما جاء في القرآن الكريم: المرة الأولى حين دخل موسى على فرعون ليهديه وطلب منه فرعون دليله على أنه نبي مرسل من ربه فألقى موسى عصاه. والمرة الثانية حينما تحدى فرعون وقومه موسى، وزعموا أنه ساحر وحشر الناس بوجود سحرة فرعون في تحد لموسى وشهدوا جميعا المعجزة.

قال تعالى في سورة الشعراء: (قال فرعون وما رب العالمين* قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين* قال لمن حوله ألا تستمعون* قال ربكم ورب آبائكم الأولين* قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون* قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون* قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين* قال أولو جئتك بشيء مبين* قال فأت به إن كنت من الصادقين* فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين* ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين* قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم* يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون* قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين* يأتوك بكل سحار عليم* فجمع السحرة لميقات يوم معلوم* وقيل للناس هل أنتم مجتمعون* لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين* فلما جاء السحرة قالوا لفرعون* أئنا لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين* قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين* قال

لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون* فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون* فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون* فألقي السحرة ساجدين* قالوا آمنا برب العالمين* رب موسى وهارون)

إن القرآن الكريم والتوراة والإنجيل وكذلك ذاكرة المصريين و ربما سجلات الفراعنة تشهد على أن تلك الوقائع قد حدثت بالتأكيد. فإذا كان الأمر كذلك فكيف يستطيع أنصار التطور أن يفسروا لنا تلك الآيات المعجزة (الظواهر الخارقة للطبيعة) . لا يستطيع أحد أن يفسرها إلا بوجود قدرة هي التي لديها الإمكانيات على تعديل وتغيير صفات الطبيعة والتحكم بقوانينها وهذا لا يكون إلا إذا كان من يقوم بذلك هو خالق الطبيعة وبارئها.

ثم يستمر السرد القرآني فيكلمنا الله تعالى عن آيات عديدة أرسلها الله إلى قوم فرعون منها الجراد والقمل والضفادع والدم. لنأخذ ظاهرة الدم التي أكدتها روايات بني إسرائيل : حيث عاقب الله تعالى قوم فرعون نتيجة تعنتهم وكفرهم وقسوتهم بأن جعل الماء حين يأخذونه ليشربونه ينقلب دما قبل أن يصل إلى أفواههم. فكيف يستطيع أنصار التطور أن يفسروا لنا تلك الظاهرة ؟ إن التفسير الوحيد المقبول هو أن من خلق الماء هو نفسه تبارك و تعالى الذي يتحكم بقوانين الطبيعة وهو قد قلب صفات الماء في لحظة واحدة إلى دم عبيط لتكون آية إلى قوم فرعون وآية للبشر الذين يبحثون عن الحقيقة من بعدهم كما جاء ذكر تلك الأحداث في القرآن الكريم في سورة الأعراف. ويستمر السرد القرآني ليتكلم عن رحلة الخروج لموسى عليه السلام وقومه من مصر إلى فلسطين. لقد جمع فرعون (رمسيس الثاني) جنوده ولحقوا بموسى وقومه ليقتلوهم. وعندما تلاقت الفئتان عند طرف البحر الأحمر أمر الله موسى بأن يلقي عصاه في البحر وإذا بالبحر ينشق إلى فرقتين ويترك بينهما ممرا آمنا ليس فيه ماء كي يعبره موسى وقومه. ومرة أخرى نرى العصا تعمل عملا غير التي هي مخصصة له. لقد دونت التوراة حادثة انفلاق البحر ومن المرجح أيضا أن سجلات الفراعنة إن صدقوا في تدوينهم قد دونوا تلك الحادثة. وعلى أية حال فالأمر لا يحتاج إلى شهادتهم ، لأن هنالك ما هو أعظم وأدق من تلك الشهادة وهي دليل يمثل قرينة تركها الله تعالى لنا تدل على حصول الحدث وسنأتي عليها لاحقا. و يستمر السرد القرآني حيث يخترق موسى وقومه اليبس بين طرفي الماء ويصل فرعون إلى ذلك الممر بين المائي ويتبع قوم موسى في نفس الممر وحينما يعبر قوم موسى البحر ويصلون

جميعا إلى اليابسة، وفي الوقت الذي يتبعهم فرعون وجنوده، وقبل أن يصلوا إلى اليابسة ينغلق الماء كما كان أصلا على فرعون وجنوده ويغرقون أجمعين . قال تعالى (فأتبعوهم مشرقين* فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون* قال كلا إن معي ربي سيهدين* فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم* وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين* ثم أغرقنا الآخرين* إن في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين* وإن ربك لهو العزيز الرحيم*). هنا لا بد من معاودة السؤال إلى أنصار التطور، هذه الحوادث الإعجازية المتعددة التي حصلت أثناء عبور بني إسرائيل كيف يفسرها أنصار التطور؟ هل حدثت مصادفة؟ من المستحيل لعاقل أن يقول أنها قد حدثت مصادفة لأن الأحداث أحداث مرتبة ومنظمة وتدل على وجود تصميم ذكي قد نظم الأحداث، هو من أمر بشق البحر وفصل الماء ثم أعاد إغلاقه من جديد. وهذا الإجراء المعجز لا يمكن لأحد أن يؤديه إلا خالق الكون الذي يتحكم بتلك القوانين الكونية. إن الطريقة الوحيدة التي يمكن لأنصار التطور أن يلجئوا إليها في نقاشهم هي أن ينكروا صحة الحدث وأن ينسبوه للأساطير. لكن هنالك ثلاثة أمور أخرى تؤكد صحة الحدث: أولها هو السرد التاريخي والتدوين الذي أنجزه اليهود من أحفاد بني إسرائيل الذين تناقلوا أخبار ذلك التاريخ الأبناء عن الآباء، وهم جميعا موقنون بحدوثه لأنهم يحتفلون في يوم محدد في كل عام بنجاتهم من فرعون. أما الأمر الآخر فهو ما أتينا عليه سابقا وذكرنا أنه دليل يمثل قرينة. فالله تعالى لم يترك الأمر كي ينكره من ينكره دون قرينة مادية تدل على حدوث الحدث الجلل. لقد قام علماء بإجراء دراسة باستخدام الأقمار الصناعية في مسح للبحر الأحمر واكتشفوا في مسحهم موقعا في طرف البحر فيه آثار لأعداد هائلة من العربات الناقلة للجنود من التي كان يستخدمها المصريون القدماء وآثار لعظام وحوافر للخيل بأعداد كبيرة تدل على غرق جيش بأكمله وبعتاده في زاوية البحر الأحمر. يعتبر هذا الدليل قرينة مادية تركها الله تعالى لنا لتأكيد صحة الحادثة وصحة ما جاء من سرد قرآني لما حصل في حينه. لكن هنالك أيضا أمر ثالث يعتبر أعظم قرينة يمكن أن تكون دليلا على وجود الخالق وعظمة فعله وأنه يعلم ما كان وما يكون و ما سوف يكون، وأنه هو الذي يتحكم في كل جزئية في هذا الكون. إن الكتب السماوية التي أرسلها الله للبشر عن طريق الرسل هي كتب هداية. وهذا يعني أن في مكنونها ما يوجه من خلال الاستدلال بالعلوم الدنيوية إلى

تأكيد ألوهية الله. فبمقابل النظرة الوجودية التي تتنكر لوجود أية قدرة تصميمية لهذا الكون لابد من أن يرسل الله في كتبه المرسلة من الشواهد العلمية مايدل على أنه هو المصمم لهذا الكون وذلك من خلال استقراء بعض الآيات. وهكذا فالله تعالى في القرآن الكريم حين سرد لنا قصة غرق فرعون وبعد أن ذكر أن فرعون قد أعلن إيمانه بالله ولكن الله لم يتقبل منه هذا الإيمان المتأخر بعد المعاصي و الفظاعات والمظالم التي ارتكبها بحق الناس قال تعالى " وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين* الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين* فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية* وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون " والآية كما قدمنا هي الدليل والبرهان العلمي، حيث يكون المعنى أن الله تعالى سينجي فرعون ببدنه ليكون دليلا على أن الله حق. فكيف يكون ذلك؟ الله تعالى قد أغرق فرعون وذكر أنه سينجيه ببدنه. فهذا يعني أن ينجي البدن أو الجسد ولكن مسلوب الروح، ويتركه لمن سيأتي بعده من البشر دليلا على صحة كل تلك الأحداث والمعجزات التي صحبت فترة حياته وذلك كتأكيد للسرد التاريخي للحدث، كي لايشكك مشكك بمصداقية ذاك الحدث. القصة كلها أصبحت الآن واضحة، فقد تولى الله لفظ جثة فرعون إلى شاطئ البحر دون أن تأكلها الأسماك أو حيوانات البحر أو أن تتفكك أو تتحلل، وتولى أن يحضر من المصريين القدماء من تعرف عليها. ثم أخذت هذه الجثة وتم تحنيطها مثلها مثل بقية الفراعنة ومن ثم تم دفنها. الآيات الكريمة تلك نزلت على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قبل ألف وأربعمائة عام، وقد كان سلطان الفراعنة قد زال قبل ألف عام من ذلك التاريخ. فلا رسول الله ولا أحد ممن عاصروه كان يعلم ما الذي أصاب جثة فرعون هذا أو ماذا حصل لها. ولم يكونوا يعرفون حتى قصة هذا الفرعون أو اسمه باستثناء ما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم. واستمر الأمر بهذا الشكل إلى أن جاء الفرنسيون بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام بألف ومائتي عام و بدءوا ينقبون في الآثار المصرية ويعثرون على مومياءات الفراعنة. وبالرغم من السرقات التي طالت قبور الفراعنة بما تحتويه من كنوز ونفائس، بقيت تلك المومياءات سليمة تماما. ومنذ مدة قريبة في نهاية القرن الماضي، عثر على مومياء أحد الفراعنة وكانت أكثر المومياءات اكتمالا وسلامة واحتفاظا بالملامح الشكلية مقارنة مع غيرها. تبين أن صاحب تلك المومياء كان أحد الفراعنة

المعمرين. لقد تم التأكد من أن تلك المومياء تعود إلى الفرعون رمسيس الثاني. وبالعودة للسجلات الإسرائيلية، فقد كانت السجلات ترجح أن يكون رمسيس الثاني هو فرعون موسى , بالرغم من أنه كانت لديهم بعض الشكوك حول وجود اثنين من الفراعنة ربما عاصرا موسى عليه السلام، فرعون الرعاية وفرعون الخروج. وعلى هذا وفي بداية ثمانينات القرن المنصرم تمت استعارة المومياء الخاصة بهذا الفرعون من قبل فرنسا لإجراء بعض الدراسات عليها. واستقبلت في فرنسا استقبال الملوك ومد لها البساط الأحمر. ثم أخذت المومياء إلى مركز البحث وتم إجراء الدراسات عليها. تبين من خلال الدراسات العلمية أن هنالك نسبة أملاح عالية في المومياء تتطابق مع كون صاحب الجثة تلك قد مات غرقا في البحر. كما أشارت الصور الشعاعية إلى وجود بقايا محار في جوف المومياء مما يؤكد صحة كون الجثة قد عثر عليها في البحر. وهكذا تبين من خلال الدراسات العلمية المادية (للجثة التي تخص الفرعون رمسيس الثاني) أن الفرعون قد مات غرقا وهذا ما يتطابق حرفيا مع الآيات الكريمة في القرآن الكريم والتي تحدثت عن فرعون واحد فقط، حيث أنجاه الله تعالى ببدنه أي بموميائه الحالية. وقد تبين تاريخيا أن موسى عليه السلام قد عاصر فترة رمسيس الثاني. وهكذا اتضحت الصورة تماما. تقف تلك المومياء في المتحف المصري الآن شاهدا حقيقيا لتدل تمام الدلالة على صدق وصحة كامل قصة موسى وفرعون كما جاءت في القرآن الكريم. مما يؤكد معرفة الله تعالى الأزلية بما كان، من خلال سرد أحداث القصة بتلك التفاصيل، وبما سيكون من خلال تأكيده في القرآن الكريم وتعهده بأن ينجي تلك الجثة الميتة لتكون لنا في مرحلة لاحقة بعد أكثر من ثلاثة آلاف عام شاهدا وقرينة وعبرة. أما حفظ تلك الجثة بشكل هو الأكثر سلامة ودقة واكتمالا بين أقرانها بعد أكثر من ثلاثة آلاف عام من موتها لهذا الجيل الحالي، فهذا يدل على أن الله تعالى يتحكم في مجريات الكون وأن الكون يقوم بأمره ووفق إرادته وقوانينه لا يتزحزح عنها قيد أنملة. فهل من الممكن بعد كل ذلك، بأي احتمال كان، أن تتصادف الأحداث بهذا الشكل ويأتي رسول الله محمد عليه أفضل الصلاة والسلام قبل ألف وأربعمائة عام ليقدم لنا من خلال القرآن الكريم سردا لقصة فرعون موسى بتلك الدقة، ثم تنجلي الحقائق بعد ألف وأربعمائة عام من وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وبعد أكثر من ثلاثة آلاف عام عن غرق ذلك الفرعون بتلك المصداقية التي لا تجاريها أية مصداقية ممن سردوا أو عرفوا الحدث. كيف

يستطيع أنصار التطور تفسير كل ذلك؟ إذا كان أنصار التطور عاجزين عن تفسير تلك الآيات البينات فإن عليهم أن يقروا من وراء تعريفهم لعلوم الخلق "بأنها لا تمثل علما لأنها تخفق في عرض الصفة الأساسية الأولى للعلم: ألا وهي الاستناد إلى الشروح الطبيعية." أولا - أنهم قد قدموا تعريفا قاصرا للعلم باستثنائهم العلوم النقلية عن الله تعالى ورسله التي يشترط فيها أن تكون قطعية الثبوت وقطعية الدلالة والتي تقدم علما يتجاوز في دقته وصحته أي شكل من أشكال العلوم الأخرى. ثانيا - أنهم ادعوا لأنفسهم حقا في تحديد ما هو العلمي و ما هو غير العلمي في الوقت الذي قصروا تحديدهم للعلمي على المادي، بدليل نفيهم لعلوم الخلق كعلوم. ثالثا- أنهم أنكروا حقيقة يقوم عليها الكون والوجود وصلاح الجنس البشري، هي حقيقة وجود الخالق الكريم بصفته المصمم والمسير والمهيمن على هذا الكون بكل مجرياته وتفاصيله. رابعا- أنهم قد خدعوا الناس عن علم أو عن غير علم، خلال المائتي عام التي خلت بمزاعم بعيدة عن أي منهج أو منطق علمي.

لقد أخفق أنصار التطور إخفاقا ذريعا في اجتياز ما اعتبروه بزعمهم دستورا للعلم حين أخفقوا في أن يفسروا التطور بالاستناد إلى ما زعموا بأنه شروح طبيعية.

لقد بينا أن أحد أهم الوسائل وأكثرها دقة والتي يلجأ ويستند إليها أنصار الخلق هو العلم النقلي الذي جاء عن الخالق تبارك وتعالى أو عن رسله. ولقد بين الله تعالى في كتبه السماوية التي نزلت على الأمم الثلاث أنه هو خالق كل شيء وأنه خلق الإنسان وخلق المخلوقات جميعها. ولم يأت ذكر التطور في القرآن الكريم أو في أي من الكتب السماوية. لذلك يمكن القول أن حقيقة الخلق قد جاءت قطعية الدلالة وقطعية الثبوت. بمعنى أنه لا يوجد هنالك أي شك من أن الله تعالى قد خلق المخلوقات بشكل منفصل، كل نوع على حده، كما أكدت ذلك الأحافير والمستحاثات في العصر الكامبري، دون أي شكل من أشكال التطور المزعومة، والتي تستند إلى الطفرات والاصطفاء الطبيعي التي زعمها أنصار التطور. وبما أن الله تعالى قد بين لنا بشكل قاطع الدلالة في كتبه السماوية أنه أوجد الكائنات خلقا منفصلا، فلا بد أن هنالك من الدلائل الساطعة ما يشير إلى هذا الخلق المنفصل بدون أي ريبة أو أي شك وبوضوح كامل. لقد تفضل الله تعالى وأمر الإنسان في البحث في هذا الخلق وليس في التطور الذي يتنافى كليا مع كمال قدرة الله تبارك وتعالى ووجوده. قال تعالى " قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق". وهذه إشارة منه تبارك وتعالى إلى الأمر بالبحث بطرق

الملاحظة والتجربة أي بطرق العلم المادي الذي يستند حسب التطوريين إلى المصادر الطبيعية. معلوم أن الدلائل الطبيعية التي ينبغي أن تشير إلى الخلق هي المخلوقات في ذاتها أو في ما تركته من بقاياها من مستحاثات مثلما هو الحال بجثة فرعون التي جاء ذكرها. لقد قام العلماء من أنصار الخلق بإجراء دراسات بحثية واسعة على المستحاثات في الأحافير في الطبقات الجيولوجية المختلفة، كما قام أنصار التطور بإجراء دراساتهم الواسعة في هذا الصدد. وقد رصد القاضي فيليب جونسون تلك الأعمال فكتب:

"لكن التطور في النهاية هو موضوع يتناول التاريخ، إنه يسعى ليخبرنا ماذا حدث في الماضي. ومن هذا المنطلق فإن ما يمكن أن نستشهد به هو المستحاثات".

المستحاثات:

لقد افترض بشكل رئيسي أن تواجد بقايا المستحاثات من الأنواع المنقرضة يعتبر ضروريا للبرهان على التطور، وأن معظم الناس لا يعلمون أن أشد الناس معارضة لدارون ليسوا رجال الدين وإنما خبراء المستحاثات. في بدايات القرن التاسع عشر كانت النظرية الجيولوجية السائدة " نظرية التراكم الكارثي" والتي وضعت من قبل العالم الفرنسي المتألق كيوفير, وهو الذي ابتدع علم المستحاثات. اعتقد كيوفير أن السجل الجيولوجي قد قدم نموذجا لأحداث تاريخية شملت حدوث انقراض هائل في المخلوقات، تبعه بعد ذلك مراحل من الخلق، حيث ظهرت أشكال جديدة من الحياة دون أية دلائل تشير إلى أية مظاهر تطورية.

وفي فترة دارون تم استبدال فرضية كيوفير بفرضية أخرى هي الجيولوجيا التنسيقية التي وضعها صديق دارون الأكبر سنا، تشارلز لييل. لقد شرح لييل أن الملامح الطبيعية المفترضة، لم تنجم عن حدوث كارثة وإنما كانت بسبب الفعل الهائل و البطيء للقوى الطبيعية التي تعمل بشكل يومي".

إلا أن الملاحظ لعمل الطبيعة يرى أن الكائنات المختلفة الحية التي تموت بشكل طبيعي، عادة ما تتعرض لعوامل التفكيك والتفسخ المختلفة وتتحول لاحقا إلى تراب. وبالتالي فمن المرجح ألا يبقى لها أثر مستحاثي يذكر بعد انقضاء أحقاب عديدة. لكن وجود مستحاثات لأشجار واقفة أو فقاريات مكتملة أو حتى انطباعات لأنسجة رخوة في الأحافير لابد أن يشير إلى أن تلك الكائنات قد تعرضت للموت بشكل صاعق وليس تدريجيا. إن الكثير من المظاهر الجيولوجية تشير إلى مثل هذه الملاحظات في المستحاثات مما يدل على أن

تفسير كيوفير ربما يكون أكثر دلالة من تفسير لييل الذي تم اعتماده وتبنيه. لقد بينت الدراسات الجيولوجية التي قام بها كلا الطرفين أنصار التطور وأنصار الخلق أن المستحاثات قد دلت بشكل لا لبس فيه على وجود انفصال كامل في الأنواع، وعلى عدم وجود أي شكل من أشكال التدرج التطوري بين المخلوقات المختلفة. لكن أنصار التطور مع إقرارهم بتلك النتائج، لم يعترفوا بان ذلك هو دليل على الخلق، وكأن مشكلتهم تكمن في الإقرار بالخلق بدل التطور. لقد زعموا وجود حلقات مفقودة لابد من كشفها. تابع القاضي جونسون الموضوع وكتب:

"تي. إتش . هيكسلي الذي مرارا ما حذر دارون سرا من أن فرضية كتلك التي لا تملك شواهد تشير إلى وجود مخلوقات وسيطة إنتقالية، كان ينبغي عليها أن تتيح المجال لافتراض وجود قفزات كبيرة. ووفقا لدارون " إن الارتباطات بين الأنواع غير المستمرة والتي تواجدت في فترة ما، قد انقطعت نظرا لغياب القدرة على التكيف.". لكن السؤال المهم هو ماذا لو أن هذه الارتباطات الضرورية لم تفقد فقط من عالمنا الحالي وإنما أيضا من السجلات المستحاثية للماضي؟؟ إن ما اكتشفه الجيولوجيون هو أنواع وزمر من أنواع، ظهرت فجأة بدلا من أن تظهر في نهاية سلسلة من الارتباطات التطورية.".

فدفاع دارون " إن الارتباطات بين الأنواع غير المستمرة والتي تواجدت في فترة ما، قد انقطعت نظرا لغياب القدرة على التكيف." يمكن أن يكون مقبولا بشرط أن نجد ولو لمرة واحدة شكلا مستمرا من أشكال الاتصال بين السلف وبين الأنواع الجديدة المزعومة الناجمة عن السلف. أما أن تكون جميع أشكال الارتباط بين كل الأنواع المختلفة من المخلوقات مقطوعة، فهذا يعني بالتأكيد ألا وجود أصلا لهذه الارتباطات. لقد قام الدكتور بيهي بإجراء تشبيه لطيف للدفاع الذي تقدم به دارون ، فافترض وجود حاجز هو خندق ضيق يفصل بين بيته وبيت جاره، ثم في اليوم التالي وجد جاره في حديقته. إن الافتراض الطبيعي هو أن الجار قد قفز فوق الخندق ووصل الحديقة. افترض بيهي لاحقا أن عرض الخندق أكثر اتساعا ويصل إلى ستة أمتار، ومع ذلك فقد لاحظ أن جاره قد وصل إلى حديقته ولما سأله كيف وصل؟ أجاب الجار بأنه قفز عبر الخندق. يفترض بيهي في تلك الحالة أنه كي يتأكد أنه فعلا عبر ذلك الخندق الواسع قفزا فإن على الجار أن يبرهن أنه رياضي بارع ويستطيع أن يقفز الأمتار الستة. غير بيهي الافتراض مرة ثالثة. وفي هذه المرة جعل

عرض الخندق ثلاثين مترا، ثم لاحظ أن جاره قد وصل الحديقة أيضا. هنا يؤكد الدكتور بيهي على ضرورة وجود تفسير منطقي يشرح كيف تمكن الجار من عبوره للخندق الذي بذلك العرض الواسع. إن زعم الجار بأنه أثناء عبوره برزت نواتئ من الأرض استطاع أن يقفز إليها. وكلما عبر ناتئا عاد أدراجه مسطحا كما كان، وهكذا إلى أن وصل إلى الحديقة، هو كلام إما ألا يعول عليه أو أنه بمثابة المعجزات التي من المرجح أن لا تحصل لهذا الجار. بذلك استنتج بيهي أن انقطاع كل أشكال الارتباطات بين الأنواع المختلفة للمخلوقات الأسلاف واللاحقة يدل على أن تبرير دارون بقوله " إن الارتباطات بين الأنواع غير المستمرة والتي تواجدت في فترة ما، قد انقطعت نظرا لغياب القدرة على التكيف." يشبه وإلى حد بعيد تبرير الجار لوجوده في الحديقة من خلال بروز النواتئ من الأرض فجأة ثم اختفائها. و يتابع القاضي جونسون:

"لا يوجد أي شرح يوضح كيف أن البرمائيات كان بمقدورها أن تطور حيوانا زاحفا بواسطة التكاثر، من خلال الانحدار في السلالات ذات النمط الداروني.

هنالك ملامح كثيرة مهمة تختلف فيها الثدييات عن الزواحف، وهي إلى جانب الفك وعظام الأذن، تتضمن كل عناصر الأجهزة التناسلية المهمة، وكما لاحظنا في أمثلة سابقة، أن الاختلاف في صفة واحدة هيكلية بين نوعين اثنين مختلفين، ليس من الضروري أن يشير إلى أي تحول تطوري. إن وجود تشابهات في أنواع مختلفة من الكائنات، والتي هي خارج نطاق المجال الممكن حدوثه في الأصل المشترك الواحد، توجه الاهتمام فقط إلى حقيقة أن التشابه الهيكلي ليس ضروريا أن يبنى عليه أصل مشترك واحد.

إن الفكرة التي تقول أن الثدييات بصورة عامة قد تطورت عن الزواحف بعمومها، من خلال قفزات واسعة في الخطوط التطورية المتنوعة لا تتماشى مع الدارونية. فالتحول الدارويني يتطلب خطا وحيدا ممتدا من الأصل السلف".

ووفقا للمقالة التي كتبها بيتر وولينهوفر عام 1990 والتي راجع فيها التطور بصفته مفوضا ذو صلاحية، فإنه لاحظ أنه من المستحيل تقرير أن الكائن المزعوم (Archaeopteryx) وهو من المستحاثات التي يزعم أنصار التطور أنها تقع بين الزواحف والطيور كان في واقع أمره جدا للطيور الحالية. وولينهوفر يستنتج " إن تلك العلاقة الارتباطية لا يمكن اعتبارها ذات قيمة فعلية".

من الرئيسيات إلى الإنسان:

بالطبع فما قد حدث في الواقع وكالعادة، أن الفرضية قد تم قبولها في البداية، ثم أن الشواهد الداعمة لها من ثم تم اكتشافها وتفسيرها ، وذلك من خلال الخطوات التي بذلت لاستكشاف " الروابط المفقودة" والتي تطلبتها تلك الفرضية. والسؤال الذي تفرضه تلك الأحداث المسلسلة هو فيما إذا كان الخيال الداروينى قد لعب دورا مهما أم لا، في بناء تلك الشواهد التي تم تقديمها لدعم النظرية الدارونية.

إن علم الإنسانيات التطبيقي _ وهو دراسة لأصل الإنسان_ هو حقل من الدراسة كان تقريبا متأثرا خلال تاريخه بعوامل وهمية أكثر من أي فرع من فروع العلوم الأخرى المعترف بها. ومنذ الوقت الذي جاء فيه دارون وإلى الآن، فإن " أصل الإنسان" قد أقر كحقيقة حضارية تحتاج إلى برهان تجريبي، ولقد كانت المكافأة لمن يقدم دليلا مستحاثيا معقولا للحلقة المفقودة، هي الشهرة التي تطبق الأفاق.

كان الضغط للحصول على براهين عظيما جدا، حتى أنه قاد إلى واحدة من التزييفات المذهلة، وهي رجل "Piltdown" الذي احتفظ به الموظفون الرسميون بحماس مانعين أية استقصاءات ربما تقوم بها أيد غير صديقة، مما أتاح الفرصة له في توفير خدمة مفيدة لأنصار التطور في تطويع الرأي العام لمدة أربعين عاما.

إن المناخ النفسي الذي يحيط بدراسة المستحاثات ذات الصلة بالبشر يعتبر وبشكل خارق، حافلا بالذكريات التي فيها توقير يشابه ما كان يحدث للرفات في العصور الوسطى. ولقد عبر عن تلك الظاهرة أحد علماء الاجتماع خلال ملاحظته لتلك الطقوس في التعاطي مع المستحاثات التي يزعمون صلتها بالبشر لدى طائفة من علماء الإنسانيات بقوله " تبدو لي العملية كما لو أنها شكل من أشكال العبادة للأسلاف".

إن وصف المستحاثات من قبل أشخاص يتوقون لحضن أسلافهم في أيديهم، ينبغي أن يتم تدقيقه بعناية، مثله مثل رسالة توصية مرسلة من قبل أم و تتعلق بتوفير فرصة عمل لابنها.

في كتابه تطور الإنسان قدم لوين أمثلة عديدة عن التحيز الشخصي الذي كان يكتنف البحث في أصل الإنسان، مما قاده إلى الاستنتاج بأن هذا الحقل من الدراسة، كان بشكل منظور و ثابت، متأثرا بنزعة خيالية إنسانية مشخصنة. وبعبارة إنكليزية واضحة (وفقا للقاضي جونسون)، "فهذا يعني أن ما نراه هو ما نريد نحن أن نراه إلا أن نكون دقيقين جدا في استقصائنا و بدون أية أحكام مسبقة".

لقد كان علماء المستحاثات البشرية ينتقدون أعمال بعضهم. وبالتأكيد فإن التنافس الشديد بينهم يتحمل مسؤولية نسبية عن التحيز الشخصي في أحكامهم. لكن السؤال الذي كانوا يتناقشون حوله هو، أي مجموعة من المستحاثات تعتبر المرشحة الأكثر دقة للإخبار عن قصة تطور الإنسان؟ ولم يكن السؤال المطروح يوما هو حقيقة أن مثل هذا التحول من الرئيسيات إلى الإنسان هل قد أكدته أو برهنت على وجوده تلك المستحاثات ؟.

وبالنسبة لهؤلاء الذين قرروا أن يكرسوا حياتهم لاستكشاف (حقيقة) تطور الإنسان من الرئيسيات، فإن الأشخاص الذين يشككون في تلك المقدمة المسلم بها (حقيقة التطور) هم بالتعريف، أنصار الخلق، ولذلك يجب ألا يجري تحميل رأيهم أي محمل للجد.

سولي زوكرمان، وهو واحد من أهم علماء بريطانيا تأثيرا، لم يكن تقديره للمعايير المهنية المستخدمة بما يتعلق بعلوم الإنسانيات مشجعا : لقد اعتبر المعايير المهنية أشبه بهيستيريا نفسية وقد سجل أن الافتراضات الطائشة المتعلقة بنشوء الإنسان: " هي مذهلة جدا بحيث أنه من المحتم السؤال فيما إذا ما تبقى هنالك أي علم يمكن أن يتضمنه هذا الحقل على الإطلاق".

إن المقدمة المنطقية في منهجية زوكرمان كانت تستند إلى أن الأولوية الأولى للباحثين في نشوء الإنسان، ينبغي لها أن تتجنب عوامل الضعف مثل مستحاثات بيلتداون ورجل نيبراسكا، لا أن تسعى لأن تجد مستحاثات يمكن من خلال دلائل غير مؤكدة، التصريح بأنها أسلاف بشرية.".

يستنتج القاضي جونسون " إن غياب وجود شواهد مستحاثية معقولة لتطور الإنسان هو أمر لاشك فيه."

إذن فالدلائل المادية العلمية تشير بشكل واضح جدا إلى أن كفة الخلق هي الصواب وأن التطور سواء بالنسبة للإنسان أو في المخلوقات المتنوعة الأخرى هو مجرد مزاعم لا أساس لها من الصحة. نلخص هذه الدلائل كما يلي:

1- غياب وجود أي شواهد في المستحاثات على ظهور أي شكل من أشكال الارتباط ممثلا بالكائنات الوسيطة بين الكائنات السلف وما يزعم التطوريون أنها الكائنات الحية التي تأتت عنها.

2- الظهـور المفـاجئ والواضـح للأنـواع المختلفـة للمخلوقـات فـي السـجلات المستحاثية بدون أي شكل من أشكال التدرج (الحقبة الكامبرية).

3- غيـاب وجـود أي علامـات أو دلائـل تـدل علـى فعـل التطـور بـين المخلوقـات الحالية، حيث تبدو جميع المخلوقات الحية الآن كمخلوقات نهائية.

4- غياب وجود كائنات حية وسيطة بين الكائنات السلف المفترضة وبين الكائنـات التي يزعم أنصار التطور أنها تطورت عن السلف.

5- غياب وجود أعـداد كبيـرة متنوعـة مـن الكائنـات الحيـة و الـذي يحـتم التطـور ضرورة وجودها مقارنة بالعدد النسبي المحدود من الأنواع المختلفـة للكائنـات الحية الموجودة حقيقة في الطبيعة.

6- الثباتية الواضحة في الأنواع وعودة المخلوقـات المهجنـة إلـى الأشـكال البريـة الأصل بعد توقف التهجين.

7- تضافر الكائنات الحية بشكل يضمن وجود هرم غذائي تستفيد فيه الأنـواع مـن بعضها في دورة غذائية منتظمة.

8- جميع الكائنات الحية مجهز كل منها بالنموذج الجهازي والوظيفي الأمثل الـذي يحقق أفضل مردود ممكن وفق الخصائص التكوينية المتعلقة بالنوع.

9- التنسيق والتنظيم الشكلي والهيكلي الظاهر لكل المخلوقات الحية والذي يدل على براعة التصميم

10-البناء الوظيفي المعقد والـدقيق لكـل المخلوقـات الحيـة والـذي يحتـاج إلـى خبـرة وبراعـة ودقـة وتصميم وإنجاز يفوق بملايين من المرات، أي نظام قام بتصميمه إنسان في الكون.

<u>البيولوجيا الجزيئية والتطور:</u>

معلومات بيولوجية:

تمتاز المنظومات الحية بوجود كميات هائلة من المعلومات (على سبيل المثال، DNA). ليس هناك قانون فيزيائي أو كيميائي أو عملية معروفة يمكنها أن تنتج المعلومات التي تمتاز بخصائص لها دلالتها. التعقيد، ربما

نعم، ولكن ليس أنظمة معلومات. لا يمكن للخصائص الدلالية أو النوعية أو ذات المغزى أن تتدفق من الجمادات أو من الطاقة وحدها. فالقوة الوحيدة في استقصاءاتنا المعروفة والتي بمقدورها إنتاج مدلول ما له معنى هي العقل وعلى سبيل المثال، تسلسل الحروف "مصتيم" ليس له أي معنى. ولكن الحروف نفسها عند إعادة ترتيبها في "تصميم" لديها شيء جديد هو معنى ومعلومات مستمدة من العقل، وليس أي مصدر آخر. يفسر هذا الأمر عالم الفلك بول. ديفيز:

تحتوي ندف الثلج على معلومات موجهة في ترتيب محدد وفق أشكال سداسية، ولكن هذه الأنماط ليس لديها العنصر الدلالي، لا معنى لأي شيء خارج الهيكل نفسه. على النقيض من ذلك، فإن السمة المميزة للمعلومات البيولوجية هو أنها مليئة بالمعنى. يخزن الحمض النووي التعليمات اللازمة لبناء عضو فعال. بل هو مخطط أو خوارزمية لمنتج مخصص، ومحدد سلفا. ندف الثلج لا ترمز أو تشير إلى أي شيء، في حين أن الجينات تفعل ذلك بالتأكيد. لتفسير الحياة تماما، فإنه ليس كافيا ببساطة تحديد مصدر الطاقة الحرة، أو الانتروبيا السلبية، لتقديم معلومات بيولوجية. علينا أيضا أن نفهم كيف تأتي المعلومات على نحو له دلالته إلى حيز الوجود. إنها نوعية المعلومات وليس مجرد وجودها ، هي الحقيقةً الخافية هنا.

يعكف القاضي جونسون على تناول البيولوجيا الجزيئية وعلاقتها بالتطور فيكتب:

" ووفقا لمقال حديث، يتناول مراجعة أعدها روجر لوين " إن الفرضية التي نحدد بواسطتها ميلاد أنواع جديدة من الكائنات، من خلال رسم بياني للتراكم الثابت للطفرات خلال المرحلة التطورية، تعاني من إشكال عويص". يبدو أن المعطيات تبدو قليلة جدا كي تقدم أي تفسير من قبل أصحاب المذهب الانتقائي، وهي ليست كافية حتى، لتفي بتقديم أي شرح من قبل أصحاب المذهب الطبيعي".

يعتبر الدارونيون أنه من الحماقة بمكان لأي امرئ عالم بالشواهد الجزيئية أن تبقى لديه الجرأة في أن يشكك "بالتطور". ذلك التطور الذي يعني النمو التدريجي الطبيعي لأشكال الحياة من خلال التحدر من سلالة ما، مع التعديل الطارئ، وبشكل متدرج من أشباه الخلايا وإلى الإنسان.

إذا كان التنوع في الجزيء هو الأمر الوحيد الذي ينبغي أن يتم تفسيره، فإنه لن يكون هنالك مبرر للشك بأن الطفرات الحيادية من الممكن أن تتراكم وتتسبب في نموذج ذو ارتباطات جزيئية. إن الإشكال الحقيقي يقبع

في تفسير كيف أن هذه الجزيئات ينبغي أن تندمج داخل العضويات، التي يجب أن تكون متطورة من الأسلاف، إلى أشكال الخلف برفقة جزيئاتها. إن الأسلاف الشائعة والروابط الانتقالية لا تزال تمثل ظواهر افتراضية، غائبة بشكل جلي في السجل المستحاثي، حتى بعد البحث المضني و الهادف. والأهم من ذلك، هو أن العلم لا يدري بوجود أية آليات طبيعية قادرة على تحقيق التغييرات الضخمة في الشكل والفعالية، المطلوبتين لإتمام السيناريو الداروني.

تضيف البيولوجيا الجزيئية إلى الصعوبات الأخرى، البيانات العلمية التي تشير إلى أن الجزيئات في حد ذاتها هي عناصر أصيلة في آلات معقدة، وهي تحتاج إلى التعاون المتكافل لكافة تلك الأجزاء المعقدة هائلة العدد، من أجل إتمام أدائها لوظائفها.

إن الصعوبة في تفسير إمكانية تطور البنى الحية من خلال الطفرات والاصطفاء تتفاقم أكثر وأكثر، كلما تقدمنا في الاستكشاف باتجاه درجة أعلى من التعقيد. إن الشواهد الجزيئية بالتالي، تخفق في إثبات إما حقيقة الأسلاف المشتركة أو كفاية التقنية الدارونية. لقد تبين للعلماء في الدراسات مؤخرا (عام 2016) وفي كل الكائنات الحية وجود العديد من المورثات المقطوعة النسب بالمورثات التي يفترض أنها المورثات الأم (orphan genes). (المورثات اليتيمة) ووفقا لعالم المايكروبيولوجيا الفرنسي (Didier Raoult) من جامعة مرسيليا " إن الدقة المفترضة والمتعلقة بحقيقة الأصل المشترك في شجرة النشوء والارتقاء كنموذج دال على التطور قد تم مرارا التساؤل بشأنها. فالمفهوم الأساسي يزعم أن جميع الكائنات الحية قد توالدت من أصل مشترك واحد... وهذا يتناقض تماما مع معارفنا الحالية. فالتحاليل التي تمت على المورثات الجرثومية تشير إلى أنه ما بين 10 إلى 15% من المورثات في كل نوع منها لا يوجد ما يوافقها في الأنواع الأخرى السلف وهي بالتالي مورثات مقطوعة النسب لابد أنها ناجمة عن / تخلق مورثات/".

وفي الواقع، فإن اختبار الدارونية باستخدام الشواهد الجزيئية لم يجر حتى معاينته ودراسته بشكل علمي. وكما هو الحال في المواضع الأخرى، كان الهدف هو إيجاد توثيقات للنظرية التي افترض استنتاجيا أنها صحيحة منذ بداية الاستقصاء عنها. والسؤال العلمي الحقيقي الذي لم يتم طرحه أبدا، هو هل أن الشواهد الجزئية بالكلية، تميل إلى تأكيد الدارونية حين يتم تقييمها بدون أي تحيز داروني؟".

يمكننا أن نستنتج بناء على معطيات البيولوجيا الجزيئية ما يلي:

1- غياب وجود أية دلائل على حدوث طفرات بالرغم من العديد من الفرص التي أتيحت للمخلوقات المختلفة نتيجة التعرض الشعاعي والتجارب المعملية، وحدوث التشوهات بدلا عن ذلك.

2- وجود أنظمة خمائرية إصلاحية دقيقة جدا على مستوى الكروموزوم والمورثات يمنع حصول الطفرات وفق المزاعم التطورية، بالتالي لا يمكن أن تكون الطفرات المزعومة سببا للتطور وحدوث التنوع الملحوظ في الكائنات الحية.

نشأة الحياة:

تستند نظرية داروين في الاصطفاء الطبيعي على افتراض أن الاختلافات في أشكال الحياة تتطور تدريجيا على مدى فترات طويلة من الزمن من خلال تراكم التغييرات الصغيرة جدا. ومع ذلك، فإن السجل الأحفوري يتناقض مع هذا التوقع. وبادئ ذي بدء، تشير الأدلة الحالية أن الخلايا الأولى الحية ظهرت على وجه الأرض على الفور تقريبا (في غضون بضعة ملايين من السنين) بعد أن أصبحت درجة الحرارة على الأرض تسمح بالحياة على الرغم من أن العلماء توقعوا في البداية أن الأمر سيستغرق عدة مليارات من السنين من أجل الحياة لتنشأ. إن ظهور الحياة البكتيرية كان قريبا جدا من الوقت الذي انخفضت فيه درجة حرارة الأرض دون الغليان، مما يشير إلى ظهور مفاجئ بدلا من الظهور التدريجي للحياة. لقد أرخ"الانفجار الكمبري" أيضا لظهور سريع لأكثر من أربعين شكلا من أشكال الحياة الجديدة والمتميزة في الآونة التي وقع فيها منذ حوالي 550 مليون سنة، حيث ظهر في وقت واحد تقريبا المخطط الأساسي لجميع أنواع الكائنات الرئيسية وبمخالفة مباشرة للنظرية الداروينية. اقترح كل من ستيفن غولد و نايلز إلدردج نظرية "التوازن المتقاطع" في محاولة ل "شرح" الظهور المفاجئ لأشكال الحياة تلك. لكن مما يؤسف له، أنها فعلا لا تشرح أي شيء. فهي ببساطة تفترض أن التطور قد حدث بآلية متقطعة وغير منتظمة عندما لم يكن أحد يراقب ، وتغيرت الحيوانات بسرعة بحيث لم يتح هناك أي وقت كاف للتحجر أو

أنه كان هناك عدد قليل جدا من الكائنات "الوسيطة" المتحجرة. هذا لا يعد دليلا، إنما هو نوع من التمني، وليس هناك أية آليات بيوكيميائية معروفة من الممكن أن تدعم التغيرات المفاجئة وواسعة النطاق في الجينوم. في كلتا الحالتين، سواء كان الأمر بشكل تدريجي أو ظهور مفاجئ للحياة مع مرور الوقت فالأمر يمكن استيعابه من خلال نظرية التصميم الذكي باعتبار أن التصميم الذكي لا يعير أهمية لمعدل التغيير ولكن يتناول الإشراف على تنمية الحياة. لا يدعي التصميم الذكي غياب مشاركة أية عملية تطورية في نشوء الأنواع المختلفة. إنما يدعي أن التطور لوحده غير كاف لتفسير كل أشكال الحياة المتنوعة.

ينتقل القاضي جونسون بعد ذلك للحديث عن ظروف نشأة الحياة والشروط الفيزيائية والكيميائية المتعلقة بذلك:

" التطور البيولوجي هو جزء واحد رئيسي فقط من بين أجزاء مشروع طبيعي ضخم، يهدف إلى إيجاد تفسير يتناول كل شيء بدءا من الانفجار الكوني المزعوم وحتى الحاضر، دون السماح بإتاحة أي دور للخالق كي يؤديه. فإذا ما كان على الداروينيين أن يدعوا الخالق بعيدا عن صورة الخلق كما يزعمون، فإن عليهم أن يزودوننا بشرح طبيعي يتناول نشأة الحياة.

إن الصعوبة الرئيسية في شرح كيف أن الحياة من الممكن أن تكون قد نشأت، هو أن جميع العضويات الحية معقدة بشكل هائل، وأن الاصطفاء الداروينى لا يمكنه أن يقدم أية آلية ولو بشكل نظري، تبرر كيف أن العضويات الحية قد تواجدت و كان لديها القدرة على التكاثر و إنتاج أفراد جنسها.

إن التحدي المطروح في التطور الكيميائي، هو في إيجاد طريقة كيميائية لتكوين ارتباط كيميائي، إلى الدرجة التي تسمح للتكاثر ومن ثم الاصطفاء بأن يبدأا.

لا يوجد أي مبرر للاعتقاد بأن لدى الحياة القدرة على الانبثاق الذاتي، في الوقت الذي يكون فيه العنصر الكيميائي الصحيح في حالة تجوال عبثي داخل إي حساء عضوي كان. وعلى الرغم من أن بعض المركبات داخل الأنظمة الحية من الممكن أن تتضاعف بواسطة تقنيات متقدمة جدا، فإن العلماء الذين يستخدمون الطاقة الكاملة لما يملكونه من الذكاء، لا يمكنهم صناعة عضويات حية بدءا من الحموض الأمينية، السكاكر، وما أشبه. كيف بالتالي حصلت تلك الأسطورة (التحول من الحساء ما قبل الحياتي إلى خلية حية)

قبل أن يظهر إلى الوجود ذلك الذكاء العلمي؟ إن العضوية الحية الأبسط، القادرة على الحياة بشكل مستقل هي الباكتيريا من أشباه الخلايا، وهي قطعة عظيمة من تركيب معقد هائل في الصغر، يمكن أن يجعل من مركبة الفضاء تبدو أمامها عبارة عن تكنولوجيا متخلفة.

حتى لو افترضنا أن شيئا ما أبسط كثيرا من الخلية الجرثومية قد تكون كافية لبدء التطور الداروينى كي يأخذ فعله. وكمثال على ذلك جزيء ال (دي إن إي) أو ال (آر إن إي). فإن إمكانية أن يقوم هذا الجزيء المعقد بتركيب نفسه من خلال الصدفة، لا يزال بشكل خيالي، أمرا غير وارد ، حتى ولو أتيح له بلايين من السنوات الضوئية للمحاولة.

إن تجميع أي معقد بواسطة الصدفة هو تماما **(طريقة طبيعية)** للقول بأنها **(معجزة)**. و التفسير العلمي لتلك المعجزة ليس بالتأكيد أمرا ضروريا عند الدارونيين. و في حده الأقصى، فإن عليهم أن يتعاملوا مع المشكلة من خلال جدل فلسفي. من الواضح عند الدارونيين أن الحياة قائمة، وإذا ما كانت العملية الطبيعية هي التفسير الوحيد الممكن والمتاح لتواجد تلك الحياة، فإن الصعوبات التفسيرية عندما تظهر، لا يجوز أن تكون غير قابلة للقهر.

فالرأي الداروني يقول: تبدأ القاعدة بوجود مدلولاتها أي أنفسنا وتعمل بطريق رجعي. فإذا ما كانت الظروف المتطلبة للحياة كي تتطور غير موجودة، فهذا يستوجب أن نكون نحن غير موجودين من أجل التعليق على الموضوع. وعندما يكون التوقيت والفضاء لا نهائيين، فإنه حتى الأحداث شديدة الندرة يجب أن تحدث على الأقل مرة واحدة، ونحن بالضرورة قد تواجدنا في زاوية الوجود، حيث حدث أن تراكبت المجموعة الخاصة من الصدف الضرورية لوجودنا.

ريتشارد دوكينز, وهو الذي يمتلك الرخص الدارونية في تحويل الخسارة إلى ربح، كما يرى فإن إخفاق العلماء في تكرار التوليد العفوي للحياة في مختبراتهم قد ألهم دوكينز الذي كتب: "وبالتالي فإنه بعد كل ذلك، فإن العلماء قد عجزوا عن محاكاة التطور القافز الكبير أيضا. فإذا ما كان خلق الحياة أمرا سهلا بحيث أنه بمقدور العلماء أن ينجزوه، فإنه كان من الممكن للطبيعة أن تتسبب في خلق الحياة على الأرض مرارا ، هذا فضلا عن إمكانية ظهور الحياة على الكواكب التي تقع في مدى الإشعاعات". يعلق القاضي جونسون

قائلا"إذا كان القارئ يشك في أن دوكينز لم يكن جادا حين قدم جدليته هذه، فربما يكون على صواب. فعندما يصبح الأمر ضروريا للاستناد إلى جدلية مثل تلك ، فإن العمل التجريبي يجب أن يكون قد بلغ مسارا سيئا للغاية" حيث وفقا لتصريح دوكينز السابق فإن التجارب المخبرية في التطور سوف لن تجدي إي نفع .

ينبغي عندئذ أن توجد طريقة ما يتوسع فيها مفهوم التطور إلى حد يخترق فيه حدود الجزيئات في النظام الوراثي. في العضويات المعاصرة، ال (دي. إن. إي) و (آر. إن. إي) و البروتينات تعتبر هذه الجزيئات ذات فعاليات متبادلة يتوقف بعضها في كينونته على البعض الآخر. وخلال وقت سابق، كان المرشح الرئيسي الأشهر " المورثة العارية" أو فرضية " ال آر. إن. إي أولا"، استنادا إلى الفرضية الأولى التي تقول أن الحياة قد بدأت عندما تمكن جزيء الرنا بمضاعفة نفسه بدءا من المركب العضوي الموجود في الحساء ما قبل الحيوي. ووفقا للكيميائي الحيوي كلاوز دوز: " إن هذه الفرضية تتعدى و تتجاوز حدود منهج كل الكيميائيين الحيويين والأخصائيين في البيولوجيا الجزيئية الذين يواجهون يوميا تجارب تتعلق بحقائق الحياة. ذلك طبعا، ينبغي أن يكون مبررا أكثر من كاف لنبذ تلك النظرية.". لقد أنهى جيرالد جويس مقالته التي تتضمن مراجعة شاملة للتطور عام 1989 بما اسماه " النقص في المعطيات التجريبية ذات الدلالة".

إن مظاهر إمكانية تحقيق النجاح التجريبي التي أعلن دوكينز عجزها كانت مخيبة للآمال بحيث دفعت العلماء الرواد من أنصار التطور أن يتجهوا إلى برامج محاكاة باستخدام الكمبيوتر، حيث تجاوزوا فيها العوائق التجريبية وذلك باستخدام فرضيات تتلاءم مع أهدافهم.

لخصت مقالة في مجلة "علم" في عام 1990 وضع الأبحاث في الكمبيوتر بأنها " تنظيم عفوي ذاتي" وهو مفهوم يعتمد على مقدمة منطقية ترى بأن الأنظمة المعقدة الديناميكية تميل إلى حالة من التنظيم الدقيق التلقائي، حتى أثناء غياب الضغوط الانتقائية. هذه المقدمة يبدو أنها تخالف القانون الثاني المشهور للتيرموديناميك، الذي يقول بأن الطاقة المنتظمة و بشكل مؤكد، سوف تتفكك إلى حالة من عدم الانتظام، أو في احسن الحالات " نحو الاضمحلال". بالتالي إذا كان لنموذج المحاكاة باستخدام الكمبيوتر أن يملك أية واقعية أو صوابية فإن هذا أمر يحتاج إلى إعادة نظر .

لاشك أن فرانسيس غريك المستكشف المساعد لبنية الدنا. كان يملك إدراكا تاما للتعقيد الهائل للحياة الخلوية وبالتالي الصعوبة البالغة في تفسير كيفية نشوء الحياة خلال الوقت المتاح المزعوم لنشوء تلك الحياة على كوكب الأرض. لذلك فقد قدم افتراضه بأنه من الممكن للظروف أن تكون أكثر ملاءمة لنشأة الحياة في كوكب ما بعيد. إن هذه الخطوة، أمكنها أن تنقل المشكلة في نشأة الحياة من الأرض إلى كوكب آخر لكنها لا تقدم حلا لها. طور غريك من وحي ذلك فرضية دعاها " بنك الحيوانات المنوية الموجه". لا شك أن غريك بوصفه مكرس نفسه لا ديني سوف يكون مستاء من أي عالم سيتوقف عن البحث العلمي ويصف نشأة الحياة من خلال تبريرها بخالق قام بفعل خارق للطبيعة. لكن فرضيته "بنك الحيوانات المنوية الموجه" تلك، تشير في حقيقتها إلى نفس المدلول، وهو أن هنالك خالق خارق للطبيعة هو الذي خلق الخلق.".

بناء على تلك الخلاصة الموسوعية الشاملة والرائعة في نفس الوقت، التي قدمها القاضي جونسون فقد وصل بنفسه إلى نتيجة دقيقة جدا مفادها:

" إن الاستقصاءات العلمية المتعلقة بنشأة الحياة تمثل بابا مغلق الإحكام كما لو أن الله قد احتفظ بهذا الموضوع لنفسه.".

من خلال ما سبق يتبين أنه قد توضح للجميع ومن خلال كافة المعطيات العلمية والتجريبية استحالة إمكانية نشوء الحياة من العدم أو من الجماد. فالحياة تتطلب موجدا يوجدها ولا يمكن لهذا الموجد إلا أن يكون خالقا مقتدرا حتى يأذن للحياة بالوجود. إن استنتاج القاضي جونسون أعلاه يتطابق أيما تطابق، وهو الذي لم يطلع على ما في القرآن الكريم، مع الآية الكريمة "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا". فالروح هي من يمنح تلك الجمادات الحياة بصفاتها المعروفة. ومن الواضح والمؤكد أن منح الحياة للجمادات سواء بالطرق التجريبية أو بطرق التطوريين العشوائية هي ضرب من المستحيل الآن، وسيكون مستحيلا في المستقبل كما هو عليه الأمر الآن. السبب في ذلك واضح جلي، وهو أنه لا الإنسان ولا الطبيعة يملكان مفتاح الحياة ولا الوسائل التي تمنحهما القدرة للوصول إلى هذا المفتاح. والخلاصة العلمية التي قدمها القاضي جونسون تمثل ملخصا متكاملا لموقع العلم الآن من هذا الموضوع. والله تعالى في آيته المعجزة تلك يقدم تحديا عمليا للبشر وما يملكونه من علوم إلى قيام الساعة حين يقرر أن مفتاح الحياة (قل

الروح من أمر ربي) أي لم يعطها أو يتحها لإنسان قط بل احتفظ بها لنفسه وهذا تماما ما وصل إليه القاضي جونسون بعلمه. وفي نهاية الآية الكريمة تذكرة من الله تعالى حتى يدرك الإنسان حدود إمكانياته (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)، وهذا يعني أن كل ذلك الاعتزاز والثقة الفائضة عن حدها بالنفس التي بلغها العديد من العلماء ينبغي أن يعاد تشذيبها بحيث يعود الإنسان مدركا حدود إمكانياته والتي أكد الله تعالى للناس أنه هو المانح لها وهو الذي يعلم مقدارها فذكر أن ما منحه من علم للإنسان ليس إلا مقدارا ضئيلا.

نستنتج مما سبق الدلائل التالية التي تؤكد الخلق وتنفي التطور:

1- حتمية وجود نظام معاكس في تخلق الكائنات يعاكس النظام الذي يزعم التطوريون أنه قد تولد أولا. فالمخلوقات التي بمقدورها الاستفادة من عملية التركيب الضوئي هي أول المخلوقات التي ينبغي أن تكون قد ظهرت على الأرض. وهي التي وفرت الغذاء لبقية المخلوقات التي أتت لاحقا وهذا يدل على التنظيم التعقيدي منذ البداية. فالمعقدات جاءت قبل الكائنات الأبسط.

2- الدقة المتناهية و الثباتية في جميع القوانين الكونية الفيزيائية والكيميائية و البيولوجية التي أتاحت الفرصة لظهور الحياة واستمرارها في هذا الكوكب، و غياب تلك المعطيات التي تدل على انبثاق الحياة العفوي في الأرض أو أي كوكب آخر منظور.

لقد تأكد للقاضي جونسون استبعاد أي إمكانية لنشوء الحياة بدون خالق عظيم موجد لتلك الحياة. لذلك عاد إلى رأي العالم غريك مبينا: " وعندما يشعر عالم في مستوى غريك بأن عليه استجداء وسيلة ما لتأكيد نشأة الحياة، ليس بالإمكان الحصول عليها، فإن هذا يعني أنه قد حان الوقت لإعادة النظر فيما إذا كان الحقل الخاص بالتطور ما قبل البيولوجي قد وصل إلى نهاية مقفلة.". نعم هو بالفعل قد وصل إلى نهاية مقفلة وغير قابلة للفتح وهذا يعطي إشارات استفهام كبيرة وعديدة جدا حول حقيقة التطور كفرضية علمية مقبولة.

يتابع القاضي جونسون استقصاءاته حول آراء أنصار التطور في نشأة الحياة ويقدم استفساراته في هذا الشأن فيكتب:

" في كتابه (في سبع إشارات حول نشأة الحياة) يشرح إي. جي. كارين سميث المفاهيم الدارونية حول الحياة والتي توضح التطور في الحقبة ما قبل البيولوجية، حيث يكتب " الحياة هي حصيلة التطور" والعنصر الذي لا يستغنى عنه في التطور هو الاصطفاء الطبيعي. وهذا يعني أن هدف الكائن الحي هو الحفاظ على حياته، المنافسة، التكاثر لنوعه في مواجهة الكائنات الأخرى". وبهذا النحو المقدم، فإن الاصطفاء الطبيعي لا يمثل شيئا ما قد حدث للحياة، بل هو(الصفة المحددة لتلك الحياة).

لكن ماذا لو أن دارون كان مخطئا، ولم يكن لدى الاصطفاء الطبيعي تلك القدرة الخلاقة المذهلة التي حباها إياه دارون وأنصاره؟ عند ذلك الحد، فإن العلم ما قبل البيولوجي يكون قد أخفق في تصور المشكلة، وإن الجهود المبذولة سيحكم بعدم جدواها مثلما هو الحال في جهود كيميائيي العصور الوسطى الذين كانوا يحاولون تحويل الرصاص إلى ذهب.

يستخدم الجميع عبارة الاتصال الذكي عند وصف التصنيع البروتيني: رسائل، معلومات مبرمجة، لغات، معلومات، تشفير وحل الشيفرة، مكتبات. فلماذا لا يأخذ بعين الاعتبار أن الحياة وكما تبدو بشكل جلي، هي نتاج ذكاء خلاق؟

إن العلم من خلال هذا الفهم وهو التصميم الذكي، سوف لن يصل إلى نهايته ، والسبب هو أن المهمة ستستمر في فك الرموز اللغوية التي تتواصل من خلالها المعلومات الوراثية، وبشكل عام، استقصاء كيف يعمل النظام بأكمله. ما سيفقده العلماء من وراء ذلك، لن يكون برنامجا بحثيا ملهما، وإنما وهم الهيمنة الكلية على الطبيعة. إن عليهم أن يواجهوا الإمكانية القائلة بأن خلف هذا العالم الطبيعي هنالك حقيقة إضافية تتفوق على العلم.

لكن إجابة كارين سميث على ما سبق هو أنه ملتزم بالحكم الجائر الذي تبنته الأغلبية "والذي هو تعويذة (القوى الطبيعية الخارقة) التي بدأها دارون والتي ستعود لتفسر أصل الحياة" فمواجهة تلك الإمكانية (بوجود خالق للكون) كما جاء في الفقرة السابقة هو أمر بالتأكيد غير مقبول عنده".

هنا لابد من التساؤل إذا كان الاصطفاء الطبيعي هو الصفة المحددة للحياة كما قدم كارين سميث، فلماذا لا يتم تحريض الحياة تجريبيا باستخدام مادة من جماد أو من خلال إحياء مادة ميتة ذات أصل حي باستخدام ذلك

الاصطفاء الطبيعي المزعوم؟ الله تعالى في القرآن الكريم يقول (يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي)، فهل يستطيع الاصطفاء الطبيعي أن يفعل فعلا كهذا!!!! لقد تحدى إبراهيم عليه السلام النمرود فقال له كما جاء في القرآن الكريم (ربي الذي يحيي ويميت) وكان رد النمرود في جدليته على إبراهيم (أنا أحيي وأميت). كان قصد النمرود من وراء ذلك أنه يأمر بأحدهم فيقتل ويدع الآخر فيبقى حيا. أي تهافت كهذا التهافت. إن إبراهيم عليه السلام حين وصف قدرة الله تعالى على الحياة والموت، وصف هبة الحياة للجماد وسلب الحياة من الحي. وأغلب الظن أن النمرود قد فهم ذلك، لكنه أحب أن يبرز ذكاءه وحنكته. لكن ذكاءه وحنكته خانتاه عندما تحداه إبراهيم عليه السلام بمسألة مادية لا تحتمل الفلسفة، حين قال له (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب إن كنت من الصادقين) وقد بين لنا الله تعالى موقف ذلك المتفلسف في حينه. قال تعالى (فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين). إن الاصطفاء الطبيعي هو فلسفة، ليس فيه من العلم أي شيء على الإطلاق. وإذا كان كارين أو غيره من أنصار التطور على ثقة من أن الاصطفاء الطبيعي يصنع المعجزات، فأمامه التحدي التجريبي ليقدم وصفته كيف يشاء. لكن إذا عجز وهو بكل تأكيد عاجز، فعليه أن يقر إقرارا كاملا بأن نظريته ونظرية دارون من قبله وأنصار التطور من بعده، ما هي إلا مجرد خداع لا تملك أي دليل ولا تستحق أن تسمى إلا مجرد مزاعم.

من خلال التحليلات السابقة يمكننا أن نستدل على الشواهد التالية التي تؤكد الخلق وتنفي التطور:

1- تضافر وجود الكائنات الحية بشكل يضمن توفر هرم غذائي تستفيد فيه الأنواع من بعضها في دورة غذائية منتظمة.

2- جميع الكائنات الحية كل منها مجهز بالنموذج الجهازي والوظيفي الأمثل الذي يحقق أفضل مردود ممكن وفق الخصائص التكوينية المتعلقة بالنوع.

3- التنسيق والتنظيم الشكلي والهيكلي الظاهر لكل المخلوقات الحية والذي يدل على براعة التصميم.

4- البناء الوظيفي المعقد والدقيق لكل المخلوقات الحية والذي يحتاج إلى خبرة وبراعة ودقة وتصميم وإنجاز يفوق بملايين من المرات، أي نظام قام بتصميمه إنسان في الكون.

التشذيب النهائي للكون :

لقد اعترف العديد من علماء الفيزياء الفلكية وعلماء الكونيات منذ سنوات أن الكون يبدو أنه "مصقول". "دقيق الهندسة" (وهذا مرادف لأنه "مصمم") مشيرين في ذلك إلى وجود ثوابت رياضية دقيقة جدا ومتوازنة بشكل معقد متضمنة في القوانين الفيزيائية. قوة الجاذبية، وكتلة الإلكترون، شحنة البروتون، وما إلى ذلك من قيم حقيقية محددة. ففيما لو كانت تلك القوانين مختلفة ولو قليلا عما هي عليه، فإن الأمر لن يتوقف على اختفاء وجود الحياة ، وإنما لا شيء (يحمل أي معنى) سيكون موجودا. يعترف مارتن ريس بأن هناك اثنين فقط من الحلول المرضية للانتظام الدقيق: إما بفعل تصميم أو إمكانية محدودة لتوقع كون عالمنا قد يكون مجرد واحد من عدد لانهائي من الأكوان المستقلة الموازية، مما يجعل إمكانية وجود عالمنا "بهندسته الدقيقة" أكثر احتمالا . وكونه مكرس نفسه لمذهبه الطبيعي ، ومن أجل تجنب الاستنتاج الذي يؤكد التصميم فلا بد لمارتن ريس من الاحتجاج بوجود شواهد عن عدة أكوان غير مرئية وغير قابلة للكشف. فهو يقترح أنه علينا أن نعتبر أن الأرض ليست إلا مجرد كوكب صغير في النظام الشمسي تدور حول نجم صغير في الفناء الخلفي لأحد المجرات متوسطة الأبعاد من بين مليارات من الكويكبات. لكن الأدلة قد دلت على أن موقع الأرض في الكون فريد بشكل ملحوظ. وبالتالي، فإن الأدلة من "الانضباط الدقيق" للكون وموقع الأرض هو دليل تفضيل وأولوية للتصميم. وبالإضافة إلى هذه العلامات والأدلة على التصميم الذكي، هناك النتائج التي تخفق في دعم النظرية المضادة، مما يزيد في تعزيز موقف التصميم.

يعود القاضي جونسون من جديد إلى اختصاصه كقاض وبعد أن شرح القضية، ووضح أدلة كل من الطرفين، وبين نقاط الخلاف بدقة متناهية، وشرح مفاهيم التطور ومصطلحاته بشكل دقيق، وحدد مواقع الخلل في تلك المفاهيم، و وضح مكامن الزلات في تلك الفرضية، حان الوقت لكي ينطق بالحكم القضائي الذي يتناسب و تلك القضية. يكتب القاضي جونسون:

" لقد أقرت السلطة التشريعية في ولاية آركنساس تشريعا يطلب " معاملة بالمثل متوازنة بين علم الخلق وعلم التطور". لكن المعارضين اشتكوا للقضاء في المحكمة الفيدرالية المحلية بأن هذا التشريع وبشكل معلن مخالف للدستور، ومن ثم تم إعداد المنصة بطريقة يكون فيها الصراع غير متكافئ على الإطلاق.

لقد كان تشريع آركنساس (الذي اقترحه أنصار الخلق) يمثل عملا لنشطاء هواة لا يملكون فكرة واضحة حول كيفية اجتذاب التأييد من المحيط، خارج نطاق إطارهم المحافظ الضيق.

وكنتيجة لذلك، فقد واجه المتدينون الملتزمون ائتلافا من مجموعات راغبة في الدفاع عن كل من العلم (بمفهومه المادي فقط) ومجموعات تتبنى نموذج التدين التحرري. هذا الائتلاف لم يتضمن المؤسسات الرئيسية الفاعلة والعلماء والمعلمين فحسب، ولكن اتحادات التحرر الأمريكية الوطنية، إضافة إلى عدد كبير من الشخصيات والمنظمات التي تمثل الاتجاه السائد لدى الديانتين المسيحية واليهودية. لقد نال هذا الائتلاف أيضا خدمات من قبل فريق، يمثل النخبة بين المحامين،حيث تطوع لخدمته واحد من أكبر وأفضل مكاتب المحاماة.

هؤلاء الاختصاصيون، و في دعوى " قضية كبيرة" كتلك، قد عرفوا كيف يعدون ويختارون قادة علميين ومتدينين من أجل تقديم شهادة خبرة، تجعل من العلم الخلقي شيئا سخيفا منافيا للعقل، لا يستحق أي اهتمام جدي.

وهكذا فاز الطبيعانيون المتحيزون بالقضية في سنة سعيدة.

بدأ القاضي إيفرتون بتعريف العلم بأنه " أي شيء مقبول من قبل المؤسسة العلمية" وهو ما يعني بالتأكيد المؤسسة العلمية الرسمية. لكن ذلك التعريف في حد ذاته لم يقدم معلومات واضحة. وتابع القاضي ليحدد خمسة خصائص أساسية للعلم: وهي أنه (1) يجب أن يتم توجيهه بواسطة القانون الطبيعي. (2) ينبغي أن يكون قابلا للتفسير بالاستناد إلى القانون الطبيعي. (3) وهو قابل للاختبار من خلال العالم التجريبي. (4) وأن النتيجة التي يقدمها ليست نهائية.- بمعنى، أنها ليست بالضرورة أن تكون الكلمة الفصل, وأخيرا (5) يجب أن يكون قابلا للنقد.

- إن علم الخلق لا تنطبق عليه تلك المواصفات، وفقا للقاضي إيفرتون، لأنه يستند إلى ما وراء الطبيعة، وبالتالي فهو غير قابل للاختبار. وهو لا يمكن تخطئته أو " تفسيره بالاستناد إلى القانون الطبيعي."
- وكشرح توضيحي للصفة اللاعلمية للادعاءات التي لدى الخلقيين، فقد اقتبس القاضي الفقرة التالية من كلام للعالم الخلقي (ديوان غيش): " لا ندري كيف خلق الله الخلق، وما هي الآلية التي استخدمها، حيث استخدم الله عملية لا تعمل الآن في هذا العالم الطبيعي. ولهذا السبب نحن نعزو الخلق الإلهي إلى خلق خاص. ليس بمقدورنا أن نستكشف باستخدام الاستقصاءات العلمية الحالية، أي شيء يتعلق بالآلية التي استخدمها الخالق في إنجازه للخلق".

في نفس الوقت ، فقد أنكر القاضي إيفرتون وبشكل ساخط حجج الخلقيين في أن " الإيمان بالخالق مع قبول النظرية العلمية التطورية في ذات الوقت يتناقضان بشكل كامل مع الدين". حيث وصف هذا الرأي بأنه " يعادي وجهة النظر الدينية لدى كثيرين".

وجد فلاسفة و أساطنة العلم عيوبا كثيرة في تعريف القاضي إيفرتون، وقد لمحوا إلى أن روس والخبراء الآخرين قد ابتلعوا الطعم الفلسفي المقدم من قبل أنصار التطور.

لكن المدافعون عن الخلق وضحوا أن العلماء على أقل تقدير، ليسوا أيضا ممن يقبلون النقد حول العديد من أساسيات ما يدلون به، و يتضمن ذلك إدلاءاتهم حول التطور.

بالإضافة إلى ذلك، فإن العلماء قد اعتادوا القيام بدراسة ظواهر (مثل الجاذبية) لم يتمكنوا من تفسير تأثيراتها و مدلولاتها باستخدام القانون الطبيعي.

في النهاية لاحظ النقاد أن علم الخلق يمتلك حججا تجريبية خاصة مثل (الكرة الأرضية حديثة العهد، الطوفان الذي أصاب العالم، والخلق الخاص) والتي قال فيها أنصار الاتجاه العلمي الرئيسي المتعارف عليه من التطوريين قولهم ، بأنها خاطئة من خلال التعاريف المقدمة سابقا. فكيف يزعمون لنفس الفقرة بثبوت خطأها وفي نفس الوقت يدعون أنها لا يمكن تخطئتها؟

لقد أخفق تعريف روس – ايفرتون في إرضاء الفلاسفة، لكنه، أشاع السرور في المؤسسة العلمية.

إن هذا التوجه يلخص الطريقة التي يراجع فيها الكثير من العلماء مشروعهم ، والذي يجعل من هذا الموضوع نقطة انطلاق لتحديد ما الذي ينبغي أن يتضمنه العلم وما الذي يجوز أن يستثنيه؟

فبوجود خالق مقتدر، فإنه من الممكن له أن يخلق الأشياء فوريا خلال أسبوع واحد أو أن يخلقها من خلال تدرج تطوري يستغرق بلايين السنين. وهو من الممكن أن يستخدم وسائل غير متاحة للعلم، أو كحد أقصى آليات، من الممكن أن تكون مفهومة جزئيا من خلال الاستقصاءات العلمية.

إن النقطة الأساسية في الخلق ليس علاقته بالتوقيت ولا بالطريقة التي اختارها الخالق لإنجاز الخلق، وإنما تتعلق بعنصر هذا التصميم والغاية منه.

وبمعنى أوضح، فإن " المؤمن بالخلق" هو ببساطة الشخص الذي يؤمن أن العالم (وخصوصا الإنسان) قد تم تصميمه ووجوده بهدف غاية معينة.

ومن خلال طرح الموضوع بتلك الصورة، فإن السؤال الأساسي يصبح: هل يعارض التيار الرئيسي من بين العلماء إمكانية كون العالم الطبيعي قد تم تصميمه من قبل خالق ولقصد معين؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فإلام استندوا؟

لقد تم إقناع القاضي إيفرتون أن " الخلق" (من خلال المفهوم العام لمعنى التصميم) يتوافق مع "التطور" كمفهوم علمي. ولقد أخطأ القاضي في فهم هذه النقطة أو أنه تم خداعه.

عندما يتكلم البيولوجيون التطوريون عن " التطور " فإنهم لا يشيرون إلى الآلية التي كانت أو من الممكن أن تكون قد تم توجيهها من قبل طاقة خارقة للطبيعة (هي الخالق).

إنهم يعنون بالتطور التطور الطبيعي، وهي عملية مادية بالمطلق ليس لها أي توجه ولا تعكس أية غاية واعية.

عرف جورج غيلورد سيمبسون " معنى التطور" : بالرغم من أن الكثير من التفاصيل لا تزال عالقة تنتظر التفسير ، فإنه من الواضح أن الظواهر الهادفة لتفسير تاريخ الحياة يمكن شرحها بطرق طبيعية محضة أو، من خلال عوامل مادية، وهي كلمات من الممكن أن يساء فهمها. إنها قابلة للتفسير تلقائيا بالاستناد إلى التكاثر المتخالف في الجمهرة المجتمعية (التي تمثل العامل الرئيسي في الفهم المعاصر

للاصطفاء الطبيعي) ومن خلال التفاعل العبثي لعملية الوراثة المعروفة.... فالإنسان هو نتاج عملية طبيعية بلا هدف حيث لم يكن في حسبانها إنتاجه (يؤكد " الإنسان.... في حسبانها إنتاجه" مكررا")."

الذي قصده سيمبسون بإمكانية شرح ظواهر الحياة وفق طرق طبيعية محضة: هو حصريا، إلغاء وجود قوة دافعة إلهية ذات أي دور على الإطلاق في إنجاز أي عمل له علاقة بوجود أو خلق الكائنات. أما ماعناه في تفسير تلك الظاهرة (تلقائيا بالاستناد إلى التكاثر المتخالف في الجمهرة المجتمعية) فإن مقصده هو أن هنالك جمهرة مورثات موجودة في كل نوع من أنواع الكائنات المختلفة، حيث يتم من خلال الآلية العشوائية وفق زعمه، انتخاب بعض تلك المورثات من بين تلك الجمهرة لتصبح هي السائدة في توريث الصفات النوعية الخاصة بتلك المورثات المنتخبة، وهكذا تتمايز الأنواع بشكل عبثي لا غاية فيه ولا ضرورة للقدرة الموجهة. لقد وضح أن مدلول مقصده السابق يمثل التوجه الرئيسي في الفهم المعاصر للاصطفاء الطبيعي. وهو لم يتوان عن القول بأن العملية برمتها لا تمثل أكثر من تفاعل عبثي لعملية الوراثة المعروفة. إن وجهة النظر تلك هي وجهة خاطئة وعديمة الصواب. والسبب يعود إلى أن الجمهرة الوراثية المكونة في النوع الواحد هي جمهرة منظمة وخاصة بالنوع. بمعنى أن المورثات التي يحملها كل فرد من أفراد النوع تمثل نظاما معلوماتيا دقيقا للغاية يرتبط حصريا بأفراد هذا النوع ولا يتعداه إلى أي نوع آخر. فالمعلومات التي تأتي على شكل مورثات هي نظام معقد إلى أقصى درجات التعقيد لا يمكن ولا يعقل أن يكون قد نتج من عشواء أو عفوية أو فوضى أو أي شكل من أشكال العبثية التي يتبناها أنصار التطور من أمثال سيمبسون. يكفي لكي نفهم هذا التعقيد المتناهي في عظمته والدقيق في تركيبه، أن نعلم على سبيل المثال أن كل فرد من البشر يملك ما لا يقل عن ثلاث وعشرون ألف مورثة موزعة على كروموزوماته في كل نواة من خلايا جسمه. هذه المورثات هي بمثابة شفرة تقدم المعلومات إلى أنظمة العمل داخل الخلوية لتقوم ببناء النظام البروتيني الذي هو بمثابة التعبير الشكلي الظاهري لتلك المورثات. فعند إنجاز البناء البروتيني الذي يتطلب آليات معقدة دقيقة، يتحقق ظهور التعبير الشكلي لتلك المورثات التي تنعكس على شكل صفات ظاهرة هي التي تكسب الإنسان شكله الإنساني المغاير لأي نوع آخر من المخلوقات. من السذاجة القول بأن تلك الظواهر الهادفة لتاريخ الحياة ممثلة بالعملية الوراثية عند الإنسان ومثله أيضا في بقية المخلوقات، يمكن

شرحها بطرق طبيعية محضة أو من خلال عوامل مادية. فأية عوامل مادية عشوائية وعبثية تستطيع أن تنجز عشرون ألف مورثة كل منها مختص بصفة ظاهرة محددة، عندما تجتمع جميعها في مخلوق واحد يكون هذا المخلوق هو الإنسان المكتمل؟ إن تفسيرا كهذا هو ضرب من ضروب الخيال الجامح أو الوهم الغريب. فلو حيدنا العلم جانبا وقدمنا منطقا تشبيهيا لطفل أو لأي إنسان من العامة: لنفترض أن معملا يصنع أجهزة الحواسب، وهو يتطلب عشرون ألف مرحلة متسلسلة ومتدرجة حتى يتم إنجاز هذا الحاسب على الوجه الصحيح، ثم أخبرنا هذا الطفل أو ذلك الرجل أن الحاسب الذي بين يدينا قد تم إنجازه عفويا بدون أية قدرة ذكية أو أي تصميم مهما كان نوعه. من المؤكد أن ذلك الطفل سوف يصم الشخص الذي يعطي مثل هذا التحليل إما بالحماقة وإما بالجنون. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه يوجد لكل مورثة عند الإنسان أو عند المخلوقات الأخرى أيضا مجموعة من النظائر الوراثية التي تمثل في مجموعها الجمهرة الوراثية الخاصة بالنوع التي أتى على ذكرها سيمبسون. فمثلا بالنسبة للون القزحية في العين عند الإنسان ، يتدرج اللون بين الأسود الفاحم والأزرق والأخضر والعسلي. هذا التدرج اللوني يحتاج إلى عدد من النظائر الوراثية التي تزيد في جمهرة البشر عن العشرين. إن هذا لا يعني وجود كل تلك المورثات في نفس الشخص وإنما تكون مورثة ما ولتكن السواد في شخص ما والزرقة في آخر وهكذا. ما يوجد في الواقع لكل موقع مورثة، هو زوج من المورثات النظيرة من الأم ومن الأب هي التي تتنافس لتمنح في النهاية الصفة الشكلية النهائية لهذا الشخص. إن تزاوج هذه الكروموزومات (اللواقح) القادمة من كل من الأب والأم عند الإلقاح هي التي تكسب لهذا الشخص مورثاته وبالتالي صفاته الشكلية التي سيتصف بها. لكن السؤال المهم هو هل ما يزعمه سيمبسون و التطوريون معه من أن الإنسان هو ناتج عملية طبيعية بلا هدف حيث لم يكن في حسبانها إنتاجه صحيح ؟ بمعنى، هل يتم الحصول على ذلك التمازج ومن ثم على تلك الصفات الشكلية التي يملكها الإنسان وغيره من خلال المورثات وفق آلية عشوائية كما يزعم سيمبسون؟ أم أنها تتم وفق آلية دقيقة وتصميم ذكي؟ وبمعنى أكثر وضوحا، هل التمازج في اللواقح أثناء عملية الإلقاح هو عملية عشوائية أم أنها عملية متعمدة تتم وفق خطة مسبقة محكمة بواسطة تصميم ذكي؟ هنالك العديد من الدلائل التي تشير إلى أن العملية لا يمكن إلا أن تكون قد تمت بإحكام من قبل مصمم ذكي هو الذي يدير تلك العملية.

للبرهان على التصميم الذكي في توريث الصفات يمكن أن نقدم واحدا من أبسط الدلائل. فالعشوائية تتوافق مع الفوضى أو العبثية. وإذا ما نظرنا في الزعم الذي يقول أن التزاوج هو حصيلة للعبثية فإن ذلك يعني عند البشر على سبيل المثال، أن تكون نسبة الذكور في أي مجتمع أو أمة من الأمم لا يوافق نسبة الإناث. بمعنى أنه يجب أن نرى بشكل متكرر وعبر الأجيال خللا دراميا بين الذكور والإناث. فجيل تكون فيه نسبة الذكور 1/4 بالنسبة للإناث وجيل آخر يظهر العكس. وهكذا بشكل مكرر وعبر الأجيال المتلاحقة. لكن التوافق النسبي لنسبة الذكور إلى الإناث في كل المجتمعات وعبر الأجيال هو دليل ساطع بأن هنالك قدرة ذكية وخلاقة هي التي تتحكم في مصير ذلك التكاثر. فالعشواء (وهي تعريف من تعاريف التطوريين و التي لا دليل على وجودها) هي دائما تعاكس الانتظام. إن كل ما هو منظم لا يمكن ولا يجوز أن ينسب بأي حال من الأحوال إلى العشواء. وإن انتظام تعداد المواليد دائما بتوافق نسبي بين نسبتي الذكور والإناث عبر الأجيال المتلاحقة في تاريخ البشرية المستمر هو دليل يبرهن على أن تنظيما ذكيا إلهيا للتكاثر قد أنجز عند كل المخلوقات الحية.

يتابع القاضي جونسون تقييمه فيكتب:

"يجب التأكيد على أن رأي سيمبسون لم يكن رأيا غريبا عن إطار فهمه العلمي. على العكس تماما، فقد كان بشكل رئيسي يبين ما يعنيه الدارونيون "بالتطور" . فمن خلال الفهم الداروني، وهو المنظور الرسمي للاتجاه السائد في العلم فإن " الخالق ليس له أي شيء يفعله في التطور".

وفي فقرة أخرى لسيمبسون: يشرح فيها التطور من خلال مدلول العلاقة بين الطبيعانية واللادينية يقول: "إن الطبيعيين العلميين لا يعارضون بالضرورة " وجود الله" وذلك من خلال تعريف يشرح أن الإله هو (السبب الأول) الذي لا يمكن الوصول إليه وليس بصفته (كخالق) يأخذ دورا فاعلا في الطبيعة أو في الأمور البشرية. مع هذا يبقى أصل الكون والمبادئ التي سببت تاريخ نشوئه بدون شرح وغير متاحة للعلم. وهنا يظهر الدور المخبأ (للسبب الأول) والمرئي لدى كل من أهل الفلسفة والدين. (فالسبب الأول) غير معلوم وأزعم أنه لن يكون معلوما لأي إنسان حي. من الممكن لنا أن نعبده كل حسب هواه إذا كانت لدينا الرغبة بذلك. لكننا بالتأكيد ليس بمقدورنا أن نستوعبه. ينبغي إذن هنا أن يستثنى التطور (الديني) أو (الموجه)

بصفته إمكانية واردة في الموضوع، والسبب في ذلك أن الدارونيين يعرفون العالم من خلال مذهب هو المذهب الطبيعي."

إن مذهب سيمبسون في تعريفه للإله وفقا لمنظور أنصار التطور لا يختلف عن مذهب أرسطو والمذاهب الفلسفية القديمة التي تعتقد أن الإله هو مجرد السبب الأول في وجود العالم الذي هو محدَث وأن هذا العالم بعد أن وجد يعمل من تلقاء نفسه وبكفاءة ذاتية دون أي دور للإله فيه. إن هذا المذهب الذي هو لب الفلسفة قد أشبع نقاشا في العصور الوسطى من قبل أعداد غفيرة من العلماء المسلمين وغيرهم، وقد تم تبيان خطأه وزوره حيث اعتبر هؤلاء العلماء أن مثل هذه الفلسفة تقتضي نفي الصفات عن الإله، وهذا يتنافى بالكلية مع مفهوم الألوهية كما جاءت به الديانات السماوية. إن مفهوم الربوبية ومفهوم الألوهية مفهومان يعبران عن الخالق تبارك وتعالى. فالربوبية تقتضي فيما تقتضي الخلق والإيجاد من العدم في حين أن الألوهية تقتضي فيما تقتضي التشريع والأمر والنهي. إن ما طرحه سيمبسون في فهم أنصار التطور للخالق هو في أحسن أحواله مجرد تعريف سطحي فقط للربوبية ألغى فيه أهم صفة للربوبية وهي خلقه للمخلوقات. إضافة إلى أنه استثنى من صفات الخالق تعالى الألوهية جملة وتفصيلا والتي تستوجب مفهوم الأمر والنهي والشرائع ووجوب الالتزام بها من قبل الإنسان باعتباره مخلوقا عاقلا فهو بذلك مناط للتكليف. لقد اشتق أنصار التطور مدلولهم في التعرف على الإله الخالق من خلال فلسفة أرسطو وغيره من الفلاسفة على حين أنهم لو تحروا الحقيقة لكان أحرى بهم وأجدى في تحريهم للخالق وتعرفهم على صفاته أن يشتقوا معرفتهم من خلال ما أرسل به الخالق تبارك وتعالى من رسالات ورسل إلى البشر. ففيلسوف مثل أرسطو ربما يكون له باع في الطبيعيات لكنه بالتأكيد لا علم له البتة في الخلقيات لأن ذلك ليس من اختصاصه بل هو من اختصاص الرسل حصريا. وهو لم يكن رسولا مرسلا ولا نبيا ولم تصله الرسالة فأحرى به ألا يكون عالما بالله تعالى وبصفاته. إن استجداء أنصار التطور كما بين سيمبسون من خلال تعريفه للإله بأنه السبب الأول وذلك نقلا عن الفلاسفة وتحديدا أرسطو هو بمثابة الاستعانة بضرير في تحديد الدرب. وعلى هذا الأساس فقول سيمبسون أن الطبيعيين العلميين لا يعارضون بالضرورة " وجود الله" هو قول باطل لأنه عندما يشرح في تعريفه للإله أن الإله هو (السبب الأول) فإن هذا في حقيقة الأمر هو قول أرسطو وليس قول الله

الذي جاء في كتبه السماوية. إن صفات الله تعالى هي متضمنة في أسمائه الحسنى التي جاء ذكرها في القرآن الكريم. وعلى هذا فهذا الشرح الذي قدمه سيمبسون ونسبه لأنصار التطور يتنافى بالمطلق مع أي مما جاء في الرسالات الثلاث السماوية. إن تعريف الإله بأنه السبب الأول فحسب هو نفي صريح لصفات الله التي نقلتها رسالاته السماوية ونفي الصفات يستوجب نفيا للذات وبالتالي فإن من يعبد الإله وفقا لهذا التعريف التطوري كأنما قد عبد عدما، كما قال "(فالسبب الأول) غير معلوم وأزعم أنه لن يكون معلوما لأي إنسان حي. "من الممكن لنا أن نعبده كل حسب هواه إذا كانت لدينا الرغبة بذلك." فهو بالتأكيد قد عبد عدما وبناء عليه إن الطبيعيين العلميين من أنصار التطور يعارضون بالضرورة " وجود الله" وإن قالوا بعكس ذلك. أما قوله "(فالسبب الأول) غير معلوم وأزعم أنه لن يكون معلوما لأي إنسان حي." ربما يكون صحيحا حين يتحدث عن سببه الأول. لكن الله الذي يعرفه المؤمنون كما بينت الكتب السماوية بأسمائه الحسنى وصفاته العلا هو إله معلوم بالضرورة وفقا لتلك الصفات التي وصلتنا وأدركنا معناها وهذا يناقض قوله بأنه غير معلوم. وبحكم كون الله تعالى معلوما فإن ما يتبعه سيمبسون بكتابته "من الممكن لنا، أن نعبده كل حسب هواه إذا كانت لدينا الرغبة بذلك." كلام مرفوض والسبب في ذلك أنه بهذه الطريقة قد ألغى مدلول الألوهية التي تقتضي الاحتكام للشرائع والتعاليم والأوامر والنواهي التي مصدرها بالأصل هو الخالق تبارك وتعالى وليس الهوى أو الابتكار الشخصي كما يزعم سيمبسون. فالعبادة وقفية وليست اجتهادية وذلك بمقتضى أوامر الخالق. وبالخلاصة فإن ماقدمه سيمبسون من نفي لكون أنصار التطور في مذهبهم يعارضون بالضرورة وجود الله هو نفي باطل. فهم لا يقرون حقيقة بالله وإن أقروا بإله فإنما يقرون بإله من وحي أوهامهم منفي الصفات وبالتأكيد ليس بالإله الذي يعبده المؤمنون.

المذهب الطبيعي:

يمكن للأحداث، والأنماط، أو الأشياء أيضا أن تنشأ بحكم "الضرورة." فالحدث الضروري هو حدث ما يستوجب حدوثه تحت تأثير قوانين الكيمياء والفيزياء. بللورات الملح هي مثال على نموذج تم ترتيبه فقط بفعل الفرصة والضرورة من دون أي مساهمة مباشرة من العقل. عندما يصبح محلول الصوديوم والكلور أيونات مشبعة، سيتم جذب أيونات الصوديوم الموجبة إلى أيونات الكلور السالبة الشحنة لتشكيل بللورات

الملـح. كـذلك فـإن النهـر يأخـذ مسـاره لأنـه يعبـر القـارة وفقـا لمـا يمليـه عليـه قـانون الجاذبيـة و وجود المادة (المياه والصخور، وما إلـى ذلـك). قـوس قـزح أيضـا الـذي يظهـر عنـدما يـتم تمريـر الضـوء الأبيض من خلال موشور هو نتيجة للتفاعل بين كهرومغناطيسية الإشعاع و شكل معين للزجـاج. فـي كـل هذه الحالات فإن النموذج المتشكل قد "تسبب" كنتيجة للسلوك الطبيعي القابل للتكـرار دائمـا مـن قبـل المـادة التي يقودها القانون الطبيعي.

يزعم المذهب الطبيعي أن عالم الطبيعة بكليته هو عالم مغلق ذو أسباب وغايات ماديـة بحيـث لا يمكـن أن يتأثر بأي شيء من (الخارج). فالمذهب الطبيعي لا يتنكر فقط لوجود الله، بل إنه ينكر أيضا وجود أية قدرة خارقة ذات تأثير على الأحداث الطبيعية بنفس الصورة التي يزعمون أن التطور يفعل فيها. وهو ينكر أيضا أن يكون للخالق أي تواصل مع مخلوقات طبيعية كأمثالنا.

هذا الزعم لاشك زعم باطل. فمن أين لأصحاب هـذا المـذهب أن يقـرروا غيـاب هـذا التواصـل فـي شـأن لا يعلمونه ولا دليل علمي يملكونه يمكن أن يثبتوا فيه زعمهـم؟ هـم يسـتندون فـي رؤاهـم إلـى الماديـات فلمـاذا يقحمون أنفسهم في مالا شأن لهم به ويفترون على الله مالا علم لهم به؟ بمقتضـى القرآن الكريم، الله تعالى قد تحدى أنصار هذا الزعم بآية يؤكد فيها حقيقة التواصل بين الله وبين البشر قال تعالى " ومـا قـدروا الله حـق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء بـه موسـى نـورا وهـدى للنـاس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم مالم تعلموا انتم ولا آباؤكم قل الله ثـم ذرهـم فـي خوضـهم يلعبون". فإن كانوا صادقين فيما يزعمونه فيستوجب عليهم أن يبينوا بصواب، من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس. أما فيما يتعلق بنفيهم لأية قـدرة خارقـة ذات تـأثير علـى الأحـداث الطبيعيـة فـالله تعالى تولى في القرآن الكريم الرد عليهم وتسفيه قدراتهم عند مقارنتها بقدرته. قال تعـالى: " يـا أيهـا النـاس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز".

إن الله تعالى في الآية الكريمة يقدم تحديا علنيا ومباشرا إلى أولئك المنكرين لقدرة الله على الخلـق أن يقـدموا بطريقة علمية تجريبية وفق نهجهم التطوري خلقا لذبابة من العدم. هذا تحدٍ لـيس مـن البشـر وإنمـا هـو تحـد

بطريق التواصل معهم مباشرة من قبل خالقهم الذي ينكرونه. وهو يطلب منهم تطبيقا عمليا لما يزعمونه من قدرة التطور على إحداث الخلق. و يتحداهم بأنهم لن يقدروا. بل وأكثر من ذلك فهو يتحداهم في أن يسترجعوا ما قد يسلبهم الذباب من فضلات ويؤكد أن لن يقدروا على ذلك والتحدي سيبقى قائما. وفي النهاية فإذا كان علمهم دنيوي مادي فلماذا يتجرءون على ما ليس لهم به علم في زعمهم، من غياب وجود أية قدرة خارقة ذات تأثير على الأحداث الطبيعية بجهل منهم وانعدام معرفة. لذلك قال تعالى في الآية التالية يبين قدرته وجهلهم " ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز" .

المذهب الطبيعاني العلمي يتخذ نفس المبدأ الطبيعاني من خلال البدء بالافتراض أن العلم هو الذي يتحرى فقط الطبيعيات، وهو ممر عبورنا الوحيد باتجاه المعرفة. أما الإله الذي لن يفعل أي شيء يتسبب في حدوث أي تبدل، والذي لا نملك بشأنه أية معرفة معقولة، ليس له أي دور هنا. ومرة أخرى فإن هذه الأقاويل تمثل افتراءات على الله بغير سند يؤكدها.

و لاعتبارت تطبيقية، فإن المصطلحات التالية وفقا للقاضي جونسون يمكن أن تعتبر جميعها متكافئة في المعنى والمدلول: المذهب الطبيعاني العلمي، المذهب التطوري العلمي، المذهب المادي العلمي.

كل تلك المصطلحات تؤكد أن الاستقصاء العلمي وفق تعريفهم للعلم هو إما المعبَر الحصري إلى المعرفة، أو أنه على الأقل يمثل المعبر الأكثر معقولية، وأن الظاهرة الطبيعية أو المادية هي الوحيدة الحقيقية. وبكلمات أخرى، فإن ما يعجز العلم وفقا للمنظور الطبيعاني عن دراسته هو بالنتيجة لا يمكن أن يمثل الحقيقة وهو خارجها.

حسنا ووفقا للقاضي جونسون:

"(شيء ما غير حقيقي) . فطالما أن فكرة الطبيعية هي أمر لا يستطيع الداروينيون القبول (إلا بقطعيتها)، لأن علمهم كله يستند إليها، بالرغم من مخالفتهم لإحدى الشروط العلمية التي استنوها وهي قبول النقد، فإن تغييب الخالق من الكون هو بالتالي النقطة الجلية الأساسية للداروينية. إن العلامتين الأوليتين في تعريف القاضي إيفرتون تعبران عن التزام العلم بالمذهب الطبيعي. أما النقاط الثلاثة الأخرى فهي توضح الالتزام بالمبدأ التجريبي.

فالمعتنق الجيد للمذهب التجريبي والملم به، يؤكد أن الاستنتاجات عليها أن تدعم بواسطة الملاحظات والتجارب، وهو لا يتوانى عن إنكار أي معتقد مهما كانت قدسيته إذا لم يطابق الشواهد التجريبية.

الطبيعية والتجريبية، في كثير من الأحيان يخطئ الباحثون في تحميلهما لنفس المعنى لكنهما ليستا كذلك. ففي حالة الدارونية، فإن كلا المبدأين الأساسيين هما في تناقض .

يظهر التناقض بسبب أن النشوء (وفقا للدارونية التطورية) بالكاد يكاد يكون تجريبيا وبشكل أكثر وضوحا مما هو عليه الأمر في الخلق، بواسطة القدرة الخارقة للطبيعة المستمدة من الخالق. الاصطفاء الطبيعي أيضا من المؤكد أنه موجود، لكن لا يملك أحد الدليل أن بمقدوره أن يحقق أي شيء حتى ولو بشكل ضئيل جدا، يشابه فيه الإجراءات التكوينية التي ينسبها الدارونيون إليه.

فالشواهد المستحاثية بالكلية، تشهد بأنه مهما كان ذلك " التطور"، فإنه لم يحصل نتيجة لعملية تدريجية من التغير يمر عبر مسار مستمر كما يقرر الدارونيون. أما عندما يتعلق الأمر بشرح التعديلات الطارئة على المجتمعات، فإن الدارونية تمثل في ذلك مذهبا تجريبيا. وحين يكون الأمر في المقام الأول، متعلقا بكيفية قدوم العضويات الحية المعقدة إلى الوجود، فإنها تمثل مجرد فلسفة".

ينبغي الملاحظة أنه حتى أثناء شرح التعديلات الطارئة على المجتمعات فإن الدارونية تمثل في ذلك مذهبا تجريبيا فقط حينما تطرح موضوع الجمهرة الوراثية وتبرر التنوع من خلال التأثير الناجم عنها. ولكن عندما تعمل الدارونية على تفسير التنوع بالطفرات فهنا لا يعود الأمر مذهبا تجريبيا وذلك لغياب الشواهد الدالة بل يصبح من جديد فلسفة.

يستنتج القاضي جونسون: " فإذا ما كان المبدأ التجريبي هو القيمة الوحيدة المعول عليها، فإن الدارونية ومنذ زمن بعيد، تكون قد تبنت فقط التطور ذو التحولات المحدودة والذي لن يكون له أي آثار فلسفية أو دينية ذات قيمة.

ومع هذا فإن مثل تلك المحدودية لم تقد أنصار التطور، إلى الإذعان لمبدأ الخلق، حتى في الحدود الدنيا لذلك المفهوم (حيث التطور عندهم يطابق العشوائية العبثية التي تنافي الخلق). ما قادت إليه هو مجمل ما قدمته

المؤسسة العلمية النافذة في الحقيقة، منذ عام 1859 من تفاصيل محدودة لا قيمة لها، بعد أن كانت قد تأثرت بموجة الحماس، واعتقدت أنها قد أثبتت قصة الخلق- من خلال مدلولات التطور.

فلو أن الدارونية قبلت أساسيات المذهب التجريبي، فربما يكون من المأمول به لدى الدارونيين لاحقا، أن يجدوا تفسيرا ربما طبيعيا لكل شيء، لكن كان عليهم أن يعترفوا مسبقا أنهم قد ارتكبوا خطأ كبيرا.

هذا الاعتراف لم يصدر عنهم بعد، والسبب في ذلك يعود إلى أن المذهب التجريبي الذي هو على المحك، لا يمثل النهج الرئيسي لأنصار التطور. إن الأمر الأكثر أهمية عندهم، هو الحفاظ على فلسفة تتمثل بالرؤيا العالمية ذات التوجه الطبيعاني، ومعها الهالة المحيطة " بالعلم" كمصدر وحيد لكافة أشكال المعرفة المهمة. بدون الدارونية ، فإن المذهب الطبيعاني سوف لن يملك القدرة على (الخلق الدارويني) بمعنى أوضح (قصة التطور). وإن التنازل عن قضية بتلك الأهمية يمكن أن يكون كارثيا على المؤسسة الدارونية، وهذا سيفتح الباب على كافة أشكال النبوءات الكاذبة والشعوذة (على الأقل من خلال منظور أصحاب المذهب الطبيعي) الذين سيعملون على جسر الهوة بتكريس أفكار مشتقة من رحم الدارونية. ومن أجل منع مثل تلك الكارثة، فإن على المدافعين عن المذهب الطبيعاني أن يعملوا على حماية قواعد المنهج العلمي وفقا للتعريف الذي عرفوه هم له، بطريقة يحولون فيها بينه وبين أية وجهة نظر مغايرة.

ومن أجل تحقيق ذلك، فإن الخطوة الحساسة التالية هي تقديمهم "العلم" وفقا لتعريفهم الذي خصوه على أنه يكافئ الحقيقة، و "اللاعلم" على أنه مكافئ للخيال أو الوهم. عندئذ فإن المعطيات الناجمة عن العلم، سيتم التعبير عنها بشكل مخادع وذلك من أجل دحض الحجج المعترضة التي في حقيقة أمرها قد اعتبرت من قبل أنصار التطور فاقدة للأهلية منذ البداية. وبما أن أصحاب المذهب الطبيعاني العلمي هم الذين يضعون الشروط، فإن المنتقدين الذين يطالبون بشواهد حقيقية تثبت الفرضية الدارونية لا يجوز أن يأخذ طلبهم بمحمل الجد. فهم لا يفهمون كيف يعمل العلم. إن هذا لا يعني بالضرورة أن أصحاب المذهب الطبيعي العلمي يلجؤون إلى ذلك عن قصد وبهدف الخداع . بل على العكس تماما، فهم حكما قد تأثروا بالمزاعم الطبيعية بحيث أصبحوا لا يرون إلا ما تمليه عليهم أفكارهم المعلبة.

من الواضح من خلال الاستقراءات الدارونية أن وجود تصميم ذكي في هذا الكون هو أمر جلي تماما، بحيث أنه حتى الملحد لا يمكنه المرور دون ملاحظته. لكن و من وجهة نظر أخرى ، فقد أصروا مكابرة على غياب وجود دلائل علمية على وجود المصمم. وما يجعل هذه النقطة تمثل توضيحا جيدا لعقلية أصحاب المذهب الطبيعي، هو أنهم يحسبون حساب كافة النقاط النقدية. فما يبدو أنه دليل على وجود الخالق المصمم ينقلب ليصبح لا دليل على الإطلاق، والسبب في ذلك هو أن الدلائل العلمية لشيء ما خارج نطاق القوانين الطبيعية، سوف يكون حكما، على النقيض مع العلم. فالنتيجة المجملة عما قدم سابقا هي أننا نحن هنا في هذا العالم لدينا رسالة ولكن من غير مرسل.

وبالمقابل، فإن الشواهد المستخدمة لإثبات " التطور" (والتي قد لا تعني أكثر من تطور محدود إضافة إلى تواجد علاقات ارتباط طبيعية) تستخدم لتنسف بشكل تلقائي إمكانية وجود أي تصميم. وعلى هذا تكون "إرادة الخالق" هي مفهوم قد تم التعارف عليه عموما بحيث يتم نبذه بشكل كلي خارج نطاق العلم. وعلى أية حال، فبالنسبة لعلم يتبنى المذهب الطبيعاني، فإن ما هو خارج " العلم" هو خارج الحقيقة.

ما يفهم حول محدودية العلم قد تم العطف عليه، لينتقل المفهوم إلى محدودية الواقع. لأنه بالنسبة لصاحب المذهب الطبيعاني العلمي (الدهري) فإن فكرة إمكانية وجود حقيقة خارج إطار العلم هي أمر لا يمكن حتى مجرد التفكير بها. و هذا النمط من التفكير، والكلام كله للقاضي جونسون، قد تم تكريسه من خلال استخدام المشرفين على وضع المناهج العلمية للعمل على بناء قوالب جاهزة هي التي تنظم المفاهيم المتعلقة بتوجيه طرائق البحث العلمي على المستوى العام.". أنظر الدارونية والتطور في ميزان العلم " إشاكاليات في نظرية التطور".

<u>قصور التفسير المادي للكون وللمخلوقات:</u>

يتكون الدليل الدال على نظرية التصميم من أدلة توافق التصميم و كذلك فهي في نفس الوقت أدلة ضد النظرية الطبيعانية. و كما ذكر أعلاه، عندما تكون هناك اثنتين فقط من التفسيرات الممكنة، فالأدلة ضد واحدة منهما هي الدليل المثبت للآخر. لعل أكبر دليل مباشر ومقنع للتصميم هو ببساطة ظهور التصميم في الأنظمة الحية. ومن الأدلة التي يمكن استكشافها من خلال

الحدس هو ما يسترعيه الانتباه من دلالة استكشاف وتحري نصل سهم أو القيام بدراسة للعين البشرية. تلك هي الأدلة التي أقنعت كلا من أرسطو وسقراط وأفلاطون وكوبرنيكوس وغاليليو ونيوتن وبيكون، وبويل، وحتى أينشتاين حول وجود التصميم في هذا الكون. حتى وقت قريب جدا شكّل التصميم الأساس الواضح للعلم . وهذا نفسه هو الحدس الذي قاد ريتشارد دوكينز و جين مايرز قادة التطور الحاليين لملاحظة التصميم في علم الأحياء.

في العلم المجرد، عادة ما يتم أولا قبول التفسير الأكثر وضوحا و الأبسط ، لكن يجوز أن يطعن بذلك التفسير في حال وجود بيانات جديدة. وإلى أن تدحض هذه البيانات (وليس من خلال التلميحات والاقتراحات، أو التمني) ، فإن الفرضية الأصلية لا ينبغي أن يتم التخلي عنها.

لأربعة آلاف سنة خلت من تاريخ البشرية المسجل، كانت فرضية التصميم هي المقبولة عالميا، ولم تكن وظيفة العلم اكتشاف كيفية مجيء العالم ونشوئه ، وإنما كيف أدى هذا العالم المخلوق عمله. في منتصف القرن الثامن عشر تحدى هيوم منطق التصميم الاستدلالي لكنه لم يقدم أي بديل. قدم داروين البديل من خلال فرضيته الطبيعانية الحيوية المنافسة. فالكثير من أبناء عالمه المعاصر له (والذين يشبهونه كانوا جاهلين أو متجاهلين تماما للتعقيد الحقيقي للحياة) مما جعل دارون يأخذ بتلك النظرية بسهولة. لكن العلم المعاصر (لا سيما في النصف الأخير من القرن العشرين) تبين له وظيفة و تعقيد البنية الخلوية (والكونية) المحيرة للعقل. هذه الاكتشافات بدأت تدفع العلماء من جديد إلى إعادة النظر في الأسس الموضوعية لفرضية التصميم التي نحيت من قبل دارون وأنصاره.

إذن من الجلي أن النتائج التي توصل إليها القاضي جونسون ومن خلال متابعة واستقراء دقيق لكل أفكار ومعتقدات وحيثيات التطور، تدل على وجود توهم واضح لدى أنصار التطور، بأن هنالك في هذا الكون آلية طبيعية ذات فعل عشوائي عفوي، هي التي قادت إلى وجود هذا الكون بكافة مخلوقاته. المشكلة في هذا التوهم هو أنه قد التبس بشكل متفاقم على أنصار التطور بحيث أصبحوا أسرى لتلك الأوهام وعاجزين عن الانفكاك عنها . لقد تبنوا تلك المزاعم وأخذوا في ابتكار وصياغة جميع الوسائل لحمايتها من النقد. وهكذا دخلوا في متاهات وأخطاء علمية وتاريخية على مدى قرنين من الزمان. فهم بداية ولحماية تطورهم

المزعوم هذا، قد ابتكروا أفكارا معلبة وجعلوها مسلمات لا تخضع لتحكيم المنطق أو العقل. فالمعقدات المركبة التي تحتاج في تصميمها إلى معلومات، هي في عرف كل العقلاء تتطلب مصدرا تصميميا ذكيا هو الذي يكونها. مثال ذلك بناء أي نظام هندسي في مجال الهندسة. من المعلوم فطرة أن تكوين الكائنات الحية بتعقيداتها وهندستها، هي أنظمة لا يمكن مقارنة حدود تعقيدها بالأنظمة الهندسية التي صممها إنسان. ومع ذلك يعتقد أنصار التطور أن تلك الأنظمة قد تشكلت عفويا، في حين أنهم يقرون بأن الأنظمة الهندسية التي خططها البشر لابد من وجود تصميم ذكي بشري قام بصياغتها. إن هذه الازدواجية في التفكير، تدل على التباس الفكرة وعلى أحكام مسبقة هي التي قادت إلى تلك النتائج التي وصلوا إليها.

إن مايقدمه "القانون الطبيعي والحظ" من تفسيرات حول أصول الحياة هو أدنى من المأمول به في ضوء الملاحظات التي تتعلق بطبيعة التعقيد الخلوي كما اكتشف مؤخرا. يحاجج عالم الكيمياء الحيوية مايكل بيهي بأن العديد من الآليات البيولوجية في الكائنات الحية هي "معقدات يتعذر اختزالها " تمثل" نظاما واحدا [وهو] بالضرورة يتألف من عدة أجزاء متماهية تتفاعل جيدا فيما بينها لتساهم في إكساب الوظيفة فاعليتها الأساسية ، بحيث أن إزالة أي واحد من تلك الأجزاء سيؤدي بالنظام و بشكل تام للتوقف عن العمل والانهيار. إن صفة "متعذر الاختزال " تعني أن النظام لا يمكن أن "يهبط" لنظام أكثر بساطة في عمله مما هو عليه بحيث ربما يتاح له أن يتدرج في النمو لاحقا ويصبح أكثر تعقيدا. يشير بيهي إلى السوط البكتيري كمثال على معقد لنظام بيولوجي يتعذر اختزاله. هذا النظام البيولوجي هو عبارة عن محرك دوار عالي السرعة يقوم بتحريك مروحة والتي بدورها تعمل على الانتقال بالبكتيريا إما نحو الطعام أو بعيدا عن الخطر. ويتطلب ذلك على الأقل تضافر مجموعة من أربعين جزيئا بروتينيا وفق آلية متشابكة، معقدة للغاية، يتم من خلالها نقل المكونات للتجميع ومن ثم للعمل، ويعتقد أن هذا المعقد كان يمثل نموذجا يعمل بشكل متكامل لدى أكثر الخلايا بدائية. وهو لن يكون بمقدوره العمل إلا إذا كانت كل أجزاءه مجتمعة معا في آن واحد. يدعي الدكتور بيهي أن الاصطفاء الطبيعي لا يمكنه في المرحلة البدائية المزعومة للنشوء بناء هذه الآلة لأن هذا النظام يعمل في ظروف معزولة أولية في نشأة الحياة. لذلك فإن الأجزاء الفردية ليس لها قيمة هنا في تحريض عمل الاصطفاء الداروينى (أي أنه ليس لديها خاصية البقاء على قيد الحياة التي تسمح

للاصطفاء الطبيعي من خلالها "بالاختيار" بين بدائلها وذلك لغياب وجود البدائل في بيئة بكر و التي من شأنها أن تتيح للاصطفاء لاحقا أن يعمل من خلال الانتقاء لتقديم نموذج جديد أفضل من الأصل). وبعبارة بيهي، نظام معقد متعذر الاختزال لا يمكن أن يتم إنتاجه عفويا بصورة مباشرة في أنظمة أولية (أي من خلال تحسين مستمر للوظيفة الابتدائية، التي لا تزال تعمل وفق نفس الآلية) وذلك بواسطة تعديلات طفيفة، متعاقبة على النظام السلف. ذلك لأن أي نظام مسبق أولي معقد غير قابل للتفكيك إذا ما افتقد لأي عنصر من عناصر تكوينه ، فإنه لا يمكنه من خلال التعريف أن يعمل. فهو نظام بيولوجي متكامل متعذر الاختزال. فإذا ما وجد هناك شيء من هذا القبيل، فسيمثل ذلك تحديا قويا لنظرية التطور الداروينية. بما أن الاصطفاء الطبيعي يمكنه أن يختار فقط من بين الأنظمة تلك التي تعمل أصلا بالفعل، ومن ثم إذا وجد نظام بيولوجي ما لا يمكنه أن يتشكل تدريجيا وعفويا، فإنه من المؤكد أنه قد نشأ كوحدة متكاملة، في ضربة واحدة وذلك كي يتيح للاصطفاء الطبيعي لاحقا فرصة أن يشتغل على هذا النظام.

لقد تبين أن القانون الطبيعي والصدفة وحدها ليس بمقدورهما أبدا القيام بتجميع مجرد وحدات بروتينية بسيطة، فكيف هو الحال بمئات من تلك البنى المعقدة للغاية، والمتكاملة، متعددة المكونات، من الآلات الجزيئية الموجودة في عضويات وحيدة الخلية. إن غياب ملكة العقل على إدراك، تقرير، تخطيط، وتوجيه الترتيب والتنسيق للأحداث في المعقدات ذات الترتيبات الهادفة، تجعل من آليات الصدفة والضرورة وحدها من حيث المبدأ، أكثر عجزا ومحدودية عن أن تقوم بأي دور خلاق.

إن خطأ أنصار التطور يكمن في أنهم وضعوا تلك الأفكار المعلبة مثل الفرصة والضرورة على شكل مسلمات إسمنتية لا يجوز تجاوزها أو القفز عليها. فمن تلك المسلمات ما قدموه من تعريف للعلم بأنه حصريا يستند إلى الظواهر الطبيعية. لقد ألغوا بتلك الطريقة تلقائيا، إمكانية وجود خالق مبدع هو الذي أوجد هذا الكون وفق تصميم ذكي. هل أصابوا حين وضعوا تلك المسلمة؟ من المؤكد أن تلك المسلمة التي افترضوها تعوزها الدلائل اليقينية. فكثير من الظواهر الطبيعية لا يمكن أن تفسر بطرق طبيعية لا في هذا الوقت، ولا حتى في المستقبل القريب أو البعيد، حيث لن يكون متاحا للبشر تقديم تفسير صريح لتلك الظواهر. منها الروح والعقل والموت والذكاء والذاكرة والجاذبية وغيرها من الظواهر. إن السبب في عدم

إمكانية التفسير حتى في المستقبل، هو قصور الإمكانيات المادية في تفسير تلك الظواهر. ومن الأخطاء الشائعة في مسلماتهم أنهم نفوا إدخال أي تفسيرات غير مادية في إطار العلم. بهذه الطريقة أصبح كل تفسير للخلق بواسطة الخالق المقتدر هو تفسير باطل في عرفهم. لكن هل أصابوا في ذلك الإقصاء؟ لقد أخفقوا أيضا في هذا الإقصاء. فالمتأمل في هذا الكون يدرك أن الإنسان ليس إلا مكونا محدودا في هذا الكون المترامي الأبعاد. والزعم بأن عالم المادة هو العالم الوحيد الصحيح وما سواه هو وهم، هو بمثابة الادعاء بأن الإنسان هو من أوجد القوانين الكونية. هنالك بوان واسع بين خلق القانون واستكشاف القانون. الإنسان يستطيع أن يتعرف إلى قانون ما في هذا الكون، لكن من العبث القول أنه هو الذي أوجد هذا القانون. لا يستطيع أحد في هذا الكون البرهان أن عالم المادة هو العالم الوحيد في هذا الكون. ولقد تبين لأنصار التطور بأن العالم الحسي يتفاوت حتى بين المخلوقات المختلفة. فدرجة الحس بكل أنواعه تختلف بين مخلوق ومخلوق آخر. وإن الرؤية التي يتمتع بها الإنسان تختلف كليا عن مجال ومدى وحدة وطبيعة الرؤية عند الحيوانات أو عند الحشرات. هذا على المستوى الحسي المادي. فكيف يمكن أو يصح لنا تفسير العالم بشكل قاصر من خلال منظور مادي بالرغم من محدودية القدرات المادية التي نملكها؟ ولقد زعم التطوريون بوجود مصطلح اسمه العشواء وسلموا به. فالعشواء هي من المزاعم التي لا دليل عليها. والحقائق تنفيها. إن نسب أية ظاهرة إلى العشواء هو أمر لا دليل علمي يثبته أو يقره. فاستناد التطوريين إلى تلك العشواء المزعومة هو استناد باطل يترتب عنه أخطاء منهجية كثيرة. ومن أخطاء التطوريين تبني تلك الأفكار واعتبارها قطعية على الرغم من رفضهم لصفة القطعية في المنهج العلمي الصائب وفقا لتعريف إيفرتون بروس. هذا من الازدواجيات التي يعاني منها تفكيرهم. ومن أخطائهم ازدواجياتهم في الأفكار وتبني فكرة ما وعكسها ومحاولة التوفيق بينهما حتى في الظواهر المادية الطبيعية كما هو الحال في قبولهم بفرضية التحول في الطبيعة من الأشكال البسيطة إلى المعقدة بالرغم من أنهم يقرون بالقانون الثاني للثيرموديناميك الذي يقول بعكس ذلك. ومن أخطائهم أنهم عندما يواجهون بخطأ ما في مزاعمهم، فبدلا عن أن يقروا بهذا الخطأ يعملون على إيجاد مبررات جديدة لتفسير هذا الخطأ ربما كانت في كثير من الأحيان تبدو ساذجة. مثال ذلك ما زعمه دوكينز من أن عجز العلماء على توليد أشكال بسيطة للحياة في مختبراتهم هو دليل على

أن الحياة قد نشأت عفويا. ومن أخطائهم القفز إلى الأمام في تحليلاتهم كما فعل العالم غريك حين أدرك أن الحياة لا يمكن أن تنشأ عفويا فزعم أنها جاءت من عالم آخر. ومن أخطائهم أيضا الانتقائية في الأخذ بالدلائل، فعندما يكون دليل ما يدعم وجهة نظرهم فهم يقدمونه ويستدلون به. أما إذا كان الدليل ينفي آراءهم ومزاعمهم فهم يخفونه تماما. مثال ذلك ما حصل حين ارتكز العالم غولد إلى تفسير التطور ذو القفزات من خلال آراء العالم غولدشميدت و غريس. و من ثم عاد العالم ماير لاحقا ليقول بأن غولد قد أخطأ في تفسير آراء غولدشميدت، ذلك لأن فرضية غولد في الطفرات الجنينية يمكن أن تكون قابلة للخضوع للتجربة، وبالتالي يمكن أن يتم دحضها بسهولة لذلك فمن الأجدر الاحتفاظ بالتفسيرات غامضة على أن تتجلى الحقيقة.

القاضي جونسون وتيلهارد:

يعود القاضي فيليب جونسون ليستعين بملحوظات لأنصار التطور:

يكتب تيلهارد " هل التطور نظرية، نظام، أم أنه فرضية؟ إنه أكثر من ذلك كله_ إنه مسلمة يتحتم على كل الفرضيات والنظريات والأنظمة أن تخضع له. ويجب أن ترضيه كي تكون مقبولة فكريا وصحيحة. التطور هو نور يضيء كل الحقائق، هو مسار يتحتم على كل خطوط التفكير أن تسلكه. هذا هو التطور. التطور، باختصار، هو الرب الذي علينا أن نعبده. إنه هو الذي سيدخلنا الجنة."

إذا كان تيلهارد لا يؤمن بالله ، ويتخذ من التطور ربا له، فلماذا يقتبس من الدين الإلهي كل مصطلحاته التي استخدمها حين أراد أن يقدس التطور؟ أليس هذا دليلا واضحا على خضوع تيلهارد رغما عنه لذلك الإله العظيم؟ وأي تعصب أعمى هو ذلك التعصب الذي يحمله تيلهارد بلا أي دليل علمي على وجه الإطلاق، حين يحدد التطور بأنه مسلمة تحتم على كل الفرضيات والنظريات والأنظمة أن تخضع له. فمن الذي أعطى تيلهارد الحق في أن يكون وصيا ليس على العلم فحسب، بل على الكون بأنظمته و قوانينه، هذا إذا كان التطور صحيحا! فكيف بالأمر إذا كان التطور قد تم فرضه بدون أي دليل علمي يؤكده! بل ماذا إذا كان التطور خاطئا بالمطلق بحيث أن الأدلة العلمية وفقا للطرق التجريبية قد أثبتت خلافه! من حق تيلهارد وخلافه من التطوريين أن يعتنقوا ما يشاءون، سواء كان معتقدهم هذا حقا أو باطلا، تؤيده الدلائل أو تنفيه. لكن ما ليس من حقه ولا من حق غيره ، هو أن يحجر على الفكر البشري حيث يكتب " هو مسار يتحتم

على كل خطوط التفكير أن تسلكه" وأن يغتصب إرادة الإنسان في التفكير. إن الله تعالى وهو من يحق له بحكم صفته الخالق، أن يحجر على الفكر البشري كيف يشاء، وهو لم يفعل ذلك، قال تبارك وتعالى " وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" فهو لم يمتنع وحده بذاته العلية عن الحجر على الفكر عند أي مخلوق من البشر مهما كانت ملكاته الفكرية، بل وأمر نبيه بذلك في الآية الكريمة وذلك تقديرا منه لقيمة العقل الذي خلقه ولحرية التفكير عند الإنسان. بمقدور الله تعالى أن يجعل الفكر موجها بالشكل الذي يريده وما ذلك بعسير على الله تبارك وتعالى، وهو الذي خلق المخلوقات وسيرها بالغريزة فقال عز من قائل "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ". لكن الله ترك للإنسان حرية الفكر والدليل على ذلك أن واحدا مثل تيلهارت اختار أن يكون ملحدا فعبر عن إلحاده بكلمات نابيات وبكذب بواح حين كتب " إنه هو الذي سيدخلنا الجنة" فما ضر إلا نفسه. وأية جنة تلك التي سيدخله إياها، وهم مريض بمسمى التطور؟ وما أدرى تيلهارد بالجنة حتى يتكلم عنها؟ يكتب "التطور هو نور يضيء كل الحقائق" فأية حقائق تلك التي يتكلم تيلهارد عنها؟

يقدم القاضي جونسون رأيه ووجهة نظره وتساؤلاته في التطور من خلال مقولة تيلهارد ومن سبقه فيكتب:

"إن التطور الداروني في حقيقة أمره، هو قصة خيالية تتناول من نحن وكيف جئنا إلى هذا العالم، فهو بمعنى آخر يمثل أسطورة للخلق. وبما أنها كذلك، فهي تمثل نقطة البداية للتأمل كيف ينبغي علينا أن نحيا وما الذي علينا تقديره. ووفقا لتلك النظرة:

نتيجة نقص المعرفة العلمية، فإن الإنسان في البداية قد نسب الأحداث الطبيعبة مثل الطقس والأمراض إلى كائن خارق للطبيعة. وعندما تعلم كيف يتنبأ ويسيطر على قوى الطبيعة، فقد نحى جانبا تلك الأرواح الدنيئة الشريرة، مستعيضا عنها بدين أكثر تطورا أبقى على فكرة وجود خالق مفكر يحكم هذا العالم. وفي النهاية فإن أعظم الاكتشافات العلمية قد تمت، وأن الإنسان المعاصر قد تبين له بأنه حصيلة عملية طبيعية عمياء بلا أية غاية ولا تهتم نهائيا بالإنسان. وكانت النتيجة " إقصاء الإله" التي قد تم التعبير عنها بأنها للبعض (أسف عميق)، وللآخرين (تحرر).

لكن تحرر من ماذا؟ فإذا كانت الطبيعة العمياء قد أنتجت بطريقة ما النوع البشري الذي يملك القدرة على حكم العالم بشكل حكيم، وإذا لم تكن تلك القدرة ملحوظة سابقا بسبب كونها فقط قد أخمدت بواسطة الخرافة، فإن البحث عن حرية الإنسان وسعادته هي قضية لابد أن تكون بدون قيود أو حدود. تلك كانت الرسالة التي قدمها البيان الرسمي للإنسانية عام 1933. لكن فرضية ترى أن الطبيعة غير الهادفة قد أنتجت عالما تتحكم به قوى غير عاقلة، قد تجعل من الحق والحرية الإنسانية خدعة. وفي تلك الحالة فإن الحق في التحكم والسيطرة سيكون بيد من يستخدم ويتحكم بالعلم.

فسواء أكان الداروينى قد اختار المشهد التفاؤلي أو التشاؤمي، فإن المؤكد أن العامة من الناس سيتم تلقينهم أن يفهموا العالم كما يفهمه الطبيعانيون (الدهريون). و على الناس أن يتعلموا النظر إلى العلم وكأنه المصدر الوحيد المقبول للمعرفة، وهو الطاقة الوحيدة القادرة على تحسين (أو حتى المحافظة على) الظروف الإنسانية. وهذا المنهج المرسوم يقدم ضمنيا، برنامج تلقين عقائدي باسم تعليم العموم.".

ها هي البشرية باسم العلم قد تعرضت لخداع لا يقوم على أي أساس استمر ولا يزال قائما منذ ما يقرب من مائتي عام. لذلك يخلص القاضي جونسون إلى الحقيقة التالية :

"لا يجوز بحالة من الأحوال إعفاء الدارونية من تطبيق الاختبارات التجريبية الشاملة التي يتطلبها العلم عليها، شأنها في ذلك شأن النظريات الأخرى."

فالدارونية والتطور ليستا مقدستين عن سائر الفرضيات والنظريات الأخرى. وما يستحق القبول ينبغي أن يتم قبوله بعد أن يتم ثبوته بواسطة الطرق التجريبية. خصوصا وأن التطور يتحدث عن ظواهر طبيعية ويفسر أحداثا تتعلق بالوجود وبالكائنات الحية. فمن المنطقي أن يكون التطور والحالة هذه، عرضة للاختبار بواسطة الطرق العلمية التجريبية. فإذا ما وافقت نتائجه العلم التجريبي فإنه يستحق القبول. أما إذا خالفت قواعد العلم التجريبي فالأحرى أن يلقى بها جانبا وأن لا يستشهد بها إلا كدليل على خداع دام أطول مدة في تاريخ العلم.

<u>الدلائل المستحاثية وثنى الحقائق:</u>

وبالعودة إلى الاختبارات التجريبية، قام القاضي جونسون بتقديم عرض ملخص لما قدمته المستحاثات من دلائل ولما أبداه أنصار التطور من تفسيرات وتحليلات تتعلق بما بينته تلك المستحاثات حيث يكتب جونسون:

" إن سمعة العالم كيوفير في كسوف الآن. وإن كان في وقته يسمى بأرسطو البيولوجيا، فهو المؤسس الواقعي لعلوم التشريح العام ودراسة المستحاثات الحديثين. لقد أيقن أن التطور هو أمر مستحيل لأن الأعضاء الأساسية عند الحيوان مرتبطة ببعضها البعض، بحيث أن أي تغير في جزء ما، سوف يتطلب تغيرا مرافقا في جميع الأجزاء الأخرى- وهو ما يعني تحول طفري كبير غير ممكن الحدوث.

وكان تعليق غولد " نحن لا يمكن أن ننكر استنتاج كيوفير اليوم، و لكن لا نقبل مقدمته المنطقية المتعلقة بالعلاقة الترابطية الوثيقة بين كافة المكونات. فالتطور هو خليط في منقوشة واحدة، يتقدم بدرجات مختلفة في بنى مختلفة. إن أجزاء الحيوان هي بالمجمل منفصلة، وهذا يسمح للتحول أن يتقدم.".

هذه النتيجة لم تستند إلى أي برهان تجريبي، وإنما إلى تفكير متفائل " يجب أن يكون الأمر كذلك وإلا لما كان للتطور أن يحدث". لقد أوحت إشارات غولد بابتكار طريقة لاختبار فرضيته " التطور المتمازج" ، وذلك من خلال زرع أعضاء حيوان ما في حيوان آخر ودراسة النتائج.

إن مأساة أغازيز كما وصفها غولد في مقالته " أغازيز في جزيرة غلاباغوز" في "أسنان الدجاجة وإبهام الحصان". وكما يوضح غولد ذلك " إن العالم السويسري المولد والبروفيسور في هارفارد كان دون شك، الأعظم والأكثر تأثيرا بين علماء الطبيعة في أمريكا القرن التاسع عشر. عالم عظيم وليث في المجتمع ذو أهمية لكل امرئ تقريبا له ميول علمية . لكن صيف أغازيز من الشهرة والحظ انقلب إلى شتاء من الشك وإدمان المسكرات، لأن تحيزه لمبادئه المثالية قد منعه من مباركة النظرية الدارونية".

وبسخرية مقيتة، فإن العمل الأهم الذي يذكر الآن لأغازيز, هو التصنيف المسهل، الذي نشره سنة 1859، وهي السنة التي يتذكرها الناس بسنة نشوء الأنواع. إن طرد فيوتوياما لأغازيز يوضح كم كان الدارونيون يتوقون لقبول كائنات وسيطة حتى ولو وحيدة، لبرهان مسألتهم " لقد أصر عالم المستحاثات

أغازيز على أن الكائنات الحية تنقسم إلى أنواع متمايزة، وذلك استنادا إلى دلائل تشير إلى مخططات خلق منفصلة بشكل كامل، والتي لا يمكن بين مفرداتها أن يكون هنالك وجود لأشكال وسيطة. "

كان دوغلاس ديوار يعتبر رائدا في الحركة الخلقية المعارضة في بريطانيا في فترة الثلاثينات من القرن الماضي. لقد وصف مدى التحيز الداروينى في ذلك الحين إلى الحد الذي كانوا ينذرون فيه بترقين قيد كل ناقد للداروينية في تلك الأيام. وقد كتب " البيولوجيون قد سمحوا لأنفسهم بأن تهيمن عليهم المفاهيم الفلسفية للتطور. لقد منحوا الفرضية ترحيبا دافئا وكرسوا أنفسهم للبحث عن الشواهد التي في صالح التطور. ولهذا فإنه ليس غريبا أن تتحول إلى فرضية مقبولة على وجه العموم من قبل البيولوجيين. لذلك كان من الطبيعي ومن خلال حماسهم الشديد، أن يصفوا تلك الفرضية ليس فقط بأنها الأكثر نفعا بين المعمول بها، بل أنها قانون الطبيعة".

وفي ثمانينات القرن ما قبل الماضي، فإننا نجد رئيس المؤسسة الأمريكية، البروفيسور مارش يقول " أحب ألا أسمع أي نقاش يعارض التطور، لأن الشك في التطور يعني الشك في العلم، والعلم هو اسم آخر للحقيقة".

وبعد أن تم تبني هذا التوجه، فقد تم إقحام التفاسير التطورية في كل اكتشاف. وأصبحت الحقائق التي لم تكن تتوافق معها، تمثل نوعا من الألغاز التي لابد وفقا لنظر المتبنين للتطور، أن يأتي الوقت الذي يتم حلها فيه. إن أطروحة غولد الفلسفية في " الحياة المدهشة" هي الأقل إثارة للاهتمام في كتابه، علما بأنها قد تلقت مقدارا كبيرا من النشر. فهو يزعم أنه لم يكن يتوقع لفرضية التطور أن تحقق الإنجاز الذي حققته في المرة الثانية (في مثال البشر). والسبب أنها كانت تتقدم من خلال عوامل الحظ بدلا عن الدلائل التقريرية المدموغة بالبراهين.

لقد كانت صورة التطور التي تمثل تقدما، يفضي إلى ظهور أشكال (أعلى) من المخلوقات الحية مثل البشر، أمرا جذابا لكثير من الداروينيين . وقد ساعدت هذه الصورة النمطية في جعل التطور مستساغا حتى عند فئات من المؤمنين، حيث مثّلت عندهم نسخة ذات صفة طبيعية عن المخطط الإلهي.

يستنتج كل من باودن و ستيفن جي. غولد أن الفيلسوف الماكر وعالم المستحاثات البشرية تيلهارد دي. شاردين من المحتمل أن يكون قد شارك في تزييفات يستحق عليها العقوبة. ولقد قدم باودن دلائل تشير إلى وجود أرضية للشك بمستحاثتي كل من إنسان يافا وإنسان بيكين المكتشفتين، اللتين أسستا لما يسمى اليوم (بالإنسان المنتصب).

استجاب متحدث عن الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم للانتقاد السابق المتعلق بالتزييف بقوله: أن مائة مليون مستحاثة قد تم تحديدها و تأريخها " تؤلف مائة مليون حقيقة تشير إلى أن التطور لا يمكن بأي حال أن يكون عرضة للشك".

قال ألان مان، البروفيسور في علم المستحاثات والتأريخ البشري في جامعة بنسيلفانيا "إن كل شيء يمكن أن يكون عرضة للنزاع خصوصا عندما يدخل المال في الموضوع. وفي بعض الأحيان فإن الناس وبشكل متعمد يستخدمون المال لجعل ما يقولونه ملائما ".

وفي كتاب دينتون (التطور نظرية في أزمة) (1985) قدم دينتون أطروحة تشير إلى أن الشواهد الجزيئية تبدي عالما من الزمر الطبيعية غير المستمرة والتي تدعم وجهة النظر الدينية أكثر من وجهة النظر الدارونية، التي في حد ذاتها تطرح تساؤلا حول قضية الاستمرارية بمرور الوقت. كان الرد الداروني على ذلك بأن الزمر غير المستمرة المشاهدة حاليا قد جاءت إلى الوجود بواسطة التطور المستمر ولكن من أسلاف مشتركة بعيدة.!!! ".

والسؤال المهم الذي يبقى: هو فيما ما إذا كان الافتراض الداروني تحديدا، يمثل أولوية فلسفية، أو أنه مدعوم بدلائل حقيقية.

في مقالة قدمها دانييل فيربانك وهو أحد أنصار التطور تتعلق بالخرائط الوراثية لأنواع مختلفة من الحيوانات الفقارية، تتضمن الثدييات والطيور والأسماك، تحدث الكاتب بأن التكنولوجيا المعاصرة التي تتناول ترتيب المورثات، قد قدمت بيانات ضخمة وضعتها بين يدي الباحثين في مختلف أنحاء المعمورة. ترى المقالة أن تلك البيانات تدعم بشكل قوي وجهة النظر التطورية بما في ذلك التسلسل التطوري، و الأسلاف المشتركة لكافة العضويات الحية، وحدوث التطور لتلك العضويات من خلال الطفرات الصغيرة،

وذلك من خلال تضافر عملها بشكل متناغم مع الاصطفاء الطبيعي عبر أحقاب طويلة. أكدت تلك البيانات كما يرى كاتب المقال، على صحة توزع السلالات في شجرة التطور حيث تكلم البيولوجي دانييل فقال" إن النتائج المنبثقة عن مئات من التجارب الواسعة النطاق والتي استندت إلى تحليل الدي إن أي قد أثبتت بشكل قاطع حقيقة التطور". أحد الأمثلة عن تلك البيانات يظهر في الجدول المرفق، والذي يقارن فيه بين تسلسل الحموض الأمينية المائة وست وأربعون للبيتاغلوبين (وهو مكون من مكونات خضاب الدم) في الأنواع المختلفة المعروفة للحيوانات. عليك أن تلاحظ أن البيتاغلوبين البشري يتطابق مع ذاك الخاص بالشامبنزي، وهو يختلف فقط في موقع واحد عما لدى الغوريللا، لكن الاختلاف يزيد قليلا عند الثعلب الأحمر و الدبب القطبية، ثم الخيول، فالفئران فالدجاج ومن ثم سمك السلمون.

النسبة المئوية للتوافق في البيتاغلوبين بين الأنواع المختلفة:

S	CH	rat	horse	bear	Dog	Fox	Gor	Chm	Hum	
49.7	69.2	81.5	83.6	89.7	89.7	91.1	99.3	100.	100.	Human
49.7	69.2	81.5	83.6	89.7	89.7	91.1	99.3	100.	100.	Chimp
49.0	68.5	80.8	82.9	90.4	90.4	91.8	100.	99.3	99.3	Gorilla
49.7	72.6	80.1	80.8	95.2	98.6	100.	91.8	91.1	91.1	Red Fox
49.0	71.2	79.5	80.1	94.5	100.	98.6	90.4	89.7	89.7	Dog
48.3	71.9	82.9	80.8	100.	94.5	95.2	90.4	89.7	89.7	Polar Bear
46.3	67.8	76.0	100.	80.8	80.1	80.8	82.9	83.6	83.6	Horse
49.7	65.8	100.	76.0	82.9	79.5	80.1	80.8	81.5	81.5	Rat
54.4	100.	65.8	67.8	71.9	71.2	72.6	68.5	69.2	69.2	Chicken
100.	54.4	49.7	46.3	48.3	49.0	49.7	49.0	49.7	49.7	Salmon

ترى تلك الدراسة أن النتائج نفسها تظهر، فيما إذا تم اختبار أي من آلاف المورثات و البروتينات المختلفة الأخرى. فالمورثة التي عندما تصاب بالطفرة وتتسبب في حدوث داء التليف الكيسي عند

الإنسان، هي تقريبا مطابقة للمورثة المقابلة عند الشمبانزي. لكنها تمتاز بأنها أقل تشابها منها مع تلك المورثة لدى قرد الأورانج أوتان، ثم قرد البابون، فحيوان الليمور فالفئران فالدجاج فالأسماك. إن المورثة التي تقدم هرمون الليبين (المسؤول عن استقلاب الدسم) تختلف فقط في خمسة مواقع عند الإنسان عن تلك التي توجد لدى قرد الشمبانزي."

تمثل الدراسة المقدمة سابقا والمعدة من قبل واحد من أنصار التطور مادة دراسية مناسبة لتمييز الطريقة التي يفكر بها هؤلاء التطوريون وكيف أنهم يخطئون في استنتاجاتهم:

1- فالكاتب أولا من خلال رميه بقنبلة إعلامية مستعينا بأفضل ما توصلت إليه التكنولوجيا المعاصرة وهي الدراسات الجينية (التكنولوجيا المعاصرة في ترتيب المورثات، قد قدمت بيانات ضخمة وضعتها بين يدي الباحثين في مختلف أنحاء المعمورة) يحاول أن يوهم القارئ بأن المعلومات التي لديه هي معلومات ذات مصداقية مؤكدة لا يخامرها الشك. وهذه الطريقة مع الأسف، هي طريقة مواربة تستخدم لتمرير معلومات ليس ضروريا أن تكون صائبة. نعم هناك بيانات لكن ربما تستخدم لاستنباط نتائج زائفة أو في غير محلها إذا ما تولتها أيد غير أمينة.

2- ثم يقدم الكاتب تعميما عريضا يدحض فيه كل المآخذ التي يأخذها المعترضون على التطور، مستعينا بما سماه النتائج التي حصل عليها من تلك البيانات، فيكتب " ترى المقالة أن تلك البيانات تدعم بشكل قوي وجهة النظر التطورية بما في ذلك التسلسل التطوري، و الأسلاف المشتركة لكافة العضويات الحية، وحدوث التطور لتلك العضويات من خلال الطفرات الصغيرة، وذلك من خلال تضافر عملها بشكل متناغم مع الاصطفاء الطبيعي عبر أحقاب طويلة. أكدت تلك البيانات على صحة توزع السلالات في شجرة التطور" . إن دحض وتفنيد الاعتراضات لا يمكن أن يتحقق باستخدام كلمات عامة كتلك التي قدمها الكاتب. فهنالك آلاف الاعتراضات على أساسيات التطور لدى المعارضين. وقد قدموا الآلاف من البحوث، التي تخالف المزاعم، التي يؤكد الكاتب أن نتائج تلك الدراسات التي بين يديه قد برهنت على

صحتها. فالتعميم بتلك الطريقة يمثل طريقة لخطف الأضواء تناسب بشكل أكبر نجوم الفن حين يدخلون عروض الأوسكار. إن البيانات التي قدمها الكاتب لاتدعم مطلقا وجهة النظر التطورية ولا تبرهن كما زعم على الأسلاف المشتركة لكافة العضويات الحية، أو حدوث التطور لتلك العضويات من خلال الطفرات الصغيرة، وذلك من خلال تضافر عملها بشكل متناغم مع الاصطفاء الطبيعي عبر أحقاب طويلة. فالطفرات الصغيرة المزعومة بين الأنواع المختلفة على مستوى المورثات مفقودة كليا في السجلات المستحاثية والملاحظة. هنالك تحديدا تحولات جذرية معقدة عملاقة على مستوى الكروموزومات بين الأنواع. لاتظهر الكائنات الحية أي أشكال وسيطة لا على المستوى الشكلي العضوي ولا على المستوى الوراثي في المورثات بين مايفترض أنها الكائنات الخلف والكائنات السلف. هذه الكائنات الوسيطة بجيناتها المعدلة تعتبر أهم دليل إن وجدت على حدوث التطور. إن غيابها من بين المخلوقات الحية الحالية ومن بين المستحاثات هو دليل تجريبي علمي مباشر يؤكد على كون تلك الطفرات المزعومة هي طفرات افتراضية تكهنية موهومة لا مؤشرات ثابتة.

3- ثم يصل الكاتب إلى نتيجة قاطعة مفادها " إن النتائج المنبثقة عن مئات من التجارب الواسعة النطاق والتي استندت إلى تحليل الدي إن أي قد أثبتت بشكل قاطع حقيقة التطور". إن القفز إلى النتائج دون إنجاز الدراسة المتأنية هو ضرب من ضروب التزييف للحقائق وذلك لأن تلك النتائج التي يصرح الكاتب بها ربما تكون نتائج في غير موقعها أو لا توافق المدلول الذي يريد أن يبرهن الكاتب على صحته.

4- و عندما يتقدم الكاتب إلى تحليل المعطيات حين يكتب "عليك أن تلاحظ أن البيتاغلوبين البشري يتطابق مع ذاك الخاص بالشامبنزي، وهو يختلف فقط في موقع واحد عما لدى الغوريلا، لكنه يزيد الاختلاف قليلا عند الثعلب الأحمر ، و الدبب القطبية، ثم الخيول، فالفئران فالدجاج ومن ثم سمك السلمون". فما يرمي إليه الكاتب هو أنه وبسبب وجود اختلاف متدرج في بنية الغلوبين بين الأنواع المختلفة من العضويات الحية، بحسب درجة تدرجها في التطور،

وذلك وفقا للافتراضات التدرجية التي وضعها أنصار التطور أنفسهم أصلا؛ فالنتيجة بالنسبة للكاتب هي أن تلك التدرجات في الاختلاف في بنية الغلوبين تبرهن أنها تتوافق مع التدرج الذي وضعه أنصار التطور السابقين لتطور أنواع الكائنات المختلفة. إن هذا قد دل الكاتب على أن التطور بجميع آلياته هو حقيقة صريحة لا تقبل الشك. إن المراقب المتأني للمعطيات والبيانات السابقة، يلاحظ أولا وجود تدرج فعلي في تقارب بنية الغلوبين كما هو مبين في الجدول المرفق، من الشمبانزي إلى السمك. علل الكاتب هذا التدرج بوجود صلة قرابة في الأصل المشترك تتدرج وفقا لنسبة التقارب كما في الجدول. فهل يصح هذا التعليل؟ هل إن التشابه أو التطابق في بنى أي من العناصر الحيوية كيميائيا بين كائنين هو دليل على النسب المشترك بينهما؟

فلو أننا أعدنا صياغة التساؤل من قبل فيربانك على النحو التالي: لدينا تلك الحيوانات التي هي مثار الاستقصاء والتي يبدو فيها الإنسان ثم قرد الشمبانزي ثم الغوريللا هي شكليا الأكثر تشابها بينها من بين بقية الحيوانات الأخرى كفصيلة الثعالب والكلاب والدببة ثم الحصان فالفئران ومن ثم الدجاج فالأسماك: فأي الحيوانات بناء على ذلك، يفترض بأن مورثاتها أكثر تشابها ترى من بين تلك الأنواع؟ بدون أدنى عناء ودون أن يكون الشخص المسؤول اختصاصيا في الوراثة أو البيولوجيا سيجيبك بأن مورثات الشمبانزي والإنسان غالبا ستكون أقرب إلى بعضها من بقية الأنواع الأخرى كما أن مورثات الكلب والثعلب أيضا غالبا ستكون أكثر قرابة إلى بعضها، وسيكون جوابه هذا بالتأكيد صائبا. فمن المنطق السليم أن الإنسان بما يملك من إدراك يستطيع أن يميز بسهولة بين المخلوقات أو حتى الأشياء الأكثر تشابها وهو يستطيع بسهولة أن يحدد مواقع الشبه تلك. فشكل الرأس عند القرود عموما أكثر شبها بالإنسان من رؤوس الكلاب أو الدببة. وبالتالي فمن السهل على الإنسان الاستنتاج من خلال مقارنة الصفات الظاهرة أن الصفات الوراثية أيضا و نظرا للشبه الشكلي ينبغي أن تكون أكثر تقاربا بين المخلوقات الأكثر تشابها. لكن هذا ليس بالضرورة دليلا أو قرينة على الاشتراك بالنسب.

إن الدليل الذي يؤكد النسب المشترك بين أي كائنين وذلك بالاستدلال بالعلم التجريبي هو فقط من خلال إثبات رؤية علامات التحول التدريجي واضحة عيانيا أو من خلال المستحاثات . أفضل مثال قدمته الدارونية زاعمة إثبات التطور هو تغير حجوم مناقير الحساسين في جزر غالاباغوس عبر السنين بفعل عامل البيئة والانفصال المكاني. أما المآخذ على مايزعمون أنه أفضل دليل على عمل التطور في الميدان فهي:

1- كل مافي الأمر أن الدراسات فد أثبتت أن مناقير تلك الحساسين فقط قد زاد حجمها بمقدار 4% ولاشيء آخر طرأ على تلك الحساسين. فأين مدلول التطور في الانقلاب في الأنواع الذي تتكلم عنه الدارونية نسبة إلى ظواهر تكيف محدودة مرئية حيث الحساسين قد بدأت كحساسين وانتهت كحساسين!!

2- إن المناقير الكبيرة التي ظهرت في الأجيال اللاحقة نظرا لتغير نوع الغذاء بفعل عوامل الجفاف هي صفات وراثية متنحية موجودة أصلا في أصل أنواع الحساسين وليست صفات وراثية جديدة تخلقت فجأة. هذا يعني بالضرورة أن الأمر لم يكن تطور ولا يعدو كونه انزياحا في الصفات الوراثية الموجودة بمجملها أصلا في الجمهرة الوراثية للحساسين.

3- لدى متابعة الدراسة من قبل عائلة غرانت من جامعة برينستون لعدة سنوات لاحقة: طرأ على الجزر فيضانات بعد عدة سنوات من الجفاف، مما أدى إلى موت الحساسين كبيرة المناقير وعادت الجزر إلى غابات استوائية، وهذا أتاح من جديد تكاثر الحساسين ذات المناقير الصغيرة. هذا إن عنى شيئا فإنما يدل على ظاهرة الانزياح الدائم باتجاه المركز (النزعة المركزية) كما هو الحال في عودة الصفات البرية للكلاب المهجنة بعد أن أتيح لها التزاوج الطبيعي. إن ظاهرة النزعة المركزية التي تنحوها أنواع المخلوقات دائما هو دليل الثباتية في النوع وهو يدحض التطور الذي يستوجب ارتقاء مستمرا في تغير الصفات.

4- المستحاثات أيضا برهنت على غياب أي من الكائنات البينية التي تثبت التدرج في الصفات أثناء الانتقال بين الأنواع وتظهر الدراسات بهذا الشأن أن الكائنات الحية بأنواعها المختلفة قد ظهرت فجأة على الشاكلة التي هي عليها دون أي شكل من أشكال التدرج.

فإذا كان التطور الذي يبنى عليه موضوع التشابه في البنى الوراثية للمورثات لم يثبت بل وتميل الدراسات إلى إثبات نقيضه، وهو التخلق المباشر الآني، فكيف يمكن اعتبار تلك التشابهات في بنى المورثات الكيميائية دليلا مؤكدا يفيد حدوث التطور؟

يذكر كاتب المقال "عليك أن تلاحظ أن البيتاغلوبين البشري يتطابق مع ذاك الخاص بالشامبنزي، وهو يختلف فقط في موقع واحد عما لدى الغوريلا ..... ترى تلك الدراسة أن النتائج نفسها تظهر، فيما إذا تم اختبار أي من آلاف المورثات و البروتينات المختلفة الأخرى. فالمورثة التي عندما تصاب بالطفرة وتتسبب في حدوث داء التليف الكيسي عند الإنسان، هي تقريبا مطابقة للمورثة المقابلة عند الشمبانزي. لكنها تمتاز بأنها أقل تشابها منها مع تلك المورثة لدى قرد الأورانج أوتان...".

يرتكب الكاتب في فقرته السابقة أخطاء علمية معتبرة لا يصح أن يرتكبها رجل اختصاصي في مجال البيولوجيا سيتم تفنيدها:

كون الشمبانزي في رأي أنصار التطور الأقرب في سلالته إلى البشر لايعني أنه الأقرب في نسبه إلى البشر. البشر والقرود الرئيسات كما تعارف عليه هما نوعين مختلفين من المخلوقات الحية. وهذا يعني أن تطور الشمبانزي وفقا للمنطق التطوري يستوجب حدوث طفرات عفوية هائلة عديدة متدرجة في تسلسل هذا التطور. هذه الطفرات ينبغي أن تنعكس صفات شكلية ترى في الأجيال المتطورة. تلك الأجيال البينية المتطورة ينبغي أن تتعدى في عددها الملايين من الأجناس المختلفة والتي يشترط لصحة حدوث التطور من خلال النسب المشترك أن ترى ماثلة بين الأحياء وفي المستحاثات. لسوء حظ أنصار التطور فإن أيا من تلك الكائنات الافتراضية لم تر حية مطلقا ولم تشر إليها الدراسات المستحاثية بالرغم من كثافتها. لابد عند الحديث عن التطابق أو التشابه في

المورثات للاستدلال على النسب المشترك من الاستعانة بالملاحظة الموافقة في عالم الأحياء وإلا بقيت تلك الافتراضات مجرد أوهام خادعة لاتستند لأية حقائق. إن غياب علامات وشواهد التطور الضرورية بين الأنواع المختلفة هو دليل قاطع لايقبل النقاش على عدم حدوث هذا التطور.

عندئذ يمكننا الاستدلال من خلال التشابه أو التطابق في أشكال تلك المورثات أن هذا التشابه ليس أكثر من مجرد تشابه كيميائي لايمكن من خلاله استنتاج أو استنباط أي أمر إضافي كما فعل دانييل فيربانك حين نسب القرابة البيولوجية إلى ذلك التشابه.

من الإنصاف العودة إلى الصفات الشكلية وحتى الوظيفية لتلك الحيوانات ومقارنتها عيانيا مع بعضها بعضا، لنرى مدى التقارب أو التباعد الشكلي والوظيفي بين تلك الحيوانات التي أجريت عليها الدراسة. لقد تم إرفاق صور للأنواع المختلفة من تلك الحيوانات مع اختيار أصناف متعددة من كل نوع لإجراء تلك المقارنة الشكلية في نهاية هذا البحث.

من الواضح شكليا، أن اكثر الحيوانات شبها بالإنسان هو قرد الشمبانزي. وهذا الأمر لا خلاف عليه سواء عند أنصار التطور أو عند أنصار الخلق، أو حتى عند أي ملاحظ هاو يراقب شكليا ذلك الحيوان. فالصور المرفقة تشير إلى أن الشمبانزي يستطيع الانتصاب. كما يبدو من الصور المرفقة أنه يسير منتصبا. وتبدو شكل أصابع يده أكثر مشابهة لأصابع يدي الإنسان من أي حيوان آخر. هذا التشابه في الشكل يظهر واضحا في الصور المرفقة ومتدرجا بين أصناف القرود المتنوعة بدءا من الشمبانزي فالغوريلا ثم الأورانج اوتان ثم قرد الماكاو، وهي كلها قرود من الرئيسيات. لكن الشكل أيضا يختلف قليلا كلما ابتعدنا من صنف نحو الصنف الذي يليه. وعندما ننتقل إلى النسانيس، وهي القرود ذات الذيل، تصبح الصفات الشكلية أكثر ابتعادا عن الإنسان، كما هو واضح في الصور المرفقة. تتفق جميع تلك الحيوانات من القرود، في أن قبضة يدها وأصابعها هي الأقرب من بين كل المخلوقات الحية لشكل وقبضة وأصابع يد الإنسان. ومن المعلوم أن المورثات عند كل الكائنات الحية، هي التي تكسب تلك الكائنات صفاتها الشكلية. فإذا كانت الصفات الشكلية هي أكثر تشابها بين كائنين، فالمرجح منطقيا أن تكون تلك المورثات هي أكثر تشابها أيضا. الموضوع لا يحتاج إلى تعقيد أو تحليل عميق. فعلى سبيل المثال : الثعالب والكلاب وكما هو مبين في الصور المرفقة

تتشابه في كثير من الصفات الشكلية و الفيزيولوجية والوظيفية. إن المستغرب هو أن نجد في مورثات تلك الأنواع من الحيوانات ذات الصفات الشكلية المتشابهة تباعدا في بنية مورثاتها الخاصة تلك، بحيث تشابه تلك المورثات في بنيتها بنية مورثات حيوانات أخرى بعيدة الشبه كالأسماك أكثر مما تشابه مورثات الحيوانات الأقرب لها في الشكل أو الوظيفة. لو عدنا إلى الجدول السابق، فمن الواضح و المعلوم من الصور المرفقة أن الثعالب والكلاب هي من أكثر الحيوانات شبها بعضها للبعض الآخر. هذا التشابه الشكلي كما نراه في الصور المرفقة، من الجلي أنه يفوق كثيرا التشابه الشكلي الذي يظهر للعيان بين الإنسان وبين قرد الشمبانزي. وعلى هذا، فالأمر المنطقي والمعقول أن تكون النتائج التي سيقدمها لنا الجدول في بنية الغلوبين الخاص في كلا الحيوانين أقرب إلى التطابق الكلي. وإذا ما اعتمدنا على طريقة كاتب الفقرة (فير بانكس) التحليلية، يجب أن تكون متطابقة بنسبة 100% لكن النتيجة هي 98,6% وهي أقل من مقدار التطابق بين الإنسان والغوريللا التي هي 99.3% كما هو مدون في الجدول أعلاه. فبالرغم من أن الثعلب والكلب كلاهما من نوع الكلبيات، وهي أكثر تشابها في الشكل وفي الوظيفة من الغوريللا والإنسان، مع هذا يبقى الاختلاف في بنية الغلوبين أكبر في تلك الحيوانات. إن هذا يدل على أن التشابه الشكلي والوظيفي للمخلوقات يستوجب وجود تشابه في البنية الوراثية لكن ليس ضروريا أن يكون تطابقا، وأنه إذا كان هنالك تطابق ما في بنية بروتين ما، بين الأنواع المختلفة من المخلوقات، فإن هذا لا يبرهن أن لهذه الأنواع نسب وأصل مشترك واحد. وهو لا يدل أيضا على مدى صلة القرابة، كما يزعم الكاتب وأنصار التطور معه. بالمقابل، عند الرجوع إلى الصور المرفقة لقرد الشمبانزي والقرود الأخرى، يبدو واضحا أن شكل القدم عند تلك القرود يختلف بشكل لا لبس فيه عن شكل القدم عند الإنسان. فهي تشبه في شكلها شكل قبضة يد القرد بخلاف هذا عند الإنسان. ومن الممكن الاستدلال بناء عليه، أن وظيفة القدم عند القرود تختلف عن وظيفة القدم عند الإنسان. والسؤال المهم، هل مورثة شكل القدم عند تلك القرود بما فيها الشمبانزي تطابق بنسبة 100% المورثة التي تكسب شكل القدم عند الإنسان؟ من المؤكد أنها لا تتطابق. كذلك الأمر بالنسبة لمورثات توزع الأشعار عند القرد وعند الإنسان. وكذلك الأمر بالنسبة للمورثة التي تمنح الإنسان قوام البصمة في أصابعه، حيث لا تمتلك القرود أو أيا من الحيوانات الأخرى تلك البصمة في

أيديها. وبالعودة إلى بنية البيتا غلوبين الخاص بالخضاب، فكون قرد الشمبانزي في فيزيولوجيته أقرب للإنسان من السمك الذي يعيش في الماء ويتنفس بطريقة مغايرة تماما للإنسان. فإن المؤكد أن يكون قوام البيتا غلوبين عند القرد مغايرا لما هو في السمك، وأقرب في القرد للإنسان. لكن السؤال المهم الآن هو، هل يعني التقارب في بنية المورثات أو التباعد، الاستنباط بأن أصلا و نسبا ما مشتركا بين تلك المخلوقات المتقاربة شكليا لابد من وجوده؟ إن استنباطا كهذا لا تقود إليه المعطيات كما لا تحتمله الشواهد الملاحظة.

يمكن الاستنتاج إذن ومن خلال ما سبق أن درجة التشابه في بنية البيتاغلوبين تعود بشكل رئيسي إلى طبيعة الأداء الفيزيولوجي للعضوية الحية، بحسب طريقة معاشها وحياتها. فإذا كان نوعان مختلفان من الأحياء لهما أداء فيزيولوجي متشابه مثل آلية وطريقة التنفس مثلا، فالأغلب عندئذ، أن يكون تركيب البيتاغلوبين الخضابي أقرب للتشابه . وبالعكس فإن التباعد في الأداء الفيزيولوجي للأنواع المختلفة للمخلوقات سيفضي إلى تباعد في بنية البيتاغلوبين، كما هو الحال عند الأسماك التي لديها نظام تنفسي مغاير، وكذلك الدجاج التي ضربها الكاتب مثلا، و التي هي من الطيور التي تملك رئة مختلفة عن رئة الثدييات. فالتقارب البنيوي الوراثي يرتبط بالأداء الوظيفي ولاعلاقة له البتة بصلة القرابة. إن نظرة سريعة على الجدول المرفق، يوضح دون شك أن الحيوانات كلما تباعدت في صفاتها الشكلية وأدائها الوظيفي التنفسي المرافق، كلما كانت تلك الحيوانات أكثر اختلافا في بنية البيتاغلوبين الخضابي. فالأمر يتعلق تماما بفيزيولوجية التنفس عند تلك الحيوانات وفقا لأشكالها وطرق معيشتها. والقرد والإنسان يتشابهان في ذلك، وكذلك الثعلب والكلب وإلى حد قريب الدب. أما الحصان فهو يبتعد شكلا ووظيفة عن القرود وعن الكلاب وبقية الحيوانات الأخرى المدونة في الجدول . في حين أن الدجاج هي من الطيور التي تملك نظاما تنفسيا أكثر بعدا وكذلك الأسماك. والجدول المرفق يقدم لنا بيانات تتطابق مع هذا الاختلاف الشكلي الفيزيولوجي.

إن أنصار التطور من المعاصرين بالعموم وخصوصا أولئك الذين يتكلمون عن البيولوجيا الجزيئية والمورثات ينطلقون مما يرون أنه مسلمة أتوا بها ممن سبقهم من الدارونيين . وهي أنه إذا كانت الصفات الشكلية للأنواع المختلفة من الكائنات الحية أكثر شبها، فإن هذا هو دليل على أنها أكثر قرابة في النسب. و بالتالي إذا استطاعوا أن يبرهنوا أن ما بين أيديهم من المورثات بعد أن تفتحت لهم آفاق علم الوراثة، ستكون

أكثر شبها في تلك الكائنات الحية التي افترض من قبل أسلافهم من أنصار التطور السابقين شكليا أنها أكثر قرابة، فإن هذا سيعني بالتأكيد لهم وللبشرية كلها أن التطور هو حقيقة لا لبس فيها. والحقيقة المرة بالنسبة لهم هي أنهم خلطوا بين الشبه الشكلي والأداء الوظيفي من جهة وبين القرابة من الجهة الأخرى. فهم ينطلقون من خلال قوالب ذهنية جاهزة ويضعون الشروط كما يحلو لهم ثم يبرهنون على صحة تجربتهم من خلال مطابقة نتائجهم للاعتبارات التي يريدونها. بمعنى آخر إنهم يقولون إذا كنت ترتدي معطفا فلابد أن معطفك لونه أسود. فارتداء المعطف لاعلاقة له بلونه، كما أن تشابه بنى المورثات لاعلاقة لها بالنسب المشترك. فهل مقولة (لابد أن معطفك لونه أسود) تثبت علميا أن لون المعطف أسود؟ بالتأكيد لا وإنما لإثبات أن لون المعطف أسود عليك إجراء تجربة مقارنة الألوان المختلفة ثم الاستنتاج أن لون المعطف هو حقيقة أسود. إن تشابه بنية المورثات في أنواع الكائنات الحية الأكثر تشابها من الناحية الشكلية لا يبرهن على صلة القرابة بين تلك الكائنات إلا بالقدر نفسه الذي تبرهنه التشابهات الشكلية لتلك الكائنات وصلة ذلك بالقرابة الحقيقية. فالمؤكد هو أن الصفات الشكلية الظاهرية المتشابهة ليست دليلا على أية صلة قرابة بين أنواع الكائنات وافتراض مثل تلك الافتراضات يحتاج إلى برهان علمي. كذلك الأمر بالنسبة إلى البنى الوراثية المتشابهة وحتى المتطابقة، حيث لا يمكن استخدامها كدليل على وجود الأصل المشترك بل يحتاج مثل هذا الافتراض إلى برهان أيضا. والبرهان في حالة تشابه الصفات الشكلية هو إثبات تجريبي بالدليل العلمي القاطع يثبت أن نوعا ما من الكائنات قد تطورت أعضاؤه الحيوية الشكلية وتحولت إلى أعضاء النوع الآخر من الكائنات. كذلك الأمر بالنسبة للمورثات، فالإثبات يتطلب الدليل العلمي أن تلك المورثات المتطابقة شكلا ووظيفة قد انتقلت من ذلك النوع إلى ذلك النوع الآخر أثناء التطور. إن انقطاع الاتصال بين الأنواع المختلفة للكائنات الحية والانفصال الواضح في النوع مع غياب الاستمرارية بين الأنواع سواء في المخلوقات الحية أو في المستحاثات هو دليل قاطع لا يقبل النقض على أن الأنواع المختلفة قد جاءت منفصلة وهذا ما أكد عليه أغازيز وكيوفير منذ أكثر من قرن. لسوء حظ أنصار التطور المستقدمين منهم أو المستجدين أن هنالك علم اسمه علم المناعة. هذا العلم ينسف نسفا قاطعا مفهوم انتقال الصفات الشكلية ممثلا في الأعضاء أو الصفات الوراثية ممثلا في الكروموزومات. سواء بالنسبة للأعضاء أو حتى المورثات فإن

النظام المناعي وهو نظام اختصاصي كامل موجود في كل نوع حي، وظيفته حماية النوع بأكمله من أي تواصل أو امتزاج أو تلاق أو حتى انصهار مع أي نوع آخر مهما كان هذا النوع. حتى داخل النوع الواحد فإن الجهاز المناعي أيضا يحمي من مثل هذا الامتزاج. إن ما يؤكده مثل هذا النظام عند الكائنات الحية المختلفة هو أن الاستقلال والانفصال في الأنواع واستقلالية الأنواع عن بعضها بعضا هي المزية بين الأنواع المختلفة من المخلوقات. هذه الحقيقة يشير إليها القرآن الكريم في آيات عديدة حين يؤكد على الخلق المنفصل واستقلالية الخلق. يقول تبارك وتعالى في الآية (45) من سورة النور (الله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير). ويقول تبارك وتعالى في الآية (99) من سورة الإسراء (أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلى كفورا). فالسماوات والأرض كأشياء جامدة غير حية بكل كتلتها وتنوعها وخصائصها الفيزيائية والكيميائية الهائلة قد خلقت ابتداءا خلقا مستقلا كما هو مبين في الآية، فلماذا يكون من غير الممكن الإقرار أن الله هو الذي خلق المخلوقات الحية بشكل منفصل مثلما خلق السماوات والأرض. لماذا ينكرون دور يد الخالق الكريمة في خلق المخلوقات على الرغم من أن مخطط هندسة كافة المخلوقات يستوجب المصمم الذكي إذا كانوا يقرون أن الخالق هو الذي خلق السماوات والأرض بداية كما قال سيمبسون وغيره من أنصار التطور. الدارونية والتطور هدف نزعتها من أولها إلى آخرها هو إنكار أن للخالق دورا في خلق الكائنات الحية. وبالعودة من جديد إلى نشوء السماوات والأرض، فالإيجاد من العدم يتطلب وجود قدرة خارقة كانت سببا في هذا الوجود. من العصي على أنصار التطور الادعاء بأن السماوات والأرض قد جاءتا من غير موجد. وعلى الرغم من استنادهم إلى نظرية الانفجار الكوني والطاقة السلبية ممثلة بنظرية الكونتيوم، فإن الجميع لا يزال يقر بوجود تلك القدرة الخارقة الذكية التي تسببت في نشوء السماوات والأرض والتي بدونها ما كان للسماوات والأرض أن توجدا. أما حدوث ذبذبة سلبية أو إيجابية من غير موجد، فهذه لا تتعدى كونها ذبذبة فكرية لا يمكن أن تكون مقبولة. إن السماوات والأرض كمركبات فيزيائية وكيميائية وكجزيئات وكتل، تمثل بنى هائلة في حجمها وتكوينها ومساحتها وتركيبتها بعناصرها المعدنية وأشباه المعدنية المختلفة وبقوانينها الفيزيائية والكيميائية المختلفة

التي تخضع لها، كل في موقعه من هذا الكون الهائل في أبعاده. وبالإقرار بتلك القدرة الخارقة الذكية التي أوجدت هذا الكون نكون قد بدأنا في حل إشكال التطور الذي طرحه دارون وأنصاره لاحقا. صحيح أن هذا الكون يخضع في آلياته وبقائه إلى قوانين فيزيائية دقيقة تم التعرف عليها من قبل العلماء ومنحت تعاريف معينة مثل الجاذبية والقوى السلبية والإيجابية وغيرها. هذه التعاريف المقدمة من قبل العلماء هي في الحقيقة تعاريف وصفية للظواهر. أما معرفة الماهيات بمعنى ماهية الجاذبية وماهية الشحنات السلبية والإيجابية، فإنها تبقى مبهمة للجميع. الواضح أن تلك القوى هي التي تبقي على هذا الكون مرتبطا بنفسه ومتماسكا. لنفترض علميا زوال واحدة من تلك القوى المختلفة. إن النتيجة التي ستصحبها هي انفكاك عناصر الكون وزواله. إن السؤال المهم عند هذه النقطة هو من الذي يحتفظ بتلك القوى المختلفة مستمرة وباقية كي يتم بقاء واستمرار الكون على ما هو عليه؟ لا يمكن القبول بمنطق الآلية الذاتية لأنه لا يمكن الإقرار بأن العدم يولد الوجود. إن الذي أمسك بتلك القوى منذ الأزل ولا يزال يمسك بها هو نفس القدرة الخارقة التي أوجدت هذا الكون. إذن هنالك استمرارية في سيطرة تلك القدرة الخارقة على التحكم في الكون بأكمله. هذه الاستمرارية يقررها الله تعالى لذاته في القرآن الكريم في الآية الكريمة " إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا" (فاطر 41) إن هذا المنهج يقرر أن الخالق تبارك وتعالى ذو هيمنة قائمة ومستمرة بلا توقف على التحكم بكل مقتضيات الكون بخلاف بعض الآراء في التفكير التطوري التي تزعم أن الخالق قد خلق الكون ووضع القوانين في البداية ثم ترك الكون وشأنه. يبين لنا الله تبارك وتعالى في سورة الفرقان الآيتين (2) و (3) هيمنته على الكون بمقتضى ملكيته له. يقول تعالى في الآية الثانية " الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا" فمقتضى الملكية في الآية يستوجب التحكم، والتحكم هو تحكم يختص به وحده وذلك بأن الله تعالى قرر في نفس الآية أنه لم يتخذ ولدا حتى لا يكون المتحكم بالكون أكثر من إله ثم وضح تأكيد نفي الولد من خلال نفي الشريك في الملك. فإذا كان الله تعالى قد خلق السماوات والأرض بخصائصها الفيزيائية كجمادات وهو يتحكم بها وحده، فإن ذلك سيكون على نقيض مع الافتراض التطوري اللاحق وذلك نظرا لانتفاء منطق الذاتية أو العدمية في إحداث التعديلات. التطور ينسب التحولات لآليات عشوائية

والعشوائية معدومة فلذلك الأمر كله يعود لله الخالق. وهذا ما نراه في تمام الآية الكريمة حيث فيها التأكيد على الخلق المنفصل حتى بالنسبة لكل مخلوق على حده (وخلق كل شيء فقدره تقديرا). وفي الآية الثالثة في سورة الفرقان (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) ينكر الله تعالى على بعض البشر الخلل عندهم في المعايير حين ينسبون الخلق إلى من يعجز عنه وهو في حالة الداروانية التطور والعشواء والاصطفاء الطبيعي، تلك المصطلحات الفارغة حيث تلك المصطلحات عاجزة كما وضحته الآية الكريمة لا يخلقون شيئا و لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا وليس بيدهم الموت ولا الحياة بيدهم ولا البعث بعد الموت هو أمر بيدهم. نحن نجد أن جميع أنصار التطور من دون استثناء يصرون على التأكيد على عدم وجود الحياة بعد الموت. فالحياة بعد الموت تنسف الفكر التطوري من أركانه نظرا لمقتضى ضرورة وجود التصميم الذكي لإعادة بناء المخلوقات الحية مطابقة للأصل التي كانت عليه. فالعودة للحياة بعد الموت تستوجب وجود الذاكرة المدونة التي في طياتها مخطط أشكال وبنى المخلوقات على شاكلتها التي كانت عليها أثناء حياتها. وهذا بالضرورة يستوجب مصمما ذكيا خارقا في قدراته لإعادة يناء موروث المخلوق من جديد بعد موته. لذلك فإن الحياة بعد الموت تعتبر حجة ضد هؤلاء التطوريين مثل غولد وغيره ممن يزعمون أن التطور لا يخالف تعاليم الدين. فالتطور ينكر كليا البعث بعد الموت، وأما الديانات السماوية فهي جميعا تقرر هذا البعث كواحد من مستوجبات الإيمان.

يمكن بالنتيجة القول أن ما يفعله أنصار التطور هو أنهم يسيرون في حلقة مفرغة.

وفي الواقع فقد قدم العديد من العلماء دراسات حديثة تثبت أن المورثة نفسها ذات البنية المتطابقة تماما، تفضي إلى تقديم صفات شكلية متغايرة تماما لدى الأنواع المختلفة من الكائنات الحية. بمعنى أن المورثة المطابقة في بنيتها، التي تكسب القرد دماغه الخلفي هي نفسها التي تمنح الحشرات قرون الاستشعار لديها. هذا يعني أنه لا يوجد أي علاقة ارتباط بين التطابق البنيوي للمورثة وتطابق الصفات الشكلية بين الأنواع. وعليه فلا يمكن استخدام التطابق البنيوي للمورثات كما فعل أنصار التطور كدليل للاستدلال من خلال ذلك على صلة القرابة والنسب بين تلك المخلوقات. كما بينت الدراسات العلمية العديدة، أن المورثات الخاصة

بصفة شكلية معينة لا تتوضع على موقع الكروموزوم نفسه في الأنواع المختلفة من المخلوقات. بالتالي فإن توزع المورثات التي تكسب الأنواع المختلفة صفات شكلية متشابهة أو متطابقة يفترض بين المخلوقات الأكثر تشابها أن تكون تلك المورثات ذات توزع و تموضع في الخارطة الوراثية أقرب إلى بعضها منها في أنواع الكائنات الأقل شبها. لكن التوزيع المختلف لتلك المورثات على الكروموزومات بين الأنواع المختلفة ينفي وجود هذا الانتظام في التوزيع وهو بالتالي ينفي إمكانية الاستدلال بتشابه المورثات كدليل على صلة القرابة. أما الدراسات الحالية في هذا الصدد فهي تشير إلى إمكانية حصول تعديل وراثي موجه أو مبرمج على العديد من المخلوقات البسيطة كالجراثيم أو المعقدة كالأسماك، على شكل اصطفاء اختزالي على مستوى المورثات بحيث أنه وفي جيل واحد فقط يمكن أن يحدث بناء جديد للمورثة بقصد استحداث نمط تكيفي معين ملائم للظروف الطبيعية المحيطة، كي يتلاءم المخلوق مع تلك الظروف. مثال ذلك ما تمت دراسته على حساسين غالاباغوس قريبا حيث تبين أن تلك الحساسين وفي جيل واحد استطاعت أن تعدل من بناء وشكل مناقيرها وفقا للضرورات البيئية الأمر الذي يتناقض مع قواعد التطور بموجب الطفرات والاصطفاء الطبيعي الذي يستوجب أزمنة طويلة، وكذلك من حيث الآليات خلافا للتطور الذي يستوجب مبادرة العوامل البيئية، حيث قام الكائن الحي نفسه بالمبادرة متحريا بمجساته البيئة ومجريا التعديل المناسب. إن هذه الدراسات تدحض وبشكل كامل كل الادعاءات والمزاعم التي تربط بين التشابه أو التطابق في المورثات بين الأنواع المختلفة من المخلوقات، وبين الارتباط كدليل على القرابة بصلة النسب بين تلك المخلوقات. كل ما تؤكده تشابه المورثات هو الاستدلال على وجود التشابه الشكلي الظاهر والنسبي بين أنواع الكائنات الحية المختلفة ولا شيء أكثر من ذلك. إذن لا علاقة لبنية الغلوبين الخضابي بصلة القربى والأصل المشترك التي حاول الكاتب أن يقحمها في تحليلاته إقحاما ليس له أدنى مبرر. كذلك فإن التعميم الذي انطلق منه الكاتب حين كتب " ترى تلك الدراسة أن الصورة هي نفسها فيما إذا تم اختبار أي من آلاف المورثات و البروتينات المختلفة الأخرى." والذي قصده أن تلك المورثات و البروتينات المختلفة تدل على تدرج يدل على صلة القرابة الذي يدل على التطور، هو تعميم يمثل وجهة نظر غاية في الغرابة والاستنباط الخاطئ المزيف. وبالخلاصة فإن البيولوجيا الجزيئية والمورثات تنفي وبشدة وجود أية صلة

قرابة ونسب بين أنواع الكائنات الحية المختلفة، أما ما تشير إليه فحسب فهو وجود بعض الاقتباسات الكيميائية في بعض البنى الجزيئية للمورثات بين المخططات البنيوية للأنواع المختلفة من الكائنات الحية. وإذا كان الأمر كذلك فإن جل ما يعترض عليه دانييل فيربانك وأنصار التطور عندئذ هو مسألة الاقتباس الكيميائي في بناء المخطط الوراثي.

التطور والشواهد العلمية التجريبية:

تلك كانت حقائق دامغة قدمها علماء المستحاثات والمورثات والبيولوجيا ورصدها القاضي جونسون والتي تؤكد جميعها أن التطور لا يتوافق والشواهد العلمية التجريبية.

من خلال ما تقدم نقدم توضيحا مصورا للأنواع المختلفة من الثدييات التي تشاهد الآن في الطبيعة، للاستدلال بواسطة ما توضحه الصور العيانية الجلية للأشكال المختلفة لتلك المخلوقات من دلائل، على مدى صحة أو خطأ فرضية التطور المزعومة. تم تصنيف العرض التسلسلي لتلك الأنواع المختلفة من الحيوانات اللبونة وفقا للجدول المرفق أعلاه الذي قدمه (دانييل فيربانك) واستخدمه ليبرهن فيه على وجهة نظره المزعومة في التطور:

1- صور تبين الرئيسيات كما تزعم فرضية التطور:

أ- صور لوجوه الحيوانات من الرئيسيات:

ب- صور تمثل أشكالا لأجسام أنواع من الرئيسيات:

من الواضح أن لتلك الحيوانات شبه شكلي وأدائي وظيفي بالإنسان. لكن شبهها هذا يبقى محدودا بالنوع، وليس من قبيل الشبه الذي يرقى لدرجة القرابة والنسب المشترك، الذي يتكلم التطوريون عنه. إن هذا الشبه بالإنسان، يبقى بعيدا عن شبه تلك الأنواع من القرود (الرئيسيات) بالأنواع الأخرى من النسانيس (القرود ذات الذيل) التي تبدو صورها في الأسفل .

تبدي الصور أعلاه فصائل متنوعة من القرود الرئيسية والتي تظهر جميعها على شكل مخلوقات انتهائية، لا يمكن لواحدة من تلك الفصائل أن تكون مخلوقا وسيطا لفصيل آخر. فهناك اختلاف بيّن في الشكل وفي الحجم واضح في معالم تلك الحيوانات، يقتضي انفصالا لا لبس فيه في نشأة كل فصيل عن الفصيل الآخر. لا تبدي تلك الحيوانات تدرجا تطوريا كما يزعم أنصار التطور. فليس هنالك كما تظهر الصور أي شكل من أشكال التدرج الشكلي بين قرد البابون وقرد الأورنج اوتان أو بين هذا وقرد الماكاو وبين ذاك والغوريللا أو بين الغوريللا وبين الشمبانزي. فكل واحد من بين تلك الأجناس، مختلف في شكل الوجه والرأس وحجم

الجمجمة وشكل وحجم الأطراف و الجسم بطريقة تفرض علميا، الاستدلال على الاستقلالية و عدم وجود هذا التدرج التطوري المزعوم.

2- صور تبين أشكالا للقرود ذات الذيل (النسانيس):

أ- أشكال لوجوه القرود ذات الذيل :

ب- أشكال متنوعة لأجسام القرود ذات الذيل : (النسناس)

3- صور لحيوانات من الكلبيات :

أ- أشكال لوجوه تلك الحيوانات:

ب- أشكال لأجسام تلك الحيوانات:

على الرغم من الشبه الواضح بين الأصناف المختلفة داخل حدود النوع الواحد فإن التباين الشديد في الشكل الذي نراه بين الأنواع كما هو مبين على سبيل المثال، بين الكلبيات والقردة أو الكلبيات والدببة وغياب وجود أية أشكال انتقالية وسيطة حية أو من المستحاثات، يدل ويؤكد أن تلك الأنواع جاءت منفصلة تماما، ولا لبس أنها من أصول مختلفة بالكلية عن بعضها البعض. فالكلبيات مثلا كلها تسير على قوائمها الأربعة. وهي في مجملها ذات قوائم أمامية وخلفية متقاربة في الطول. وهي غالبا ما تكون لاحمة. نهايات قوائمها متشابهة لا تملك كفا فيه أصابع تشبه أصابع القردة. بينما القردة أكثر قدرة على الانتصاب، حيث تمفصل قوائمها الخلفية مع بقية الجذع يساعدها أكثر على الانتصاب. وهي من أكلة كل شيء. لها راحة يد وقدم منبسطتين تستطيع أن تلتقط بكلتيهما الأشياء المختلفة.

4- صور لأصناف مختلفة من الدببة:

أما الدببة فهي تختلف عن الكلبيات وعن القردة أيضا، ففي الشكل تبدو قوائمها الأمامية أقصر من قوائمها الخلفية. وهي تمتاز بأن لديها القدرة على الانتصاب أكثر من الكلبيات نظرا لوجود تمفصل لأطرافها الخلفية مع جذعها يساعدها على هذا الانتصاب. وهي تختلف عن بعضها بعضا في نمط غذائها وفقا لأصنافها المختلفة. فالدب القطبي هو حيوان لاحم. على حين أن دببة الباندا هي حيوانات عشبية بالكامل. أما أغلب الأصناف الأخرى فهي تعتبر من أكلة كل شيء.

أ- صور لوجوه تلك الحيوانات:

ب- صور لأجسام تلك الحيوانات:

5- صور لأشكال من الخيليات والمجترات وذات الحافر:

أ- صور لوجوه تلك الحيوانات:

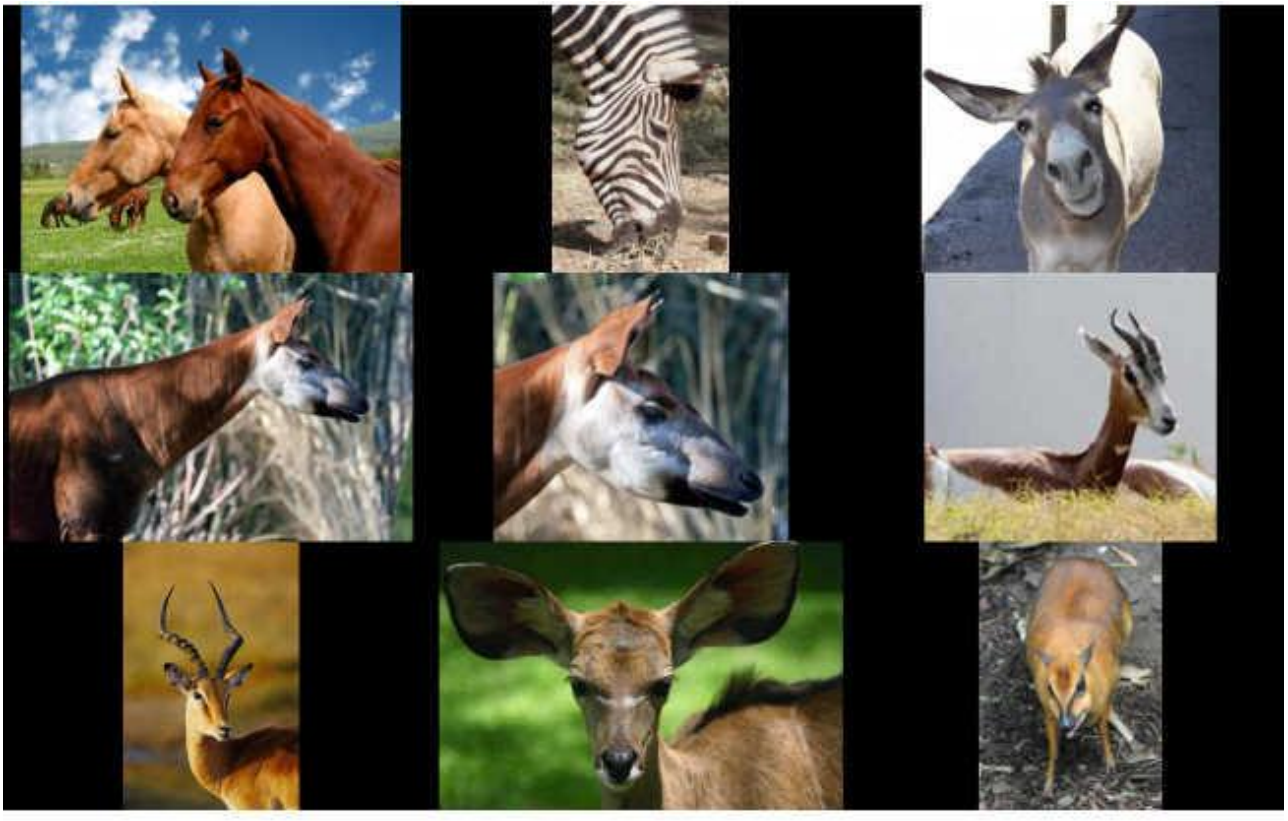

ب- صور لأجسام تلك الحيوانات:

تمتاز كل الحيوانات السابقة بأنها عشبية بالكامل أغلبها من المجترات. وهي تملك قوائم أربعة متشابهة في الشكل والطول تنتهي بحوافر. وهي تسير على قوائمها الأربعة

6- صور لأشكال من الثدييات الضخمة:

أ- صور لوجوه تلك الحيوانات:

ب- صور لأجسام تلك الحيوانات:

7- صور لأشكال حيوانات ذات حوافر (تابير و خنازير):

أ- صور لوجوه تلك الحيوانات:

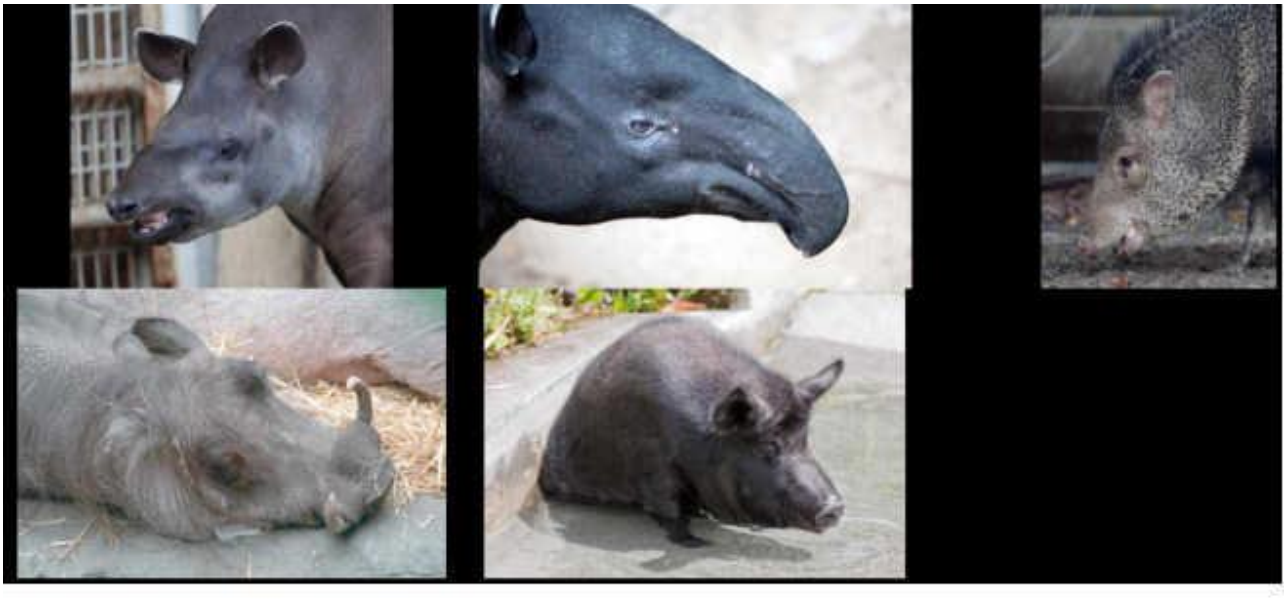

ب- صور لأجسام تلك الحيوانات:

8- صور لأشكال من القوارض:

أ- صور لوجوه تلك الحيوانات:

ب- صور لأجسام تلك الحيوانات:

9- صور لأشكال من آكلات النمل و الجرابيات والمدرع:

أ- صور لوجوه تلك الحيوانات:

ب- صور لأجسام تلك الحيوانات:

10- صور لأشكال أصناف متنوعة من القطط:

أ- صور لوجوه تلك الحيوانات:

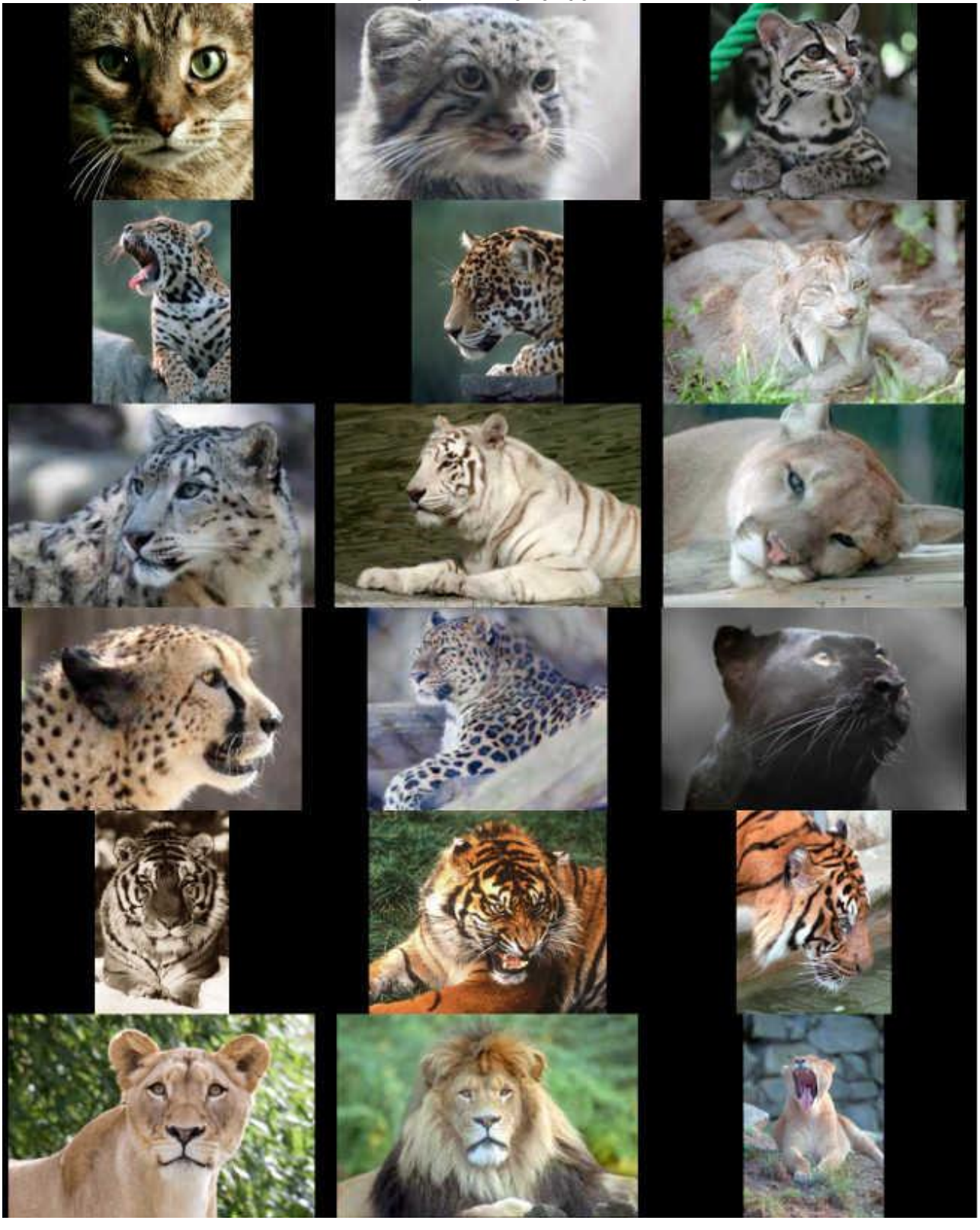

ب- صور لأجسام تلك الحيوانات:

11- صور لأشكال ثدييات بحرية:

أ- صور لوجوه تلك الحيوانات:

ب- صور لأجسام تلك الحيوانات:

بالعودة إلى تلك الصور المرفقة، نجد أن الحيوانات اللبونة في مجملها لا تتعدى أعداد زمرها بضعة مئات . إن المنهج التطوري الذي زعمه أنصار التطور يستوجب حتمية وجود أضعاف مضاعفة غير متناهية من تلك الأعداد من الزمر المختلفة لتلك الحيوانات اللبونة البينية. هذه الأعداد اللامنتهية من الزمر، هي ضرورة واجبة لحدوث التطور المتدرج. ينبغي أيضا أن تمثل تلك الزمر، زمرا بينية وسيطة بين الأنواع الأصلية والأنواع المستجدة. كما يجب أن تبدي تلك الزمر تدرجا منهجيا في شكلها ووظائفها، بعكس الاتجاه التكويني لتلك الأصناف من الحيوانات. إن الشواهد المقارنة تبدي عالما من الزمر الطبيعية غير المستمرة والتي تتعارض مع وجهة النظر الدارونية، التي تطرح كأساس لفرضيتها قضية الاستمرارية والتراكم المتدرج بمرور الوقت. إن الغياب الكامل لهذه الكائنات الافتراضية الوسيطة والمستمرة في كل أنواع وأصناف وزمر الحيوانات اللبونة المختلفة يمثل معضلة تفسيرية كبيرة لأنصار التطور، لا يمكن درؤها بالتفسيرات الجزيئية التي قفز إليها وقدمها (فير بانكس) والتي تتعلق بمقدار التشابه في المورثات أو

البروتينات بين الفصائل والأنواع المختلفة من الحيوانات والذي قرر فيه نسبة القرابة. فمن ناحية المورثات فهي بين الأنواع المختلفة من المخلوقات لاتنتظم في توضعها على الصبغيات وفق آلية متطابقة تتطابق مع التشابه والتقارب الشكلي. وهذا يعني أنه لو كان التقارب هو تقارب بأصل مشترك كما زعم أنصار التطور لاستوجب الأمر تموضعا للمورثات بشكل متناظر على الصبغيات يوازي درجة التشابه، الأمر الذي لايظهر في تخطيط توزع المورثات. إضافة لذلك فإذا كان التشابه موجودا، والحيوانات البينية غير موجودة، فهذا يعني أن ذلك التشابه يبقى مجرد تشابه بنيوي لا علاقة له ولا يمكن ربطه بأي شكل من أشكال التطور ذو القرابة بالنسب المشترك .

الرد الداروني على ذلك بأن الزمر غير المستمرة المشاهدة حاليا قد جاءت إلى الوجود بواسطة التطور المستمر ولكن من أسلاف مشتركة بعيدة، يفتقر إلى الأدلة المادية التي تدعمها. فلا المستحاثات قدمت دلائل حقيقية تشير إلى وجود تلك الأصناف الانتقالية المتعددة والمتراكمة. ولا الشواهد الحية في تلك الحيوانات اللبونة كمثال، قد أظهرت لنا تلك المخلوقات الوسيطة. هنالك فقط قفزات وراثية وأشكال انتهائية مكتملة وانقطاع كامل في الاستمرارية. فالأمر لا يعدو كونه مجرد اقتباس في نموذج المخطط الوراثي لبعض البنى الوراثية والذي يمكن تشبيهه للتقريب ببعض قطع الغيار الهندسية المتشابهة في تصميم الشركات المختلفة المصنعة للسيارات. تمثل المورثات العذراء (Amorph Genes) المكتشفة حديثا من جهة أخرى معضلة جديدة و كبيرة للتطور وأنصاره. فهي مورثات جديدة تماما منفصلة في قوامها وخصائصها وصفاتها ومنتجاتها الشكلية عن أية مورثات سابقة ونسبتها تتجاوز في النوع الواحد ال 8 % من مجموع المورثات الكلي وهي نسبة في تزايد. والسؤال الذي يعتبر معضلة لأنصار التطور من أين وكيف جاءت هذه المورثات التي تمثل معلومات وكيف يمكن إسقاطها وفقا لمعايير التطور علما أن أنظمة المعلومات قد تعارف أنها تستوجب ضرورة المصمم الذكي؟؟

- لقد استجاب متحدث عن الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم للانتقاد المتعلق بتزييف بعض نماذج المستحاثات بقوله: أن مائة مليون مستحاثة قد تم تحديدها و تأريخها " تؤلف مائة مليون حقيقة تشير إلى أن التطور لا يمكن بأي حال أن يكون عرضة للشك".

- فحتى ولو كان لدى أنصار التطور مائة مليون من المستحاثات المزعومة التي تؤلف حقائق عن التطور كما يزعم، فهي لا تمثل إلا رقما لا قيمة له أمام المتطلبات الحقيقية للاستدلال على التطور. نحن بحاجة إلى رؤية أضعاف غير منتهية لهذا العدد من المخلوقات الوسيطة البينية حية الآن كي يتأكد التطور. يتساءل العديد من العلماء كيف تمكن أنصار التطور من تقديم مائة مليون مستحاثة تشير إلى التطور وعجزوا عن أن يقدموا مخلوقا حيا وحيدا انتقاليا وسيطا يدعم فرضيتهم! العالم كيوفير قد أيقن ونحن معه أن التطور هو أمر مستحيل لأن الأعضاء الأساسية عند الحيوان مرتبطة ببعضها البعض، بحيث أن أي تغير في جزء ما، سوف يتطلب تغيرا مرافقا في جميع الأجزاء الأخرى- وهو ما يعني تحولا جزيئيا كبيرا غير ممكن الحدوث بواسطة الطفرات. بمعنى أن أي تحول طفري مفرد على المستوى الجزيئي في أية مورثة، لا يمكن أن يكون مجديا وفعالا في حالة منفصلة. إنه في تلك الحالة، سيمثل تشوها، إما أن تقوم الخمائر الناظمة للإصلاح على مستوى الدي إن أي، بإزالته أو أن تقضي على الخلية التي أصابها التشوه في حال عجزت الأنظمة الإصلاحية الخمائرية عن القيام بالإصلاح المناسب. إن الكائنات الحية تمثل معقدات من الأنظمة التي تتواكب وتترافق آليات عملها بشكل معقد ومنظم دقيقين. فحصول تحول وراثي في موضع محدد يحتم ضرورة حصول تحولات مترافقة في مواقع أخرى في نفس الوقت وبآلية تنظيمية غاية في الدقة حتى يحقق التحول هدفه كما أكد العالم كيوفير. مثل هذا التحول إن حصل، فهو يمثل قفزة وراثية تحتاج إلى تصميم ذكي خارق لكي يحصل. الشواهد الملاحظة الحالية تشير إلى تخلق مورثات من خلال آليات تنظيمية ذكية غير عشوائية وذلك بهدف إحداث تكيف في المخلوقات تحت ضغط العوامل البيئية.
- نختتم هذا البحث بالتأكيد على أن إصرار عالم المستحاثات أغازيز على أن الكائنات الحية تنقسم إلى أنواع متمايزة، وذلك استنادا إلى دلائل تشير إلى مخططات خلق منفصلة بشكل كامل، والتي لا يمكن بين مفرداتها أن يكون هنالك وجود لأشكال وسيطة، هو إصرار يستحق عليه الثناء والشكر لأنه يمثل عين الحقيقة كما تبينها الحيوانات اللبونة المصورة أعلاه والتي تدعم وجهة النظر الخلقية وتناقض التطور تناقضا كاملا.

الحياة و برمجتها

نحن نرى المعلومات في كل مكان، من خلال السيارة التي نقودها إلى الهاتف الجوال الذي نحمله وإلى الصور التي نراها في جهاز التلفاز. فالمعلومات موجودة في كل مكان.

إن جزءا أساسيا في حياتنا هو الحصول على تلك المعلومات واشتقاق المعرفة من خلالها . من بين تلك المعلومات الهائلة التي حولنا، هل حاولت مرة أن تتحرى تلك المعلومات التي تتعلق تحديدا بالحياة والأحياء؟

هنالك معلومات هائلة تقبع في محتوى الترميزات المتعلقة بكل جزء من الخلية الحية والمتواجدة على قطع الدي إن إي داخل تلك الخلية المكونة لكل الكائنات الحية. سوف نتحرى بعمق بيولوجيا الخلية وعلوم المعلوماتية لنقترب ونستقصي من خلال ذلك السؤال الكبير: من أين أتينا؟

على الرغم من أننا استقصينا اكتشافات عظيمة في العلم إلا أنه لايزال هنالك الكثير بعد الذي علينا تحريه. ومن خلال تلك الاكتشافات، فإننا سنكون قادرين على علاج الأمراض المختلفة والتعرف على ذاتنا ومن الممكن أيضا استكشاف أصل نشأة الحياة.

إن من أهم التعريفات المتعلقة بالحياة مدلول التطور الكيميائي، فكيف يمكن لهذا النموذج أن ينطبق على الحقيقة؟

إن علم المعلوماتية في واقع الحال سيغير من طريقة نظرتنا إلى كل ما يتعلق بالحياة والوجود.

فما هي طبيعة وخصائص المعلومات تلك التي يتم تداولها من خلال رموز لغوية؟

هل التنظيم والتراتيب تمثل في حد ذاتها معلومات؟

بالنظر إلى الطبيعة نلاحظ العديد من الظواهر المنتظمة كبلورات الأملاح، الصواعد والنوازل وحتى ترتيب الرمال في الصحراء يمكن اعتبارها بشكل ما منتظمة. لكن تلك الأشياء يمكن اعتبارها أمثلة على الترتيب الذاتي.

ماذا إذن بشأن رقاقات الثلج المتساقطة؟ هل هنالك انتظام ما في بنيتها؟

إن النظر تحت المجهر إلى تلك الرقاقات يظهر منظرا خلابا معقدا لها، فالماء إذن مع الحرارة المنخفضة والجاذبية والوقت يمنحنا تلك الأشكال من الرقاقات الثلجية المنتظمة. وفي الكهوف فإن الماء والفلزات والجاذبية والوقت تكسبنا أيضا مناظر الصواعد والنوازل الأخاذة.

ماذا الآن بشأن الأعاصير؟ إنها تمثل قوى هائلة، لكن هل تحتوي في مكوناتها على معلومات ذات دلالة؟

الإجابة على ذلك هو لا. فهي تحتوي على معطيات متضمنة في الظواهر الفيزيائية التي فيها، لكن هذه لاتمثل معلومات. إن سلوك كل تلك الظواهر الطبيعية قد تم التعرف إليها من خلال ما أصبحنا نعرّفه الآن بمسمى نظرية الفوضى، والتي تعرف بأنها الدراسة التي تتحرى كيف يحدث الانتظام وفق آليات طبيعية دون الحاجة إلى إي تصميم .

ماذا بعد بشأن قطع النقود المنقوشة ؟ يبدو أنها تحتوي على تعقيد ما يمثل شكلا من أشكال المعلومات في مكنونها. فقطعة الفلز النحاسية لايمكنها وحدها عفويا أن تتحول إلى منقوشة نقدية دون المشاركة بعملية تصميم بشري. إن الحروف المكتوبة عليها تبدي بوضوح معلومات محددة.

هل المنحوتة الجبلية في جنوب ديكوتا والتي تظهر رؤوس رؤساء أمريكا ناجمة عن تآكل عفوي في الطبقات الصخرية الطرية مع بقاء الصخور القاسية، وهي التي منحتنا انطباعا حول أشكال هؤلاء الرؤساء السابقين؟

لا يبدو أن الأمر كذلك . والسؤال المهم الآن هل من الممكن للمعلومات أن تتشكل تلقائيا من خلال الصدفة وحدها؟ على مايبدو فإن الأشياء التي تحتوي معلومات تعتبر منظمة بشكل دقيق لكن الأمر ليس مجرد انتظام ودقة فحسب، فهنالك الكثير مما يمكن إضافته إلى ذلك أيضا.

المعلومات ليست مجرد عملية ذاتية، فهي تستوجب دائما وجود مرسل لها في جانب ومستقبل لها في الجانب الآخر. وهي لديها إمكانية أن تعيد صياغة المدلول المتعلق بها وتحوله إلى مفهوم جديد له دلالته ومعناه.

لابد للمعلومات إذن من مرسل ومستقبل. فعلى سبيل المثال إن الأضواء المتألقة لامعنى لها عموما، لكن ماذا يحصل عندما نضعها في خط منتظم ونعطيها ألوان ثلاثة الأحمر فالبرتقالي ثم الأخضر؟ بوسعنا هنا أن نتعرف إلى الترميز الذي يشير إلى أن علينا أن نتوقف عند الضوء الأحمر وأن نسير في الضوء الأخضر. إن تلك المعلومات المختزنة مسبقا تمثل أهمية قصوى في حياتنا اليومية المعاشة. وفي الواقع فبدون هذه المعرفة فإن

حياتنا وتنقلاتنا ستتحول إلى شكل من الفوضى وستصبح خطرة. فكما ترى فإن ترميزا بسيطا كإشارة المرور يمكن اعتبارها في حدود معرفتنا نظاما معلوماتيا. سنتناول الآن بالتحري المعلومات المخزونة في الأنظمة الحية:

هنالك ثلاثة أشكال من التصنيفات المختلفة التي يستخدمها العلماء للمعلومات:

هنالك أولا ما يطلق عليه اسم ظاهرة شانون Shannon : إن معلومات شانون تزودنا بحساب رياضي للاحتمالات. مثال ذلك عندما نقوم برمي النرد عدة مئات من المرات. هذه الرميات تقدم لنا معطيات لكن تلك المعطيات تعتبر عفوية. فهي معلومات عفوية غير مفيدة.

الصنف الثاني هو ما يطلق عليه اسم المعلومات ذات الفاعلية: حيث المعلومات ذات فائدة ويمكن تطبيقها. مثال ذلك الإشارة الضوئية: حيث المعلومات ترسل من قبل المصدر ويتم تلقيها وفهمها بواسطة المستقبل الذي من خلالها سوف يقي نفسه أثناء التنقل.

الصنف الأخير هو ما يطلق عليه مسمى المعلومات التوجيهية وهي التي سيتم التركيز عليها بصورة رئيسية: إنها معلومات توجيهية تحدد لنا الخيارات التي ينبغي الأخذ بها. وهي عادة ما تستند إلى قرارات مسبقة قد تم التعرف إليها. فمن أجل أن تكون المعلومات ذات صفة توجيهية فإن على مستقبل تلك الرسائل أن يكون عارفا بطبيعة الترميز اللغوي لهذه المعلومات وما تتضمنه من توجيهات وذلك من أجل أن يتم العمل على تلك الرسالة.

على سبيل المثال: هل تعلم ماهية الرموز البرمجية في الأقراص المرنة في الكمبيوتر؟ عند النظر إليها للمرة الأولى ، تبدو كما لوأنها مجموعة حروف مرتبة بشكل لامعنى له. لكن عندما تعلم ماذا تمثل هذه الحروف من دلالات ولديك نظام خاص يوضح معاني تلك الترميزات فإنك يمكنك أن تحصل على برنامج تطبيقي قوي للغاية.

فما بدا في البداية على أنه أرقام: واحد و صفر منثورة بلا معنى قد تبين أنها في الحقيقة معلومات ونظام معرفي بحاجة إلى من يستنبطها ومن ثم يعمل بها. من هنا فإنه يصعب التصديق بمقدار المعلومات التي تحيط بنا. تعتبر مدينة نيويورك مدينة مكتظة وممتلئة بأنظمة النقل المختلفة. لكن عند مقارنتها بأنظمة النقل داخل الخلية الحية

فإن نيويورك وأنظمتها تصبح مجرد ألعوبة أمام أنظمة الخلية. إن أنظمة الأتمتة داخل تلك الخلية وعلى الرغم من أننا لم نسبر إلا اليسير منها فهي وبشكل لا يقبل النقاش تعتبر منظومة مدهشة.

فكما أن هنالك أنظمة السير المتنوعة في مدينة نيويورك هنالك أنظمة سير أشد تعقيدا بمراحل كثيرة داخل الخلية الحية.

تعتبر الحموض الأمينية أحجار البناء في تركيب البروتينات. هذه البروتينات تمثل الوحدات الأساسية في بناء الكائنات الحية . كل حمض أميني يتركب من ذرة حمض كربوكسيلي ومجموعة أمينية تتصل بنفس ذرة الكربون. وهناك نوعين من الحموض الأمينية المتطابقة تركيبيا لكن تختلف في انتظامها إلى حمض أميني يميني وآخر يساري. الشيء المدهش هو أن جميع الكائنات الحية تستخدم فقط الحموض الأمينية ذات التموضع الفراغي اليساري ولا تستخدم اليميني مطلقا. هذا يعني بالضرورة أن الكيمياء الحيوية عند هذه النقطة لابد أنه يتم الإشراف عليها من خلال معلومات موجهة.

لايملك العلماء أية معلومات بشأن هذه الظاهرة الحيوية المدهشة. وعندما يعمل العلماء في مختبراتهم على إنتاج الحموض الأمينية فإن مقادير متساوية من الأشكال اليسارية واليمينية يتم إنتاجها. أما الشيء المدهش فهو أن الأنظمة الحيوية لا تنتج وتستخدم إلا الشكل اليساري من تلك الحموض. وما يدهش أيضا هو أن تلك الحموض الأمينية تقوم بوظائف متعددة ومن أهمها أنها تمثل الأسس الأساسية في بناء البروتينات.

تتكون البروتينات من سلاسل متصلة من الحموض الأمينية حيث أن كل بروتين يتم تحديد هويته من خلال تسلسل متميز للحموض الأمينية. فكما أن كلمة ما في اللغة تتحدد هويتها من خلال تسلسل الحروف فيها. كذلك فإن البروتين يتم تحديد هويته من خلال تسلسل الارتباط في الحموض الأمينية التي تكونه.

تقوم تلك الحموض الأمينية ببناء أنواع متعددة من البروتينات منها ما يقوم ببناء النموذج الهيكلي البنيوي في الكائنات الحية. فالخلية الحية البسيطة عادة ما تمتلك آلافا من البروتينات.

تعتبر هذه البروتينات أساسية للعضوية الحية حيث يدخل دورها في كل عملية من العمليات الحيوية داخل الخلية. للبروتينات فعاليات بنيوية وميكانيكية. فعلى سبيل المثال في العضلات وفي الهياكل الخلوية، تعمل البروتينات على المحافظة على شكل الخلية. في حين أن بروتينات أخرى تعتبر ذات أهمية خاصة في المراسلات الخلوية

وبعضها الآخر في الاستجابات المناعية، أما غيرها فهي مسؤولة عن الانقسام الخلوي ودورة حياة الخلية. هناك بروتين خاص يسمى البروتين المحرك هو من يقوم بنقل الشحنات داخل الخلية.

وهو أيضا يقوم بنقل مركبات الطاقة التي تحتاجها الخلية أثناء انقسامها. الحموض الأمينية تحمل معلومات من موقع معين داخل الخلية إلى موقع آخر أو إلى الخلايا الأخرى في العضوية. فكما هو واضح ، بدون الحموض الأمينية والبروتينات فإن البنى الأساسية للخلية لايمكن أن تكون موجودة.

ومن الأشكال الأخرى للبروتينات الأنزيمات:

تعتبر الأنزيمات وحدات تعمل على تسريع ربط وتفكيك العناصر الجزيئية كي تسرع من عمليات التفاعل الكيميائي. هنالك في الكائن الحي مايقارب من 2000 أنزيم قادر على تسريع التفاعلات الكيميائية دون أن يطرأ على تلك الأنزيمات أي تغير في بنيتها.

لقد لوحظ أن أصغر تفاعل حيوي يستغرق حدوثه ترليون سنة بدون وجود الأنزيم، لكن هذا التفاعل يستغرق 100/1 من الثانية عند توفر الأنزيم. يعتبر الأدينوزين ثلاثي الفوسفات ATP مصدر الطاقة التي يستخدمها الأنزيم للقيام بالتفاعل. تحتاج العضويات الحية إلى اصطناع هذه الأنزيمات إلى جانب الأشكال الأخرى من البروتينات.

تحري كيف تم تخلق هذه البروتينات:

إن الدي إن إي المكون من نموذج مضاعف هو الذي يوجه تصنيع البروتين من خلال تسلسل معين على جذعه. هنالك بروتين آخر هو ال أر إن إي بوليميراز الذي ينتقل عبر جذع الدي أن إي ويقوم بتفكيك الارتباط بين الجذع المضاعف للدي إن إي محضرا إياه للاستنساخ. داخل هذا البوليميريز نلاحظ وجود نسخة أحادية فقط . يتم تهيئة المعلومات الأصلية على الدي إن إي للنسخ كما ويتم التفكيك للارتباط بين الجزيء المضاعف للدي إن إي إلى أن نصل إلى مؤشر التوقف الذي يحدد أين سيتوقف النسخ الخاص بالبروتين. تسمى النسخة من الآر إن إي المأخوذة والمنسوخة عن الدي إن إي باسم ال آر إن إي الرسول. هذه النسخة تنفصل عن البوليميريز وتتجه باتجاه آلة كيميائية صناعية أخرى خارج النواة تدعى الريبوزمات.

يلتصق جزيء الآر إن إي الرسول المنتقل بحموض أمينية محددة وذلك من أجل الإعداد لتصنيع البروتين.

وأثناء انتقال الآر إن إي الرسول عبر الريبوزوم تجري ترجمة الترميزات التي يحملها والمطابقة لنسخة الدي إن إي باستخدام المعلومات التي بحوزته كقاعدة تسمح بترتيب الحموض الأمينية وفق تسلسل معين لتكوين سلسلة بروتينية. وعندما تغادر تلك السلسلة البروتينية الريبوزوم تلتقي بالشيبرون الذي يمنع عملية الانطواء المبكر لتلك السلسلة البروتينية المتشكلة.

فالبروتين المتكون ينبغي أن يتم طيه بطريقة معينة ملائمة للهدف الذي من أجله تم صنع هذا البروتين. وعلى هذا الأساس فإننا نعلم أن الشيبرون له دور مهم في الاحتفاظ بمعالم البروتين الهيكلية بشكل ملائم ومن ثم طيه داخله بطريقة ملائمة ليأخذ شكله النهائي الملائم والمناسب لوظيفته، بالرغم من أنه من غير المعلوم بعد الآلية التي يتعامل فيها الشيبرون مع الحالة . وعندما يتم التصنيع النهائي للبروتين يتم تحريره إلى الهيولى ليقوم هناك بأداء عمله.

من الواضح أن عملية تصنيع البروتين هي عملية مدهشة، وهي التي تحدث بشكل مستمر في أجسامنا. ينبغي أن نعلم أن الريبوزومات تصطنع بنفسها من الآر إن إي وكذلك البروتين. وهكذا فإن الريبوزوم تصطنع من نفس البروتين التي تقوم هي نفسها بصناعته. وفي الواقع فإن هناك حاجة لوجود 150 نوع من البروتينات المختلفة وذلك بقصد تصنيع نوع محدد من البروتينات جديد. وهذا يعني أنه ينبغي وجود البروتين أصلا لصناعة البروتين. وهذا ما يرجعنا إلى سيناريو البيضة والدجاجة أيهما جاء أولا.

هنالك في الواقع ملايين من الحواسيب التي تتفاعل داخل كل خلية حية للتواصل مع بعضها وتقوم بقراءة المعلومات و بنقلها من موقع إلى آخر داخل وخارج الخلية. هنالك لغات برمجية مختلفة لمختلف المكتنفات الموجودة داخل الخلية والتي جميعها تتألف من عناصر تشبه إلى حد بعيد العناصر البرمجية في الحواسيب. قال يوما بيل غيت مؤسس شركة مايكروسوفت للحواسيب: إن الدي إن إي لدى الإنسان تشبه برنامج الكمبيوتر لكنها متقدمة بمراحل عظيمة عن أي برنامج برمجي قد قمنا في يوم من الأيام بإعداده.

إن مدلول هذه العبارة يعتبر ذو أهمية كبيرة وفي نفس الوقت جدليا إلى حد ما. فعلى ما يبدو فإن السيد غيت قد اعتبر الاتصالات في أنظمتنا الحية أنظمة معلومات، والدي إن إي شكلا من أشكال البرمجة . أغلب الناس

يعتبرون الحاسوب نظاما للوصول إلى الإنترنت أو لإرسال رسائل إلى الأصدقاء. لكن هذا المثال هو مثال عن الكمبيوتر الإليكتروني. نحن أيضا لدينا أنظمة كمبيوترات أخرى مختلفة ميكانيكية وبيولوجية.

العناصر الأساسية في أي نظام من أنظمة الحواسيب هي : (مواقع الذاكرة) التي تقوم بتخزين المعلومات، وكذلك (نظام التشغيل) والذي يمتلك التعليمات لتحليل المعطيات . ثم يأتي (المعالج) الذي يقوم بتنفيذ التعليمات، ومن ثم وحدة إخراج المنتج النهائي الذي ينبغي أن يكون ذو معنى هادف.

إن العديد من مكونات الخلية يمثل مكتنفات حقيقية لكمبيوتر بيولوجي. وهي تعدل تماما في الحقيقة مكتنفات الكمبيوتر الإليكتروني. فعلى سبيل المثال فالدي إن إي والآر إن إي تملك معلومات وصفية وخوارزميات لبناء البروتين أو لمعالجة معطيات. فالبروتينات هي المنتج النهائي الذي يتم إنتاجه بعد عملية ترجمة ومعالجة من قبل نظام الكمبيوتر الريبوزومي.

لقد اكتشف العلماء أيضا مايسمى باسم (التفاعل المتبادل) وهو بشكل مدهش يمثل شبكة اتصالات داخلية هائلة تستخدم للتواصل بين عناصر الخلية المختلفة. وهي تشبه تماما الإنترنت داخل الخلية حيث البروتينات والآر إن إي والدي إن أي يمكنها أن تبقى في تواصل مستمر مع بعضها البعض. كما أننا نعلم بوجود أنظمة اتصال بين خلوية لنقل المعلومات بحيث تؤمن الارتباط بين مختلف المكتنفات في كامل جسمنا.

والآن هل كان السيد غيت دقيقا في عبارته؟

في عام 2010 قام عالم البيولوجيا المشهور غريغ بيتر وفريقه بإنجاز عمل مدهش يفوق ما تم إنجازه من خلال تحديد الجينوم البشري . لقد ابتدعوا أول نظام تصميم كمبيوتري صناعي يولد مورثات. هذا الدي إن إي الاصطناعي يحمل مليون رسالة من الترميزات الوراثية التي تقرأ وتعالج ومن ثم تحرر داخل نواة الخلية الهدف بواسطة نظام الكمبيوتر. الشكر موصول لبيتر لأن هذه الحواسيب البيولوجية لم تعد مجرد أمر نظري. لقد

أصبحت قائمة تجريبيا. وفي مقابلة معه قال بيتر" إن الحياة وبصورة رئيسية هي تحصيل إجراءات معلوماتية أو أنظمة برمجيات. إن الترميزات الوراثية عندنا تمثل البرامج وخلايانا وبشكل ديناميكي مستمر تقوم بقراءة تلك الترميزات الوراثية."

عندما تم اكتشاف الخلايا قبل مايقرب من ثلاثمائة عام كان الاعتقاد السائد أن بنية الخلية كان بسيطا جدا . لكن ومع اكتشاف المجهر الإليكتروني والمجهر الماسح فقد أصبح لدينا رؤية أكثر وضوحا حول مداخلات الحياة. فالخلية في الحقيقة أداة فعالة وهي نظام من تداخلات شبكية عنكبوتية مكونة من آلاف بل ملايين من المعالجات وبلايين من المعطيات المعلوماتية. تعتبر الخلايا الوحدات البنيوية والوظيفية لكل الكائنات الحية .

بعض الكائنات كالباكتيريا تعتبر أحادية الخلية والكائنات الأخرى كالإنسان مكون من متعددات خلايا. لقد تم تقدير عدد الخلايا التي يملكها إنسان بالغ بما يقدر بمائة ترليون خلية حيث كل خلية من تلك الخلايا هي عالم مدهش في حد ذاته:

فهي يمكنها أن تستهلك المواد الغذائية.

وأن تقوم بتحويل العناصر الغذائية إلى طاقة.

وأن تقوم بأداء وظائف محددة.

وأن تقوم بمضاعفة نفسها في عملية تكاثرية.

والأكثر من ذلك هو أن كل خلية تحمل في مكنونها التعليمات اللازمة للقيام بكل تلك الوظائف.

لنأخذ نظرة قريبة تبين كيف تقوم الخلية بعملها:

إن أول ما يظهر أمامنا هو جدار الخلية والذي يشبه إلى حد كبير ملفا جداريا من برنامج في الكمبيوتر. فهو يحتوي على بوابات تسمح فقط للمكونات ذات الصلة بالولوج وترفض أي عناصر غير ذات صلة.

حالما يتم عبور الغشاء الخلوي فإننا سنلاحظ العضويات الموجودة في الخلية.

فالريبوزومات:

هي أجهزة موجهة بواسطة الكمبيوتر لتصنيع البروتينات الخاصة بالخلية وذلك من خلال اتصالها بـالآر إن إي الرسول واستخدامه كموجه، حيث تقوم الربيوزمات بترتيب الحموض الأمينية من خلال تسلسلات صـائبة لبنـاء بروتين محدد. تسمى هذه العملية باسم الترجمة .

جهاز غولجي:

يتواجد جهاز غولجي في الخلايا النباتية والحيوانية حيث يقوم بتغليف وتخزين البروتينات مثلمـا هـو الأمـر فـي مكتب البريد حيث يقوم بعنونة كل نوع بروتيني ليرسله فيما بعد إلى موقع مختلف داخل الخلية. وهو يتكون من لواصق على جداره تسمى سيسترنا والتي تتكون كل منها من قرص غشائي مسطح وعمله الأساسي هو إجـراء التعديل المناسب على البروتين. كما أن لجهاز غولجي دور في نقل الدسم عبر الخلية وإنتاج الجسيمات الحالة.

الجسيمات الحالة:

الجسيمات الحالة هي العضويات الخاصة بالإتلاف داخل الخلية حيث تحتوي هذه العضـويات الصـغيرة خمـائر حمضية تقوم بتفكيك المنتجات من الفضلات الخلوية . يسمح الجدار المحيط بالجسيمات الحالة للخمائر بأن تعمل في بيئة حمضية بدرجة حموضة 4.5 وهي الملائمة تماما وبدقة لعمل تلك الخمائر على تفكيك الجزيئات ومن ثم طرحها. وبدون تلك الجسيمات الحالة فإن الخلية ستتفاقم فيها الفضلات مما سيقود لاحقا إلى تدمير الخلية لذاتها.

المتقدرات:

تقوم المتقدرات بتوليد الطاقة اللازمة التي تحتاجها الخلية الحية من خلال بناء الأدينوزين ثلاثي الفوسفات ATP وتزويد العضويات التي تحتاجه به. إضافة إلى ذلك فإن المتقدرات تقوم بوظائف أخرى مثل الترميز والتمايز في الخلية كما تلعب دورا في موت الخلية و ضبط الدورة الحياتية الخلوية ونمو الخلية.

النواة:

تعتبر النواة مركز الرصد والتحكم داخل الخلية حيث فيها يتواجد الدي إن إي الـذي يملـك الترميـزات اللازمـة و يعمل على بناء العناصر والمكتنفـات المختلفـة الأخـرى داخـل الخليـة. النـواة تشـبه إلـى حـد مـا اللوحـة الأم فـي الكمبيوتر فهي التي تتحكم وتوجه الاستقلاب والنمو والتكاثر والانقسـام فـي الخليـة وذلـك إضـافة إلـى وظـائف أخرى مختلفة.

تستوجب الحياة وجود عناصر فاعلة تماما من الدي إن إي و الآر إن إي والأدينوزين ثلاثي الفوسفات والخمائر والبروتينات الأخرى. وإذا ما أخفقت أي واحدة من هذه العناصر في الوجود أو الأداء المناسب فإن الحياة ستصبح متعذرة.

هذا يطرح أسئلة عديدة لم تتم الإجابة عليها بعد منها:

- كيف يمكن لمواد غير حية أن تقوم بتوليد البرمجيات والأقراص الصلبة والمرنة المعلوم بأنها مستوجبة وضرورية لكافة الكائنات الحية؟
- كيف أمكن للطبيعة أن تقوم بتطوير الأنظمة وفق آلياتها الاعتباطية والتي يفترض أنها مكنت من التواصل والتنسيق الدقيقين بين الآلاف من أنظمة الحواسيب في كل خلية حية؟

إن مثل تلك الأسئلة لابد أن تقود إلى نقاشات مثيرة بين العلماء. فهؤلاء ومن بينهم الذين يلتزمون بالمذهب الطبيعاني سيجدون من الصعوبة بمكان إيجاد تفسيرات معقولة لتلك التعقيدات التركيبية والبرمجيات الدقيقة في العضويات الحية. وعلى أي حال فإن موضوع نشوء الحياة هو أمر ممتع يستحق النقاش وينبغي أن يشجع التفكير النقدي.

لنختبر كيف يعمل الدي إن إي وماهيته وذلك من أجل فهم أفضل لاستخدام المعلومات داخل الخلية:

جزيء الدي إن إي يحمل التعليمات الوراثية المستخدمة في نمو وعمل جميع الكائنات الحية. وهو يمثل معقدا طويلا من النيوكليوتيد.

يتكون كل نيوكليوتيد من جزيء دي أوكسي ريبوز مع جذر فوسفاتي وأساس. تتصل النيوكليوتيدات مع بعضها لتشكل جذع الدي إن إي وفي الجهة المقابلة فإن جذعا آخر للدي إن إي يرتبط بالجذع الأول ليشكل لولبا مضاعفا.

يمكنك ملاحظة الحروف الترميزية A, C, G, T وهي الأسس الأربعة المستخدمة في بناء الدي إن إي

هذه الحروف هي ترميزات للأسس: تيمين، غوانين ، سيتوزين و أدينين وهي مثل تلك الترميزات التي تحدث عنها السيد غيت في برمجيات الكمبيوتر لديه، حيث تقوم هذه الأسس بتقديم الترميزات الخاصة بالتعليمات الوراثية المتعلقة بالنمو والفعاليات الحيوية لكل أشكال الكائنات الحية المعروفة. فعندما تكون هذه المعلومات

منتظمة فإنها هي من يكوّن المورثات. وكما هو معلوم فإن المورثات هي التي تحتوي الوصفات الخاصة بمعطيات الحياة. تملك المورثات جميع المعلومات التي تتعلق ببناء والحفاظ على وعمل كل الكائنات الحية، هذا إضافة إلى تمرير تلك الصفات الوراثية إلى الأجيال اللاحقة من الكائنات. يحتوي الدي إن إي البشري على مايعدل 20-25 ألف مورثة أو مايقرب من ثلاثة بلايين زوج من الأسس النووية . وإذا ما تم فك الطيات في الدي إن إي وربط نهايات أجزاء الدي إن إي إلى بعضها فإن الحبل المتشكل من الحمض النووي لدى إنسان بالغ سيعدل طوله 30 بليون ميل أي مايعدل المسافة بين الأرض والشمس 320 مرة.

تملك المورثة التسلسلات الترميزية التي تقرر ماهية الصفات الوراثية في المورثة، إضافة إلى تسلسلات لاترميزية هي المقررة لبدء ونهاية عملية الترميز، هذا إضافة إلى آلاف من الوظائف التنظيمية الأخرى. إن المورثات الترميزية تعادل أقل من 2% من كامل الهيكل المورثي. أما ال98% الباقي والذي اعتقد سابقا بأنه بقايا بالية من الدي إن إي فيجري الآن إعادة استكشاف و دراسة دوره الحيوي في العملية الوراثية. فمن الناحية الكيميائية فإن الدي إن إي تعتبر متطابقة في تركيبها سواء في الفراشة أو الفيل أو الإنسان أو النبات. فهي تتركب من نفس العناصر الكيميائية. إلا أن المزايا التي تتفرد بها هذه المواد تكمن في المعلومات التي تملكها كل منها. بمعنى أن تلك الكيمياء المتشابهة تحوي في مضمونها معلومات خاصة مختلفة هي مايعطي لتلك المورثات أهميتها. حيث تمتاز تلك المعلومات بأنها مختلفة تماما بين الكائنات المختلفة. أما التحديات التي تتعلق بأخصائيي البيولوجيا الجزيئية فهي تماما دورهم المهم في فهم ماتعنيه تلك المعلومات.

عندما يتم تفعيل المورثة فإن التسلسل الترميزي يبدأ بالعمل وفق عملية تسمى النسخ، التي يتم من خلالها إنتاج الآر إن إي الرسول الذي هو نسخة مطابقة عن معلومات المورثة على الدي إن إي. يتم إنتاج الآر إن إي الرسول من بروتين مكون من 3000 حمض أميني وهو الذي يقوم بقراءة الترميز الوراثي على المورثة في الدي إن إي. وهنا يتبادر تساؤل مهم: كيف يحتاج الآر إن إي الرسول للبروتين وذلك من أجل قراءة الترميز على الدي إن إي في الوقت الذي يحتاج فيه البروتين إلى الآر إن إي الرسول وذلك من أجل تصنيعه؟ هل من المعقول أن كلاهما قد تولدا في نفس اللحظة والوقت وبوجود المعلومات الدالة لكل منهما كي يعمل بكفاءة تامة؟

من الواضح أن الكثير من الظواهر لايزال يكتنفها الغموض وهي تحتاج إلى إعادة دراستها واستقصائها خصوصا عند الكلام عن نشأة تلك الترميزات اللغوية في العضوية الحية.

إن الخطة البنائية للكائنات الحية كما هو واضح هي كالتالي:

البروتين يحتاج من أجل بناءه للدي إن إي في الوقت الذي يحتاج فيه الدي إن إي لبناء قالبه للبروتين. هذا يطرح سؤالا مهما من جديد حول من جاء أولا فيهما.

الكروموسوم: (الصبغي) هو جزيء كامل من الدي إن إي ملتف حول كتلة من البروتين .

هنالك 23 زوج من الكروموزومات (الصبغيات) في المكنون الوراثي البشري. في حين أن المكنون الوراثي البشري هو ما يمثل كافة الكروموزومات التي تحتوي كافة الخصائص الوراثية التي ستمنح الصفات الشكلية للإنسان. وبمراقبة مايجاورنا فيمكن بسهولة رؤية العديد الهائل من تلك المكنونات الوراثية المتنوعة الممثلة بالكائنات الحية المختلفة الموجودة والتي تخلق عالما مدهشا من التنوع في هذه الأحياء.

تستمر الكائنات الحية في إنتاج منتجات جديدة بشكل مستمر بما في ذلك الخلايا الجديدة وفق مايسمى التضاعف الخلوي خلال مسيرة الحياة بكاملها. أما كيف تعمل تلك الآلية:

تكون البداية في مستوى اللولب المضاعف للدي إن إي، حيث يدخل محرك جزيئي فيقوم بشطر الارتباط بين ذرات الهيدروجين بين جزيئي الدي إن إي الملتحمين إلى شطيرتين منفصلتين وذلك بواسطة الطاقة المتولدة المأخوذة من الآ تي بي (الأدينوزين ثلاثي الفوسفات).

فيصبح لدينا في النهاية سلسلة واحدة من الدي إن إي. هذه العملية تستخدم من أجل المضاعفة للدي إن إي ومن أجل إصلاح أي خلل في السلسلة. وإذا ما تم إعادة مد هذا الالتفاف فإن سلسلة واحدة من الدي إن إي سيكون طولها ما يقارب المترين ومع هذا فهي تنطبق داخل نواة في خلية بحيث لايمكن رؤيتها بالعين المجردة. تبقى هذه السلاسل منفصلة دون أن تتداخل مع بعضها أثناء انفصالها من أجل تضاعفها. بعد ذلك يتم نسخ هذه السلاسل وذلك بواسطة أنزيمات خاصة تستند إلى برامج حواسيب مما يتسبب في توليد سلسلة مضاعفة مطابقة للسلسلة الأصل.

يحتاج الأمر لأكثر من ثلاثين بروتين مختلف للقيام بعملية المضاعفة تلك خلال عملية الانقسام الخلوي. ومن خلال عمليات الانقسام تلك على مستوى الخلية تنشأ الحياة. فكل الكائنات الحية تبتدئ من خلية واحدة. وحالما يبدأ الانقسام الخلوي فإننا نرى العضويات الحية متعددة الخلايا تبدأ بأخذ صفاتها الشكلية . عندما نفكر في أجسامنا والتي تتكون مما يقرب من 100 ترليون خلية والتي لكل منها دور وظيفي محدد كالخلايا الجلدية، الرئوية، القلبية ، العضلات الهيكلية، الجهاز العصبي، العظام، الجهاز الهضمي، الجهاز التناسلي، الجهاز المناعي والدماغ، والتي تعمل كلها في نفس الوقت وبآلية مشتركة لتؤدي هذا العمل المدهش في هذه الآلة الرائعة التي نسميها الجسم البشري فإننا سنقدر من خلال كل ذلك هذا التعقيد والرونق المتميز وبالتالي جمالية الحياة. وحالما ننظر حولنا فإننا سنلاحظ الملايين من النباتات والحيوانات المختلفة بإبداعاتها المتنوعة وهذا ما يجعل الأمر ملهما أكثر للتساؤل عن كمية المعلومات الهائلة التي ينبغي أن تكون قد قدمت لتلك الكائنات الحية من أجل تكونها وتنوعها هذا وذلك بهدف نشأة هذه الحياة وتقدمها واستمرارها.

كل ذلك قد نِشأ أصلا من حلقة من خلية واحدة. فمن خلية إنسانية واحدة حصلنا على مايقرب من 25000 مورثة، كل منها تمنح خصائص شكلية متميزة. حصلنا أيضا على تنوع من 215 خلية مختلفة الوظيفة كل منها قدم نموذجا برمجيا متميزا ومختلفا. إن كل تلك الخلايا مع استثنائين لديها نواة ولديها مكنون وراثي. هذا المكنون الوراثي هو نفسه في كل تلك الخلايا. لذلك فعندما نبدأ بالتفكير في تعقيد هذا المكنون الوراثي، فمن المؤكد أنه معقد بشكل مدهش. إذا ما أدركنا كيف انتقلنا من خلية واحدة إلى خلية متمايزة ناضجة لديها برنامج محدد نوعي للتعبير عن مورثة محددة وهي الضرورية لعمل تلك الخلية المتميز، عندئذ فإننا نكون قد بدأنا نفهم طبيعة تلك المعلومات التي داخل مكنوننا الوراثي والتي تقوم بتوجيه تلك الأنظمة البرمجية المتميزة من أجل إتاحة الفرصة للمورثة للتعبير عن مكنوناتها من خلا ل إبراز الصفات الشكلية.

بالرغم من معرفتنا الجيدة عن الخلية وعملها الوظيفي الخارجي فإننا لا نزال في أول إبحارنا في العالم الداخلي لعمل عناصر و مكتنفات الخلية. فالعلماء لايزالون يكتشفون معلومات جديدة ومعقدة حول الخلية والدي إن إي الخاص بها. وكلما ازدادت معرفتنا ازداد فهمنا لمدى التعقيد المعلوماتي الذي يكتنف متعضيات الخلية الواحدة. وكلما تعمقنا في حقائق هذه المعجزة الصغيرة كلما توجهنا بالتساؤل:

هل من الممكن لهذه القطعة الأعجوبة أن تكون قد نشأت من جمادات هذه الأرض عبر الوقت؟

هل من الممكن لهذا أن يحدث من خلال آليات طبيعية غير موجهة؟

من الواضح أن هذا يمثل سؤالا تصعب الإجابة عليه.

في حقل علوم المعلومات هنالك ما يسمى بقواعد الاحتمالات حيث يستخدم ذلك من أجل تحديد إمكانية واحتمال شيء ما كي يحدث. وللإجابة على السؤال السابق علينا أن نحدد معنى مفهوم الاحتمال:

الاحتمال: هو إمكانية حدوث حدث ما من بين مجموعة أحداث ممكنة. (هذا التعريف افتراضي ومطاط لا يقدم مفهوما واضحا وإنما غامضا. لذلك هناك اعتراض عليه من قبل العديد من الجهات العلمية).

لعلك تعرفت إلى تعابير متنوعة تشبه هذا التعبير مثل:

1- ممكن 2- معقول 3- محتمل 4- غير معقول 5- مستحيل. ودون تقديم فهم واضح لهذه التعابير فلن يكون بمقدورك تقديم تقدير واع يتعلق بنشأة الحياة. وعندما لا تفهم هذه التعابير بدقة **فإن الناس يمكن بسهولة أن يتم خداعهم حول مفاهيم تقدّم على أنها حقائق في حين أنها في حقيقة أمرها لاتعدو كونها مجرد تأملات وتكهنات.**

إن تعبير (ممكن) يعني بالعلم أن حدوثه لايساوي الصفر. وببساطة أكثر فإن حدثا ما إن كان ممكنا فهو قابل للحدوث. لكن هذا التعبير لا ينبغي استخدامه عندما يقدم العلم تقريرا يؤكد فيه أن هذا الحدث بالتأكيد لايمكن حصوله. مثال ذلك إمكانية وقوع حبة النرد على حافتها المستقيمة أثناء رميها مالم يبرهن أن هذا ممكن تجريبيا. فالعلماء يستخدمون بشكل شائع تعريف ممكن في حالات كثيرة ينبغي عليهم في الواقع استخدام التعبير -مشكوك فيه- بدلا عن ممكن. ربما يعتبر هذا الكلام للبعض حذلقة كلامية لكنه بالنسبة لعلوم المعلوماتية فإنه في الحقيقة هو من يحدد ما هو علم وما ليس بعلم.

أما التعبير معقول فهو يعني ممكن الحدوث إلا أن إمكانية حدوثه يجب أن تحدد من خلال استخدام المبادئ العلمية. فإذا كان التقرير النهائي معقولا فهذا يعني أنه من الممكن أن يحدث. بالمقابل عند الكلام عن حدث ما غير معقول فيمكن اعتباره غير عملي أو غير قابل للحدوث في واقع الحال.

أما ظاهرة الاحتمال فلكي يكون الأمر محتملا ينبغي أن تكون إمكانية حدوثه قائمة على الأقل في 50% من الحالات. وعلى سبيل المثال: أثناء رمي قطعتي النرد فإن الاحتمال الغالب هو أن تكون مجموع القيمتين في القطعتين أكثر من 6 . لماذا؟ لأن الممكنات هي 36 إمكانية ومن بينها 21 مرة تقود إلى مجموع أكثر من 6 مما يعطينا عند تقسيمها على عدد مرات الرمي ال36 36/21 = 0.583 وهو الاحتمال لحدوث هذا الحدث. (من جديد لابد من التعليق بأن هذه الظاهرة هي قياس افتراضي لايمكن تحويله إلى قانون مؤكد وذلك لأن الأمر متعلق بعوامل لايمكن ضبطها أو التحكم بها حيث في التكرار من خلال رؤية الوجوه الممكنة تكون النتائج صحيحة أما عند رمي النرد فالنتائج تكهنية غير دقيقة).

إذا ما تم تعليم العامة المعنى العلمي لمدلول الاحتمال وما يعنيه تحديدا الممكن، فإن هذا سيجعل الباحث العلمي أكثر تدقيقا في اختياراته عندما يقدم تقريرا ما.

المستحيل يعني ببساطة أن إمكانية حدوث الحدث هي صفر، لكن عندما تصبح الاحتمالية ضئيلة جدا فيمكن أن تعتبر لأسباب تطبيقية مستحيلة الحدوث أو غير معقولة. فنحن نعلم أن الإمكانية هي أكثر من صفر لكن تطبيقيا يتم تحريرها كمستحيلة. فإذا ما تم تقرير أمر ما أنه مستحيل فهو لايزال تقنيا لديه إمكانية محدودة جدا لحصوله. بعض العلماء يحاولون استخدام تلك الإمكانية المحدودة لتقديم سيناريوهات غير منتهية وذلك ببساطة معتبرين أنها نظريا ممكنة الحدوث ومن ثم يحاولون أن يقنعوا العوام بأن شيئا من هذا القبيل بالتأكيد لابد أنه قد حدث، لأنه من الممكن له ولو في حدود دنيا أن يحدث. مثال على ذلك ما جاء من عالم البيولوجيا المشهور جورج وول. لقد قدم ملاحظة عندما سئل عن نشأة الحياة قال فيها : " كيفما كانت النشأة أو أن أي خطوات فيها غير محتملة الحدوث فبإعطائها المدة الزمنية الكافية فهي تقريبا بالتأكيد لابد أن تحدث ولو لمرة واحدة. فالوقت يعتبر البطل الذي إن طبق سيحقق المعجزات. وبإعطاء الأمر الوقت المناسب فإن المستحيل يصبح قابلا للحدوث. والممكن الحدوث يصبح محتملا، أما المحتمل فإنه يصبح في النهاية مؤكدا. وما على المرء إلا أن ينتظر. فالوقت في حد ذاته هو الكفيل بأن يصنع المعجزات." انتهى

لكن لنأمل بأن الأجيال اللاحقة ستقوم بتطوير فهم عميق لما يعنيه هذا النوع من التلاعب بالألفاظ وأن يستخدموا التفكير النقدي للتمييز بين التفسيرات الممكنة والتوقعات أو التكهنات الفلسفية المجردة غير العلمية.

علينا جميعا أن نستخدم التحليل النقدي في أساسيات محددات تعاريف العلم. إن من يريد أن يعرف ويريد أن يزيد من معلوماته فعليه أن يستخدم التفكير النقدي وألا يسمح لنفسه بأن توضع داخل صندوق بحيث يملى عليه توصيف محدد يشرح كيف أن الأشياء قد جاءت أو كيف تعمل هذه الأشياء. عليه أن ينظر خارج الصندوق. وأن يتحرى هناك الممكنات المتعددة الأخرى ويسأل نفسه ما هو أفضل شرح توصيفي يمكن أن يفسر كيف جاء هذا العالم إلى الوجود.

والسؤال الآن بناء على ماسبق: ما هو احتمال أن تكون خلية واحدة قد تطورت من خلال آليات طبيعية غير موجهة ؟

إن احتمالية أن يكون بروتين واحد قد تم وجوده من خلال آلية طبيعية غير موجهة هو فقط 1/ 10 قوة 164 أي 10 وبجوارها 164 صفرا. هذا الرقم هائل جدا.

إن احتمالية أن تنشأ الخلية الحية بنفس الطريقة السابقة هو 10/1 قوة 340,000,000 وهو رقم لايمكن حتى تخيله.

لتفسير ذلك ليكن لدينا ما مقداره قبضة يد من الرمل. لقد قدر عدد الذرات الرملية في هذه القبضة بأنها تعدل واحد مليون ذرة. نحن بحاجة إلى مليون من هذه القبضة لملئ حوض سباحة عمقه 185 سم وطوله 7.5 م وإذا ما أخذنا بليون من حوض السباحة هذا بما فيه من الرمل فهو سيملأ بحيرة تاغو في نيفادا التي بامتداد 22 ميل وبعرض 12 ميل. ونحن بحاجة إلى بليون من بحيرة تاغو لبناء مايعدل حجم الكرة الأرضية من الرمل. وهذا يعني أن احتمال ملئ الكرة الأرضية بحبيبات الرمل تلك هو 10/1قوة 30 وهو رقم لايزال صغيرا مقارنة مع احتمال بناء بروتين واحد وفق آليات غير موجهة. نحن بحاجة إلى 100 بليون من الأرض لبناء شمس من الرمال و مائة ترليون من الشمس لبناء نظامنا الشمسي. 10ترليون من مجموعتنا الشمسية لبناء مكعب يمثل سنة ضوئية، 100بليون مكعب سنة ضوئية لبناء مجرتنا درب التبان . وحوالي 10 بلايين مجرة من درب التبان لبناء هذا الكون المنظور.

إن إمكانية الحصول على ذرة واحدة من هذا الرمل من كافة أجزاء الكون المنظور تقيس فقط 10/1 قوة 96. وهذا الرقم لايزال بعيدا جدا عن إمكانية اصطناع جزيء بروتين واحد وفقا للآليات الطبيعية غير الموجهة

والتي قيست بأنها 10/1 قوة 164. وهو بالتأكيد أقل بأرقام فلكية من إمكانية نشوء الحياة ممثلة بأصغر خلية حية والذي يعدل 10/1 قوة 340 مليون. (وهذا مصداق الآية الكريمة" ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذونه منه ضعف الطالب والمطلوب").

يعتبر العلماء أن أي شيء يكون احتماله أقل من 10/1 فوة 70 هو بشكل تطبيقي مستحيل الحصول. بالمناسبة، فإن تلك الحسابات لا تأخذ بعين الاعتبار مقدار المعلومات المخزنة داخل وحدة الخلية الحية والتي توجه الخلية في كل اتجاهات عملها. إن الموضوع فقط هو مجرد مواد كيميائية ترتبط ببعضها بعضا.

إذن إن إمكانية نشوء الحياة وبقائها واستمراريتها من خلال التطور يمكن اعتباره ومن خلال قيم فلكية أقل من أي شيء نعرفه أو تعرفنا عليه. وهذا فقط يتعلق بخلية واحدة. فكيف هو الحال بملايين من تلك الكائنات الحية المختلفة؟

لنتصور فقط أن كل تلك الكائنات الحية قد جاءت للوجود من خلال قوى طبيعية عفوية غير موجهة. وفقا لعلوم المعلوماتية فإن احتمال ذلك شبه معدوم، فهو تطبيقيا مستحيل. (من هنا يجب التركيز على أن استخدام الاحتمالات بالطريقة التي استخدمت بها من قبل أنصار التطور تجعل من استخدامها وسيلة تلاعب بالعقول وهذا ما يعيدنا من جديد إلى بحث إشكاليات في فرضية التطور في كتاب (الدارونية والتطور في ميزان العلم) لاستقصاء حقيقة الاحتمالات وتحليل معطياتها بدقة.).

من خلال كل ذلك فهل يجوز قبول السيناريو الذي يفترض ويستند إلى التطور البيولوجي والكيميائي وأن يدرس في كل أنحاء العالم بحيث يعتبر التفسير الوحيد لنشأة الحياة؟

هذا يعني أن لا نفتح عقولنا لأي خيار تفسيري آخر. إن أهم مدلول لهذا البحث الذي ينبغي أن نستخلصه و نتعلم منه هو :

عندما تكون الملاحظات والمعطيات متناقضة مع الفرضية التي تقوم باختبارها عندئذ فإن عليك أن تعدل تلك الفرضية أو أن تسقطها بالكلية.

لكن لسوء الحظ، فإن هذا يبدو بأنه لا يحدث في المفهوم الشائع حول نشأة الأنواع. بل على العكس من ذلك فكما يبدو فإن العديد من العلماء يحاولون أن يأخذوا بعض المعطيات الجزئية و أن يعيدوا تشكيلها كي تنطبق على النموذج التطوري. لكن هل يعتبر هذا علما نافعا؟

إن التفكير النقدي مطلوب للتعرف على المعلومات العلمية الحقيقية وللتأكد من أن أي سيناريو يتم عرضه لايحدث فيه انتهاك للمبادئ التي يقوم عليها علم المعلوماتية. فعادة ما يعتقد بعض العلماء أن لديهم معلومات يحصلون عليها من خلال معطيات نظرية، في الوقت التي تكون فيه تلك المعلومات غير صائبة. حيث أن تلك المعلومات لايمكن حقيقة استقصاؤها من خلال المعطيات التطبيقية الملاحظة أو التجريبية.

لقد تأكد بأن أنظمة المعلوماتية التطبيقية المكتشفة داخل الكائنات الحية لم يتم تكونها أو تخلقها إطلاقا من خلال تفاعلات فيزيائية عفوية طبيعية.

قال سيغموند فرويد ذات مرة "إن القفز من خطأ إلى خطأ يجعل الإنسان قادرا على اكتشاف الحقيقة الكاملة".

وأثناء تحري التاريخ فقد تم اكتشاف العديد من الأخطاء التي ارتكبت في العلوم. نحن نتذكر كيف كان ينظر إلى الأرض على أنها منبسطة وأنها هي مركز الكون. أو أن الخلية هي أبسط عناصر الحياة.

وعلى الرغم من أن تلك الفرضيات كانت واعدة في حينها، اكتشفنا لاحقا أنها خاطئة تماما. فكلما تعلمنا أكثر عن هذا العالم الذي نعيش فيه، بدأنا نقدر مدى التعقيد العظيم الذي يكتنفه. وحتى في حالة الخلية فكلما بحثنا أكثر كلما اكتشفنا أعماقا مركبة أشد تعقيدا.

من خلال جمع المعلومات التي بين أيدينا فإن علينا نحن العلماء، الطلاب، والزملاء أن نجلب العلم نحو درجة من المصداقية والتحليل النقدي الذي يستحقه. إذا ما تعاملنا مع العلم بدون أية خلفيات فكرية مسبقة، فإننا لن نحصل على علم فحسب وإنما سنتحرى جمالية وإلهام هذا العلم.

إن واجبنا هو وضع فرضية دارون قيد الاختبار، وأن نبحث عن الشواهد الحقيقية سواء مع أو ضد تلك الفرضية. فواجب العلماء ليس أن يثبتوا أو ينفوا الفرضية بل على الفرضية نفسها بعد خضوعها للتقييم ومن خلال الشواهد العلمية الحقيقية أن تثبت أو تنفي نفسها. هذا هو قانون العلم. وإذا ما أخفقت تلك النظرية في أن تقوم بذلك فعندئذ ينبغي رفضها.

إن إمكانية انبثاق الحياة من خلال استخدام القوانين الطبيعية والكيميائية والفيزيائية تعتبر تطبيقيا مستحيلة. عندما نأخذ بعين الاعتبار قانون المعلومات فإن تلك الإمكانية المزعومة تتحول إلى استحالة. إن المعلومات الوصفية الموجهة ذات الدلالة لايمكن أن تنشأ من عدم مهما أتيح من وقت للانتظار. وحتى نعترف بهذه الحقيقة، فإنه من المؤكد أننا لن يكون بمقدورنا التعرف على أصل هذه الحياة.

مراجع الكتاب:

1- Phillip E. Johnson, DARWIN ON TRIAL by Phillip E. Johnson (C) Copyright 1991, Used with permission of Phillip E. Johnson and Regnery Gateway Publishing Co. Electronically Enhanced Text (c). Copyright 1993 World Library, Inc.

2- Darwin, C. (1859). On the Origin of Species by Means of Natural Selection. London: John Murray.

3- Behe, Michael J..DARWIN'S BLACK BOX, The Biochemical Challenge to Evolution. 10th Anniversary edition.

4- Behe, M.J. (1998). Embryology and evolution. Science, 281, 347-351.

5- Michael Denton, Evolution: A theory in Crisis. (p. 264). Adler and Adler, 1985.

6-The Fossil Record is Incompatible with Evolution. Duane T. Gish, PhD. Senior Vice-president Emeritus. Institute for Creation Research. Santee, CA 92071

7- Wells, J. Haeckel's embryos & evolution: Setting the record straight. The American Biology Teacher, 61(5), 345-(1999).

8-Wells, J. Icons of Evolution. Washington, DC: Regnery (2000).

9- Gould, S. J. (1977). Ontogeny and Phylogeny. Cambridge, London: Belknap Press. 349.

10- Fairbanks, 2007, pg. 130. 33 See for example http://www.indiana.edu/~ensiweb/lessons/p.stdnt.pdf.

Mayer, Stephen C. The Origin of Biological Information and the Higher -12 Taxonomic Categories, 117(no. 2) (2004).

11- Dembski, William A. No Free Lunch: Why Specified Complexity Cannot be purchased Without Intelligence (2002).

1- الجديد في الانتخاب الطبيعي أو(صانع الساعات الأعمى) (بيولوجيا) ريتشارد دوكينز. ترجمة د. مصطفى ابراهيم فهمي- مكتبة الأسرة 2002 – الهيئة المصرية العامة للكتاب.